أندرو بريستون

مقدمة مختصرة في العلاقات الخارجية الأميركية

ترجمة: أحمد طارق البوهي



المـركز العـربي للأبحـاث ودراسة السيـاسات
Arab Center for Research & Policy Studies

ترجمان

أندرو بريستون

ترجمان

مقدمة مختصرة في العلاقات الخارجية الأميركية

هذا الكتاب

هو محاولة للإجابة عن بعض المسائل المتعلقة بتاريخ العلاقات الخارجية للولايات المتحدة منذ تأسيسها في أواخر القرن الثامن عشر، وحتى حربها على الإرهاب وصراعها الدائر مع الصين في أوائل القرن الحادي والعشرين، وأبرزها: كيف بلغت الولايات المتحدة هذه المكانة العالمية غير المسبوقة؟ وما التطورات التي مرت بها عبر تاريخها حتى وصلت إلى هذه المرحلة؟ وما العوامل التاريخية التي يمكن من خلالها فهم وتحليل سياساتها الخارجية وعلاقاتها الدولية؟ وكيف يرى الأميركيون أنفسهم ودورهم في العالم؟ وكيف أثرت أميركا بتفاعلاتها في العالم الذي نعيش فيه اليوم؟

يرى المؤلف أن تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية ينبغي أن يكون محط اهتمام أي شخص في أي بلد كان، فقد كان للولايات المتحدة تأثير كبير بخلاف أي قوة عظمى أخرى، منذ بداية القرن العشرين. وبلغ حضورها - الثقافي والاقتصادي والسياسي والتكنولوجي والعسكري - حدًا من العظم، حتى بات لسلوكها في علاقاتها مع غيرها، أهمية عالمية غير عادية.

Andrew Preston
AMERICAN FOREIGN RELATIONS
A Very Short Introduction
OXFORD

المؤلف

أندرو بريستون، ولد في مدينة أونتاريو الكندية وتخرج في جامعة تورنتو قبل التحاقه بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وجامعة كامبردج. ثم درّس التاريخ والدراسات الدولية في جامعات كبرى مثل جامعة فيكتوريا وييل، حتى استقر به المقام أستاذًا للتاريخ الأميركي بجامعة كامبردج في المملكة المتحدة. ألّف عدة كتب ومقالات في التاريخ الأميركي والعلاقات الدولية مثل كتاب **مجلس الحرب: ماكجورج باندي ومجلس الأمن القومي وفيتنام** (*The War Council: McGeorge Bundy, the NSC, and Vietnam*) (2006)؛ **سيف الروح، درع الإيمان: الدين في الحرب والدبلوماسية الأميركية** (*Sword of the Spirit, Shield of Faith: Religion in American War and Diplomacy*) (2012)، وبه حصل على جائزة تشارلز تايلور للكتاب في عام 2013.

المترجم

أحمد طارق البوهي، مترجم ومراجع مصري، يعمل حاليًا في مركز نماء للبحوث والدراسات. حائز الماجستير في العلاقات الدولية من الجامعة الأمريكية في القاهرة (2016). يعد حاليًا أطروحة الدكتوراه في العلوم السياسية في جامعة القاهرة (كلية الاقتصاد والعلوم السياسية). له عدد من المقالات المنشورة في المواقع الإلكترونية.

- فلسفة وفكر
- اقتصاد وتنمية
- لسانيات
- آداب وفنون
- تاريخ
- علم اجتماع وأنثروبولوجيا
- أديان ودراسات إسلامية
- علوم سياسية وعلاقات دولية

المـركز العـربي للأبحـاث ودراسة السيـاسات
Arab Center for Research & Policy Studies

السعر: 8 دولارات

ISBN 978-614-445-399-5
9 786144 453995

أخي الحبيب وصديقي العزيز
رفيق درب الغربة في طريق السياسة
الذئب الطريف المتوجه من هذا إلى الرياضة
أهديك هذا الكتاب عربونا بالمحبة والمودة
لعله يكون لك عونا في طريق الغربة
لا حرمني الله من تحيتك بقولي
"ديب يا أي حال جشع يا ديب"
أحبك في الله يا محمد الديب
(أحمد [illegible])

السابع من شهر رجب المحرم عام ١٤٤٤ للهجرة
التاسع و العشرون من شهر يناير عام ٢٠٢٣ للميلاد

مقدمة مختصرة
في العلاقات الخارجية الأميركية

هذه السلسلة

في سياق الرسالة الفكرية التي يضطلع بها «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، وفي إطار نشاطه العلمي والبحثي، تُعنى «سلسلة ترجمان» بتعريف قادة الرأي والنخب التربوية والسياسية والاقتصادية العربية إلى الإنتاج الفكري الجديد والمهم خارج العالم العربي، من طريق الترجمة الأمينة الموثوقة المأذونة، للأعمال والمؤلفات الأجنبية الجديدة أو ذات القيمة المتجددة في مجالات الدراسات الإنسانية والاجتماعية عامة، وفي العلوم الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والسياسية والثقافية بصورة خاصة.

وتستأنس «سلسلة ترجمان» وتسترشد بآراء نخبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف البلدان العربية، لاقتراح الأعمال الجديرة بالترجمة، ومناقشة الإشكالات التي يواجهها الدارسون والباحثون والطلبة الجامعيون العرب كالافتقار إلى النتاج العلمي والثقافي للمؤلفين والمفكرين الأجانب، وشيوع الترجمات المشوَّهة أو المتدنية المستوى.

وتسعى هذه السلسلة، من خلال الترجمة عن مختلف اللغات الأجنبية، إلى المساهمة في تعزيز برامج «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» الرامية إلى إذكاء روح البحث والاستقصاء والنقد، وتطوير الأدوات والمفاهيم وآليات التراكم المعرفي، والتأثير في الحيز العام، لتواصل أداء رسالتها في خدمة النهوض الفكري، والتعليم الجامعي والأكاديمي، والثقافة العربية بصورة عامة.

مقدمة مختصرة
في العلاقات الخارجية الأميركية

أندرو بريستون

ترجمة
أحمد طارق البوهي

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
بريستون، أندرو، 1973-
مقدمة مختصرة في العلاقات الخارجية الأميركية/ أندرو بريستون؛ ترجمة أحمد طارق البوهي.
208 ص.: صور؛ 24 سم. - (سلسلة ترجمان)
يشتمل على ببليوغرافية (ص. 181-188) وفهرس عام.
ISBN 978-614-445-399-5
1. الولايات المتحدة الأمريكية - العلاقات الخارجية. أ. البوهي، أحمد طارق. ب. العنوان. ج. السلسلة.
327.73

هذه ترجمة مأذون بها حصريًا من الناشر لكتاب

American Foreign Relations: A Very Short Introduction, First Edition

by Andrew Preston

عن دار النشر
Oxford Publishing Limited
American Foreign Relations: A Very Short Introduction, First Edition
was originally published in English in 2019.
This translation is published by arrangement with Oxford University Press

الناشر
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى
بيروت، أيار/ مايو 2021

شكر

لقد كان اختصار مثل هذا الموضوع الضخم في مثل هذه المساحة الصغيرة، مهمة ممتعة، لكنها لم تخل من صعوبة. وأود أن أشكر كلًّا من كيت إبشتاين ونيك جويات وآندي روتر وجون تومسون وأحد القراء المجهولين الذي أمدني بتقرير غاية في الإفادة، تقديرًا لمساعدتهم لي بتقديم المقترحات والقراءات المتأنية ولإنقاذي من بعض الأخطاء المحرجة، ولعلّي أتحمل مسؤولية أي أخطاء ربما تكون بقيت. وأخيرًا، أحب أن أشكر محررتي، سوزان فيربر، على صبرها الحثيث وتحريرها المتبصر المتأني وتشجيعها الدائم.

المحتويات

قائمة الصور

مقدمة الترجمة العربية

ربما كان أكثر ما أذهل محللي الانتخابات الرئاسية الأميركية لعام 2020، بين المرشحين دونالد ترامب وجو بايدن، هو متابعة الشعوب العربية عامة لمجريات هذه الانتخابات، متابعة لم يسبق لها مثيل، بحيث كانت الجماهير العربية تتابع من كثب ولحظة بلحظة نتائج التصويت في كل ولاية وكل مقاطعة، مطنبةً في تتبع استطلاعات الرأي والتوقعات، وتحليل كيف أن فوز هذا المرشح بهاتين الولايتين سوف يضمن له هذا العدد من أصوات المجمع الانتخابي وما إذا كان ذلك يكفل له الفوز بالانتخابات في حال فوز المرشح الآخر بولاية أخرى، وما إذا كانت الأصوات المرسلة بالبريد سوف تضمن تقدم هذا المرشح في هذه المقاطعة أو تلك وكيف سيؤثر ذلك في نتيجة الولاية ككل. وذلك إن دل على شيء، فهو يدل على إدراك هذه الجماهير مدى تأثير نتيجة هذه الانتخابات في حياتها بشكل مباشر، فمن مؤمِّلٍ في أن ذلك المرشح سوف يدفع حكومات تلك المنطقة إلى مزيد من احترام الحريات المدنية وحقوق الإنسان، إلى آخر يخشى أن خسارة هذا المرشح أو ذاك سوف تضطر حكومة بلاده إلى تبني هذه السياسة أو تلك. لم تكن الحال لتكون كذلك لو لم يكن للسياسة الخارجية للولايات المتحدة حقًا مثل هذا الثقل والتأثير، وليس هذا إلا لكونها أصبحت، ومنذ وقت طويل، وإلى المستقبل المنظور في الأقل، أهم وأقوى فاعل على الساحة الدولية. وهو ما أشار إليه مؤلف هذا الكتاب في أول فقرة منه بقوله:

«إن تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية ينبغي أن يكون محط اهتمام أي شخص في أي بلد كان، فقد أثرت الولايات المتحدة فعليًا في تاريخها جميعًا،

بخلاف أي قوة عظمى أخرى منذ بداية القرن العشرين. وبلغ حضورها – الثقافي والاقتصادي والسياسي والتكنولوجي والعسكري – حدًا من العظم، بحيث بات لسلوكها في علاقاتها مع غيرها، أهمية عالمية غير عادية. وسواءً كان ذلك لخير أم لشر، فنحن نحيا في عالم خلقته، إلى حد بعيد، القيم والنظم والتقنيات والقوة الأميركية، وبالتبعية مدى تبني أو مقاومة هذه الظواهر الأميركية. لذلك، كان فهم تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية بالغ الأهمية لفهم العالم الذي نعيش فيه».

كيف إذًا بلغت الولايات المتحدة هذه المكانة العالمية غير المسبوقة؟ وما هي التطورات التي مرت بها عبر تاريخها حتى وصلت إلى تلك المرحلة؟ وما هي العوامل التاريخية التي يمكن من خلالها فهم وتحليل سياساتها الخارجية وعلاقاتها الدولية؟ وكيف يرى الأميركيون أنفسهم ودورهم في العالم؟ وكيف أثرت أميركا بتفاعلاتها العالمية في العالم الذي نعيش فيه اليوم؟

يحاول أندرو بريستون، أستاذ التاريخ الأميركي بجامعة كامبردج، في هذا الكتاب المختصر، الإجابة عن بعض تلك الأسئلة وغيرها من المسائل المهمة المتعلقة بتاريخ العلاقات الخارجية للولايات المتحدة منذ تأسيسها في أواخر القرن الثامن عشر وحتى حربها على الإرهاب وصراعها الدائر مع الصين في أوائل القرن الحادي والعشرين. ولعمري، فإن اختصار هذا التاريخ الضخم هو مهمة قاسية على من يتصدى لها، خصوصًا كون الولايات المتحدة أقوى الكيانات السياسية في التاريخ المعاصر، بل لعلها القوة التي حظيت بنفوذ عالمي لم تحظ بمثله أي قوة واحدة في التاريخ قاطبة، وما زال نفوذها قويًا وطاغيًا على الرغم من الحديث عن أفول نجمها مع تصاعد قوى عالمية جديدة. فإلى أي مدى نجح بريستون في القيام بهذه المهمة البالغة الصعوبة، وما الجوانب التي أجاد فيها، وأي المواضع من التاريخ التي ربما احتاجت إلى مزيد تفصيل وعناية. هذا ما سنحاول استعراضه في هذه المقدمة.

ولد أندرو بريستون في مدينة أونتاريو الكندية وتخرج بجامعة تورنتو قبل التحاقه بكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية وجامعة كامبردج. ثم درّس التاريخ والدراسات الدولية في جامعات كبرى مثل جامعة فيكتوريا وييل، حتى استقر

به المقام أستاذًا للتاريخ الأميركي بجامعة كامبردج في المملكة المتحدة. ألّف عدة كتب ومقالات في التاريخ الأميركي والعلاقات الدولية مثل كتاب **مجلس الحرب: ماكجورج باندي ومجلس الأمن القومي وفيتنام** (*The War Council: McGeorge Bundy, the NSC, and Vietnam*) الذي نشر في عام 2006، وكتاب **سيف الروح، درع الإيمان: الدين في الحرب والدبلوماسية الأميركية** (*Sword of the Spirit, Shield of Faith: Religion in American War and Diplomacy*) الذي نشر في عام 2012 وبه حصل على جائزة تشارلز تايلور للكتاب في عام 2013. ويُعد كتابه **مقدمة مختصرة في العلاقات الخارجية الأميركية** (*American Foreign Relations: A Very Short Introduction*) المنشور في عام 2019 والذي نحن بإزاء ترجمته، آخر كتبه. إذًا، فقد كرس عمله الأكاديمي بأسره تقريبًا لخدمة هذا التخصص المتعلق بتاريخ العلاقات الخارجية الأميركية، ولذلك ربما كان بريستون أحد أفضل من يستطيع القيام باختصار هذه المسيرة الحافلة في كتاب يكون مقدمة يسيرة تفتح الباب لمن أراد ولوج هذا العالم الفسيح، وتقدم لمحة شاملة لمن يرغب في المرور بالمسألة مرورًا خفيفًا فحسب.

يبين لنا بريستون في بداية الكتاب غرضه من هذه الترجمة، ألا وهو مناقشة بعض الموضوعات المتعلقة بتاريخ العلاقات الدولية الأميركية، ورفع الضباب عن بعض الأساطير والخرافات التي تحيط بهذه المسألة. ومن ثم يشرح لماذا اختار مصطلح العلاقات الخارجية وليس التاريخ الدبلوماسي أو الاستراتيجي، كونه أشمل وأوسع دلالة. أما باقي المقدمة، فقد كرسها لبسط الخيط الناظم الذي يربط الكتاب كله بعضه ببعض، ألا وهو سبعة موضوعات رئيسة شاملة تحيط بتاريخ العلاقات الخارجية الأميركية كافة، بحيث تتقاطع وتتشابك ويقوي بعضها بعضًا عند تناول كل مسألة مفردة من هذا التاريخ العريض. فالموضوع الأول يتعلق بأهمية القيم وروح الرسالية التي تطغى على السياسة الخارجية الأميركية أكثر من غيرها من الأمم، هذه الروح التي تنبعث أصلًا من الشعور بفردانية الولايات المتحدة وخصوصيتها بين الأمم، وهو ما يعرف بـ«الاستثنائية». ثانيًا، يؤكد بريستون أن التوسع والتقدم كان لهما دائمًا دور بالغ الأهمية في نظرة الأميركيين إلى العالم من حولهم، ويشمل التوسع هنا كلا المعنيين الحرفي والمجازي

للكلمة، أي التوسع في حيازة الأراضي وكذلك نشر القيم والثقافة الأميركية. ثالثًا، أهمية الدين والجنس والعرق بوصفها مصادر قوية للعمل الأميركي في العالم، بحيث تمتع الرجل الأبيض البروتستانتي دومًا بالنفوذ الأكبر في صناعة السياسة الخارجية الأميركية. أما المسألة الرابعة فتتعلق بأهمية الحرب ومركزيتها بالنسبة إلى التجربة الأميركية في العالم، فهو يرى، على عكس الخرافة السائدة، أن الحرب كانت السمة الوحيدة الدائمة للسياسة الخارجية الأميركية على مدار تاريخها منذ أكثر من مئتين وخمسين سنة. ويمثل الموقع الجغرافي المميز للولايات المتحدة المسألة الخامسة الكبرى التي عادة ما يتم تجاهلها على الرغم من أثرها بالغ الأهمية في سلوك الولايات المتحدة؛ فكونها قارة كبيرة تحيط بها البحار والمحيطات من جميع جهاتها، منحها ميزة لم تتوفر لقوة غيرها من قبل، ألا وهي «الأمن الحر» أي الأمن من الغزو الخارجي. أما المسألة السادسة فهي خرافة «الانعزالية» أي الاعتقاد بأن الولايات المتحدة كانت تفضل الانعزال عن شؤون العالم الخارجي (أي قبل الحرب العالمية الأولى)، وهو ما لم تكن عليه الحال منذ أن أصبح هناك بلد يسمى الولايات المتحدة. والمسألة السابعة والأخيرة، هي أثر السياسة الداخلية في السياسة الخارجية، نظرًا إلى الطبيعة الديمقراطية للولايات المتحدة منذ نشأتها، تلك الطبيعة التي تعطي وزنًا كبيرًا للسياسة الداخلية والرأي العام. ويختم بريستون بالتأكيد أن هذه المسائل السبع ليست هي الوحيدة التي يمكن تفسير السياسة الخارجية الأميركية من خلالها، إلا أنه يرى أن لها فائدة كبرى في تفسير وتحليل أغلب تمظهرات هذه السياسة.

في الفصل **الأول**، المبادئ الأولى، يسرد بريستون قصة تأسيس الولايات المتحدة، والتي يصفها بأنها في حد ذاتها كانت عملًا من أعمال السياسة الخارجية. ويتناول في أثناء ذلك أهم المعضلات التي واجهت الجمهورية الوليدة في أثناء حرب الاستقلال وما تلاها، حيث انشغل الآباء المؤسسون بمسألة في غاية الأهمية، ألا وهي إقامة التحالفات والشراكات الضرورية مع باقي دول العالم، ولكن مع الحفاظ على استقلالية الجمهورية الوليدة وابتعادها عن مشكلات وصراعات تلك الدول التي لا ناقة للولايات المتحدة فيها ولا جمل. أما بعد الاستقلال، فقد سيطرت مسألة التجارة الخارجية وحرية الملاحة عبر الأطلسي، وقد رأى مؤسسو

الجمهورية الجديدة أنها ضرورية لإبقائها على العلاقات الخارجية للولايات المتحدة في تلك الفترة، وقد ارتبطت بهذه المسألة المركزية معضلة الموازنة بين العلاقات مع كل من بريطانيا وفرنسا المتصارعتين. وتمخضت تلك المرحلة الأولى عن أول حرب تخوضها الدولة المستقلة الوليدة في عام 1812 وعقيدة مونرو التي تستلهم مبادئ الأحادية والاستثنائية الأميركية، ليصبح هذان المبدآن بمثابة النجوم التي تهدي السياسة الخارجية الأميركية منذ ذلك الوقت.

أما الفصل **الثاني**، حول التوسعية، فقد خصصه بريستون لقص حكاية توسع الولايات المتحدة الأميركية من كونها عبارة عن ثلاث عشرة مستعمرة متناثرة على طول الساحل الشرقي لقارة أميركا الشمالية، إلى الولايات المتحدة التي نعرفها اليوم، تلك الدولة الفدرالية الهائلة التي تمتد عبر القارة بكاملها من حدود كندا شمالًا إلى المكسيك جنوبًا ومن المحيط إلى المحيط. وفي أثناء هذه القصة، نتعرف إلى القيم والمبادئ والأحوال التي دفعت هذه العملية ومثلت أيديولوجيا قومية عامة للتوسعية. تلك التوسعية التي هي نتاج الشعور بالاستثنائية والفردانية، والتي سوف تصبح في ما بعد أحد أهم ما يدفع السياسة الخارجية الأميركية، ليس في القارة وحسب، ولكن في العالم بأسره. وخلال تلك الرحلة يعرج بريستون على الحروب التي خاضتها الدولة الناشئة في سبيل ذلك التوسع، بداية من حروب أميركا المستمرة لتشريد الأميركيين الهنود، سكان القارة الأصليين، وما تخلل هذه الحروب من أعمال وحشية، مرورًا بحرب المكسيك، التي اختلقت الولايات المتحدة حجة لغزو بعض أراضيها، وصولًا إلى الحرب الأهلية المروعة التي ثارت في الولايات الأميركية نفسها حول مسألة العبودية والوحدة القومية، انتهاءً بآخر الحروب الهندية التي شهدت قمع آخر الهنود واستيعابهم النهائي في المجتمع الأميركي. وندرك في نهاية الفصل أن هذا التوسع خلق أمة قومية موحدة مترابطة قوية تنتظر لتنشر قيمها وتفرض هيمنتها على باقي العالم، في المرحلة التالية من التوسع.

وبحلول القرن التاسع عشر، أصبحت الولايات المتحدة قوة اقتصادية هائلة، إلا أنها كانت لا تزال في مكانة متأخرة من حيث القوة العسكرية والدور

الذي تؤديه في العالم، وكان لابد لذلك أن يتغير. وفي الفصل **الثالث**، يحكي لنا بريستون عن قصة هذا التحول الأميركي إلى استغلال قوتها الاقتصادية وخصائصها الطبيعية لتؤدي دورًا أكثر حيوية في السياسة العالمية. فمن حرب الاستقلال الكوبية، التي قضت فيها أميركا على إسبانيا بوصفها قوة إمبراطورية، إلى الحرب العالمية الأولى، التي قلب دخول أميركا فيها الموازين، بات واضحًا للجميع أن هذا العملاق الجديد سوف يؤول إليهم دور القيادة العالمية عاجلًا أم آجلًا. غير أن الأميركيين لم يشعروا وقتها أنهم في حاجة إلى هذه المكانة، التي أرادها لهم الرئيس وودرو ويلسون والدولانية الليبرالية التي آمن بها وسياساته الخارجية الثورية، بل آثروا النأي بأنفسهم عن العالم وصراعاته التي لا تنتهي. إلا أن الأقدار لن تتركهم ينعمون بهذه الراحة كثيرًا، إذ جرتهم الحرب العالمية الثانية إلى مصيرهم الذي لا مفر لهم منه.

وفي الفصل **الرابع**، نخوض مع بريستون الجدالات والتجاذبات التي سادت بين فريقين من الأميركيين في الفترة بين الحربين العالميتين واستمرت حتى أوائل الحرب العالمية الثانية. فقد حاجَّ الدولانيون بأن أميركا عليها واجب استلام راية القيادة العالمية بما تمتلكه من قوة هائلة غير مسبوقة ومبادئ سامية يجب عليها حمايتها ونشرها في العالم. في مقابل ذلك، اعتقد الفريق الآخر أن الولايات المتحدة، المتمتعة بالأمن والرخاء في أراضيها بعيدًا عن العالم، لابد من أن تهتم بشؤونها الخاصة وألا تُجَر إلى صراعات وحروب لا طائل منها ولن تحقق إلا الإضرار بأمن واستقرار الولايات المتحدة. واستمر هذا الجدال الكبير في أثناء ما مر به العالم من أزمات اقتصادية وأمنية توجت بالكساد الكبير وقيام الحرب العالمية الثانية، إلا أنه توقف إثر تعرض الولايات المتحدة للهجوم الياباني المفجع على قاعدة بيرل هاربر في المحيط الهادئ. ومنذ ذلك الوقت، لم يعد أمام الأميركيين إلا الانخراط النشط في قيادة العالم. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بزغت القوة الأميركية بوصفها القوة الأعظم في العالم، إلا أنه بات عليها مشاركة هذه المكانة مع قوة عظمى أخرى، ألا وهي الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي أسفر عن بداية ما عُرف في التاريخ العالمي بالحرب الباردة.

وعلى ذلك نخوض رحلة الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي، القوتين العظميين المتبقيتين على الساحة العالمية بعد الحرب العالمية الثانية. فعلى مدار الفصل **الخامس**، يبين لنا بريستون أسباب قيام هذا الصراع بين القوتين اللتين خاضتا الحرب العالمية في حلف واحد، ثم يعرج بنا على مراحل تلك الحرب الباردة التي ظلت طوال أربعين سنة تتأرجح بين التصعيد والتهدئة وسنوات من الأزمة، يكاد يصل فيها العالم إلى الفناء النووي، تتلوها فترات من الهدوء النسبي، عُرفت أولاها بفترة الوفاق، وهي لم تكن خالية من الصراع تمامًا، بل تخللتها فترات من الترقب والتحفز. فقد شهدت فترة الوفاق خوض الولايات المتحدة إحدى أكثر حروبها مأساوية في فيتنام، حيث يحلل بريستون تلك الحرب وأسباب استمرار الولايات المتحدة فيها واستراتيجيات الرؤساء المتعاقبين للتعامل معها وكيفية انتهائها وآثارها البعيدة المدى، والتي كان منها تطبيع العلاقات الأميركية – الصينية بعد عقود من العداوة. كذلك يحلل بريستون سياسة الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط إبان تلك الفترة، وما تخلل ذلك من صراع عربي-إسرائيلي وكيف تعاملت الولايات المتحدة مع أطراف هذا الصراع وما تبعه من ثورة إيرانية معادية لأميركا وغزو الاتحاد السوفياتي لأفغانستان. وأخيرًا يختم بريستون الفصل ببيان كيفية انتهاء هذه الحرب الباردة ودور زعيمي طرفي النزاع في التوصل إلى حل سلمي لهذا الصراع الطويل، الذي خرجت الولايات المتحدة منه القوة العظمى الوحيدة على الساحة العالمية، لتبدأ في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الحادي والعشرين، حقبة الهيمنة الأميركية التامة على الشؤون العالمية.

وفي الفصل **السادس** والأخير، يبين لنا بريستون هذه الحالة من الهيمنة الأميركية الكاملة على الشؤون العالمية وغياب أي منافس لها. وبخلاف الفصول السابقة، يؤسس بريستون هذا الفصل على مقارنة رؤيتين نظريتين لهذا الموقف الأميركي الجديد، إحداهما تتنبأ بانتهاء التاريخ واستقرار العالم على قبول المبادئ الديمقراطية الليبرالية الأميركية (فوكوياما)، بينما تزعم الأخرى أن القادم في العلاقات الدولية إنما هو صراع متجدد يدور حول الهويات الثقافية لحضارات العالم المختلفة. ومن خلال هذا الإطار يمر بريستون على أحداث تلك الفترة مرورًا

سريعًا يكاد لا يوفيها حقها من التحليل فمن حرب الخليج في أوائل التسعينيات إلى أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر وما أعقبها من غزو لأفغانستان والعراق يحاول بسط فكرة الصراع بين رؤيتي فوكوياما وهنتنغتون اللتين سبقت الإشارة إليهما. وينهي بريستون الفصل والكتاب باستعراض أفول هذه الهيمنة الأميركية في مقابل صعود الصين بوصفها قوة عالمية جديدة تهدد المصالح والقيم الأميركية والتساؤل عما إذا كان ذلك سوف يجعل القرن القادم قرنًا صينيًا.

لابد من أن القارئ سوف يجد متعة في المرور على هذا التاريخ الطويل في صفحات قليلة، فقد أجاد بريستون في عرض تأريخه للعلاقات الخارجية الأميركية منذ نشأة الولايات المتحدة، ولا عجب فقد كتبه بروح المؤرخ العالم بما يكتب. ولابد أن الاختصار الشديد قد أجبره على بعض التضحيات والخيارات الصعبة بين الأحداث التي يجب سردها وتلك التي من الممكن تجاوزها من دون إخلال بالموضوع. ويبدو أن جهوده قد آتت أُكلها، فالقارئ له قد لا يشعر أن شيئًا ذا بال قد فاته من التاريخ الأميركي برمته، فضًلا عن تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية. ولم يكتف بريستون بسرد الأحداث التاريخية فحسب، وإنما عادة ما كان يشفع ذلك بتحليل متبصر للسياق التاريخي لها والأسباب التي أدت إليها والعوامل التي أثرت فيها والعواقب التي أسفرت عنها. كذلك فالكتاب مهم في تأسيس العديد من الرؤى النظرية العميقة ودحض الكثير من الخرافات المنتشرة حول الولايات المتحدة وعلاقاتها الخارجية. وهو مع ذلك لا يتحرج من الإشارة إلى الجوانب القاتمة من هذا التاريخ، بل يضعها في موضعها ويدينها بما يتناسب مع الموضوعية الأكاديمية التي ينشدها. كل ذلك يصنعه المؤلف من دون أن يفقد السرد التاريخي تشويقه وسلاسته. إلا أن أكثر ميزات الكتاب أهميةً هو تأصيله لجذور كثير من ممارسات السياسة الخارجية الأميركية، بحيث يستطيع القارئ بعد إنهاء الكتاب عزو كل تحرك في السياسة الخارجية تقوم به الولايات المتحدة اليوم، إلى أصوله التاريخية والشخصيات الفاعلة التي كان لها تأثير مباشر في تجذر مثل هذه الممارسات في عقل صناع القرار الأميركيين على اختلاف مشاربهم واتجاهاتهم. وهذه أيضًا إحدى ميزات الكتاب، إذ يحكي قصة شخصيات وأفراد، أحلامهم وأفكارهم ومخاوفهم ومطامعهم، بقدر ما يحكي تاريخ أمة بأسرها، وليس تاريخ

الرؤساء وصانعي السياسة المباشرين لها فحسب، وإنما يذكر كذلك عددًا من الصحافيين والكتاب والمفكرين الذين كان لأفكارهم أثر ما على سياسة أميركا الخارجية.

بيد أنه على الرغم من كل هذه الميزات، فقد شابت الكتاب أيضًا العديد من العيوب. بعضها يمكن عزوه إلى الرغبة في الاختصار أو الالتزام بقدر معين يجب أن لا يخرج الكتاب عنه، منها على سبيل المثال، مروره السريع والخفيف، الذي قد يصل إلى السطحية المُخلَّة، على بعض أهم أحداث تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية، مثل غزوها لكل من أفغانستان والعراق وما أعقب ذلك من احتلال وصراع مرير خاضته القوات الأميركية ضد تمرد فعال، وكيف أثر ذلك على سياسات أميركا في المنطقة والعالم. كذلك إهماله لتاريخ العلاقات الأميركية مع بعض أهم الفاعلين الدوليين والإقليميين مثل إهماله للعلاقات الأميركية - المصرية تمامًا، حتى أنه لم يكتب عنها سطرًا واحدًا، باستثناء حديثه العابر ربما عن اتفاقية السلام مع إسرائيل، لدرجة أنه لم يذكر علاقة أميركا بأي دولة في الشرق الأوسط غير المملكة العربية السعودية وإسرائيل، وبذلك أهمل علاقة أميركا بتركيا وباكستان والأردن ودول المغرب العربي. كذلك جاء ذكره لإيران عابرًا سطحيًا، وكأن الولايات المتحدة لم يكن لها دور في نظام الشاه رضا بهلوي، الذي لم يأبه حتى لذكر اسمه، إلا تدبيرها للانقلاب الذي جاء به إلى الحكم. هذا بخلاف إهماله للدور البغيض الذي قامت به وكالة الاستخبارات المركزية في أميركا الجنوبية وما دبرته من انقلابات على أنظمة ديمقراطية ودعمها لأنظمة عسكرية قمعية شديدة القسوة والبطش. أما علاقة أميركا بأوروبا، فلم يعر أي اهتمام للاختلافات النوعية في علاقة أميركا بكل من المملكة المتحدة وفرنسا وألمانيا على سبيل المثال، بل وضعها جميعًا في سلة واحد من دون اعتبار لخصوصية أي منها. وأمثال ذلك كثيرة يطول الكلام فيها. هناك عيب آخر يمكن عزوه إلى قيود الاختصار، ألا وهو عدم إتيانه بأي هوامش يذكر فيها من أين استمد تلك الأفكار وأين يمكن التأكد من صحة كثير من الأحداث التاريخية التي يسردها، ناهيك الأرقام والتقديرات الجزافية التي لابد لها من مصدر موثوق، إلا أنه، وللإنصاف، يشير في كثير من الأحيان إلى بعض أسماء المؤرخين والمفكرين

الذين استمد منهم هذه الفكرة أو تلك، لكنه يفعل ذلك غالبًا من دون ذكر الكتاب أو السياق الذي قيلت فيه هذه الأفكار أو صكت فيه هذه المصطلحات. إلا أن كل ذلك يمكن التماس العذر فيه للمؤلف بصغر حجم الكتاب ومحدودية ما يمكن تناوله في مثل هذا الحجم الصغير.

أما العيوب الأهم، والتي ليس لها بالضرورة علاقة بمعوقات الاختصار، فتتلخص في عيوب موضوعية وأخرى منهاجية. أما أولها فيتعلق بموضوع الكتاب نفسه، إذ إن موضوعه لا يهتم بالعلاقات الخارجية الأميركية، بل بتاريخ هذه العلاقات، والفارق بين الأمرين عظيم. فعنوان الكتاب يوحي للقارئ بأنه سوف يطلع على العوامل المؤثرة في السياسة الخارجية الأميركية وآليات صنع القرار الأميركي على الساحة الدولية وتفاعل السياسة الداخلية مع السياسة الخارجية وكيفية تحقيق المصالح الأميركية وكنه هذه المصالح وكيفية تحديد أولوياتها والصراع الداخلي بين وحدات صنع القرار داخل الإدارة الأميركية، وربما شيء من المقاربات النظرية التي تفسر هذه الظواهر، فضلًا عن تحليل علاقات الولايات المتحدة المعاصرة بالقوى الدولية العائدة مثل روسيا بوتين، وبالقوى الصاعدة مثل الصين والهند وجنوب أفريقيا والبرازيل، وبشركائها الأوروبيين وأعضاء حلف شمال الأطلسي، وبشركائها القدامى في آسيا مثل اليابان وكوريا الجنوبية ...إلخ. وحاضر هذه العلاقات جميعًا ومستقبلها. غير أن الكتاب خلا من تلك الأمور جميعًا، وجاء سردًا تاريخيًا لنشأة الولايات المتحدة وتطور دورها في العالم. لذلك، ربما كان الأحرى بالكاتب أن يضيف كلمة «تاريخ» إلى عنوان الكتاب، بحيث يصبح «تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية» حتى يزول هذا اللبس. ونتيجة لهذا، جاءت أغلب استشهادات المؤلف بآراء مؤرخين وأساتذة بأقسام التاريخ حصرًا، وكان لابد له في موضوع مثل هذا، من أن يرجع إلى آراء بعض المتخصصين في العلاقات الدولية والسياسة الخارجية. كذلك، فالكتاب ينتهي فجأة عند ذكر عابر لبدايات فترة حكم الرئيس باراك أوباما، وهي نهاية مبكرة جدًا لكتاب نشر في عام 2019، وعلى ذلك جاء من دون تحليل للعلاقات الخارجية في ثمانية أعوام من إدارة الرئيس أوباما والتي تبعتها أربعة أعوام أخرى من إدارة الرئيس دونالد ترامب، وفي تلك الفترة ما فيها من التقلبات والأحداث

التي يمثل خلو الكتاب منها عيبًا كبيرًا، إلا أن ذلك يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الكتاب ركز بالأساس على التاريخ وليس على الحاضر أو المستقبل.

أما العيب المنهاجي، فيتمثل في غياب الخيط النظري الناظم لفصول الكتاب، أو ربما ضياع هذا الخيط في المنتصف. فقد بدأ المؤلف الكتاب بفصل كامل يتحدث فيه عما يمكن أن نراه بوصفه رؤيته النظرية للعلاقات الخارجية الأميركية، وكانت هذه بداية موفقة إلى حد بعيد، إذ أوحت للقارئ بأن الكتاب سوف يسير من البداية وفقًا لهذه الرؤية العامة التي أسسها المؤلف من البداية. والتزم المؤلف بالفعل بهذا النهج في الفصلين **الأول والثاني**، المبادئ الأولى والتوسعية، إلا أنه مع بداية الفصل **الثالث**، بدأ ذلك الخيط الرفيع يذوب في متاهات السرد التاريخي، حتى اختفى بالكلية في الفصول الثلاثة الأخيرة، الأمر الذي جعلها تبدو قصة مشوقة أكثر من كونها سردية محكمة لها دعائم صلبة.

أخيرًا، فإن هذا كتاب قيم وفيه جهد محترم مشكور، نأمل أن تساهم ترجمته ووضعه بين يدي القارئ العربي، في إثراء المكتبة العربية برؤية حيوية ومتميزة لتاريخ العلاقات الخارجية الأميركية، تكون مدخلًا إلى الاستزادة لاحقًا بأطروحات أعمق وأشمل عن السياسة الخارجية الأميركية، وتكون رفيقًا خفيفًا حسن العشرة لمن أراد أن يحيط بشيء من هذا البحر العميق.

مقدمة

إن تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية ينبغي أن يكون محط اهتمام أي شخص في أي بلد كان، فقد أثرت الولايات المتحدة بالفعل على كل بلد آخر في العالم، بخلاف أي قوة عظمى أخرى منذ بداية القرن العشرين. وبلغ حضورها - الثقافي والاقتصادي والسياسي والتكنولوجي والعسكري - حدًا من العظم، بحيث بات لسلوكها في علاقاتها مع غيرها، أهمية عالمية غير عادية. وسواءً كان ذلك لخير أم لشر، فنحن نحيا في عالم خلقته، إلى حد كبير، القيم والنظم والتقنيات والقوة الأميركية، وبالتبعية مدى تبني أو مقاومة هذه الظواهر الأميركية. لذلك، يبدو فهم تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية بالغ الأهمية لفهم العالم الذي نعيش فيه.

بيد أن ذلك لا يعني أن أميركا كانت مطلقة القوة في العالم أو أن نفوذها كان حاسمًا. فعلى الرغم من قوتها، أخفقت الولايات المتحدة في تحقيق أهدافها في كثير من الأحيان. إلا أنه، حتى عندما كان يحدث ذلك - في فيتنام أو العراق على سبيل المثال - لم يكن من الممكن تجاهل العواقب. كذلك، لا يعني هذا أن تفاعلات الولايات المتحدة الخارجية كانت نافعة دائمًا - فالقول بأن قوة الولايات المتحدة كانت عظيمة لا يعني بالضرورة أنها كانت دائمًا خيرة.

لهذه الأسباب هناك الكثير من الجدل الدائر حول موضوع العلاقات الخارجية الأميركية. وتهدف هذه المقدمة الوجيزة، لهذه المسألة الكبيرة والمهمة، إلى تناول بعض الموضوعات الأكثر أهمية والخرافات الأكثر شيوعًا عن الولايات المتحدة في العالم، بطريقة منصفة قدر الإمكان.

لنبدأ أولًا بكلمة عن المصطلح. فإنني أستخدم مصطلح «تاريخ العلاقات الخارجية» هنا قصدًا، بدلًا من «التاريخ الدبلوماسي»، الوسم البديل الأكثر استخدامًا. ذلك أن مصطلح «العلاقات الخارجية» يُعد أرحب وأشمل، فهو لا يتضمن سياسة الدولة والاستراتيجيا العسكرية والدبلوماسية العالية فحسب، وإنما يضم كذلك التفاعلات غير الدولية النابعة من التجارة والهجرة والبعثات الدينية والثقافة. ولأن الأثر العالمي الأميركي لم يكن في الأغلب يتعلق بالدبلوماسيين والاستراتيجيين القابعين في واشنطن، فقد بدا مصطلح «العلاقات الخارجية» الذي يتضمن كلًا من التاريخ الدولي، من أعلى إلى أسفل، والتاريخ العابر للقوميات، من الأسفل إلى الأعلى، أكثر ملاءمة ودقة.

وفي سياق إلقاء الضوء على العديد من اللحظات الفارقة في تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية، فإن هذا الكتاب مفعم بسبعة موضوعات رئيسة، يعضد كثير منها بعضه بعضًا في المراحل المختلفة.

أولًا، أهمية القيم وشعور بنوع من الرسالية. فجميع القوى العظمى تكون مدفوعة بمُـثلها، إلا أن العلاقات الخارجية الأميركية كانت خلقية ومعيارية لدرجة غير عادية. وكان ذلك لاعتقاد بخصوصية الولايات المتحدة، ومن ثم، خصوصية الدور الذي من شأنها أن تؤديه – وهي الأيديولوجيا المعروفة بـ«الاستثنائية» (Exceptionalism) – الأمر الذي كان له بالغ الأثر في تحديد مصالح الولايات المتحدة في العالم.

ثانيًا، كان لأفكار التوسع والتقدم دورًا مهمًا في الكيفية التي ينظر بها الأميركيون إلى العالم من حولهم. وكان لذلك معنى حرفي في البداية، تمثل في الاستحواذ على الأراضي، إلا أن التوسع والتقدم كان كذلك يعني نشر القيم الأميركية المدفوع برغبة في تغيير العالم الخارجي المحيط بالولايات المتحدة، ليس لفائدة الأميركيين فحسب، ولكن أيضًا لمصلحة غيرهم. بمعنى آخر، كان التقدم يتطلب التوسع. أما عن ترحيب غير الأميركيين بهذا التقدم الأميركي، فقد كان محل شك أحيانًا، وأما تحديد الشيء الذي حفَّز الأميركيين، فذلك ليس بذي بال.

ثالثًا، كان العرق والجنس والدين، على وجه الخصوص، مصادر قوية للانخراط الأميركي في العالم. فقد أُسِّست الولايات المتحدة جمهوريةً بيضاء تسمح بامتلاك العبيد، وكانت البروتستانتية والرجولة دعامتين رئيستين للثقافة السياسية. لذا كان على الذين افتقدوا القوة عادة - الأفريقيين الأميركيين، النساء، الكاثوليك، اليهود، المورمون - التزام الضوابط التي وضعها الرجال البيض البروتستانت. إلا أن مع مرور الوقت، ومع تحول المجتمع الأميركي إلى مزيد من التعددية وانتهاء الاستعمار في العالم، تحولت هذه الدينامية للقوة. ومع ذلك، بقيت هذه الضوابط القديمة صامدة بشكل يدعو للاستغراب.

ورابع الموضوعات الرئيسة هو مركزية الحرب في التجربة الأميركية - ليس على المستوى الخارجي فحسب، بل في التاريخ الأميركي ذاته. فثمة اثنتان من أكثر الخرافات القومية انتشارًا، أن الولايات المتحدة لا تشن الحرب إلا لمامًا، وأنها لا تسارع إليها. إلا أن الأميركيين، في واقع الحال، غالبًا ما كانوا يلجأون إلى القوة المسلحة لتحقيق أهدافهم، في القارة الأميركية الشمالية بداية، ثم حول العالم. في الواقع، ربما كانت الحرب هي الجانب الأكثر استمرارية في العلاقات الخارجية الأميركية على مدار المئتين وخمسين عامًا الماضية، وكان لها أثر عميق باقٍ في تطور الثقافة والاقتصاد والضوابط الاجتماعية والمؤسسات السياسية الأميركية. بيد أن ذلك يجب أن لا يدفعنا إلى تصور أن الولايات المتحدة كانت دولة عدائية مثيرة للحروب بشكل استثنائي، بل كانت أمة كغيرها من الأمم، لا أكثر عدائية ولا أقل.

خامسًا، كان للموقع الجغرافي للولايات المتحدة أهمية بارزة في علاقاتها الخارجية، الأمر الذي لم يكن يلتفت إليه عادة. فهي محاطة من جميع جوانبها بغياب التهديد، وقد ظلت كذلك طوال تاريخها تقريبًا. وهذا ما يشير إليه المؤرخون بـ «الأمن الحر». فمنذ نهاية حرب عام 1812، لم تواجه الولايات المتحدة خطر الغزو، فضلًا عن الاحتلال الأجنبي. أما منافسوها من القوى العظمى، فقد عاشوا جميعًا هذه التجربة بالتحديد، على مدار الفترة نفسها، ربما بشكل متكرر، ولم تنج من الغزو والاحتلال الفعلي إلا بريطانيا. وربما عقَّد بزوغ القوة الجوية العابرة

للمحيطات والطاقة النووية في الأربعينيات، الأمن الأميركي، إلا أن ذلك لم يُلغ هبة الموقع الجغرافي للبلاد. وعلى الرغم من تعرض الأميركيين للهجوم الأجنبي (لا سيما في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر 2001)، إلا أن هذه الوقائع، على الرغم من هولها، كانت هي الاستثناء لا القاعدة.

سادسًا، هناك الخرافة الخبيثة المسماة بـ«الانعزالية» (Isolationism). فلم يكن هناك أي فترة في التاريخ الأميركي بقي خلالها الأميركيون منعزلين غير معنيين إلا بشؤون أنفسهم. ولم يعن الأمن الحر أن الولايات المتحدة كانت، على نحو ما، مغلقة على باقي العالم. فمنذ أن كان هناك بلد اسمه الولايات المتحدة، جاب الأميركيون الكوكب بحثًا عن التجارة وعن الذين يمكن هدايتهم، بينما عكست الحرب المستمرة الجانب الأكثر قتامة من التفاعل الأميركي مع باقي العالم. إلا أن الأميركيين بالتأكيد كانوا، في مجمل تاريخهم، يتصرفون «أحاديًا» – أي، في العالم، ولكن وفقًا لشروطهم الخاصة – وبقي الأمر على تلك الحال حتى زمن الحربين العالميتين والحرب الباردة. وذلك أمر يختلف عن «الانعزالية»، المصطلح الانفعالي الذي انتشر أولًا بوصفه نعتًا سياسيًا خلال الجدل الذي دار حول التدخل في الحرب العالمية الثانية. ولا يعود كون «الانعزالية» مصطلحًا خبيثًا لطبيعته المسيسة فحسب، بل أيضًا لكونه سمح للأميركيين بالاعتقاد في وجود عصر ذهبي لا وجود له، كانت فيه الأمور أقل تعقيدًا، وتحكم خلاله الأميركيون بمصيرهم.

سابعًا وأخيرًا، أهمية السياسة الداخلية في تحديد سلوك السياسة الخارجية الأميركية، بما فيها الدبلوماسية والتدخل العسكري. تشكّلت الحرب والدبلوماسية الأميركيتان وفقًا للحاجة إلى الشرعية الشعبية والسياسية، ويعود ذلك جزئيًا إلى ثقافة الديمقراطية الشعبية الراسخة، من جهة، وإلى أن الأمن الحر أزال ضغط الكفاح الوطني المستمر من أجل البقاء من جهة أخرى. ولم يكن باستطاعة صانعي السياسة الخارجية تجاهل الضغوط الشعبية، حتى وإن أرادوا. إضافةً إلى ذلك، وفرت البنية غير المركزية للحوكمة الأميركية – المتمثلة في الفدرالية وكذلك نظام الحكومة المقسمة المبنية على فصل السلطات والمراقبة والموازنة بينها –

فرصًا متنوعة لانهائية للأفراد والجماعات للضغط على الموظفين المنتخبين، الذين يضغطون بدورهم على صانعي القرار السياسي.

هذه الموضوعات السبعة ليست شاملة جامعة، إلا أنني وجدتها دائمًا معالم نافعة حال نظري في تاريخ الانخراط الأميركي مع باقي العالم. فهي تؤدي، أولًا وأخيرًا، وظيفة العدسات المفسرة التي يمكن استخدامها منفردة، أو بوضع واحدة فوق الأخرى، إذا كانت الصورة معقدة أو غير واضحة. وهي كذلك مترابطة متداخلة، فعلى سبيل المثال، تساعد الاستقلالية التي أتاحها الأمن الحر في اختيار سياسة خارجية منفكة عن منع الغزو والاحتلال، في تفسير مثل هذا التأثير الكبير لكل من القيم والسياسة الداخلية على السياسة الخارجية طوال تلك الفترة.

الفصل الأول

المبادئ الأولى

بدأت الولايات المتحدة وجودها بوصفه عملًا من أعمال السياسة الخارجية - ولا نبالغ إذ نقول إن تلك الأمة تدين بوجودها ذاته للعمل الحربي والدبلوماسي الناجح. ففي خلال الأربعين عامًا التي تلت قيام الثورة في عام 1775 حتى نهاية الحرب مع بريطانيا في عام 1815، أقام الجيل المؤسس أمة جديدة، وطد أركانها من طريق الاستجابة لسلسلة من التحديات الدولية. وفي أثناء ذلك، قام بإنشاء مجموعة من المبادئ الأولى للعلاقات الخارجية - تحديدًا، الأحادية (unilateralism) والاستثنائية (exceptionalism) والتوسعية (expansionism) - والتي سوف تشكل انخراط الأميركيين في العالم الأوسع لقرون قادمة.

الجمهورية الوليدة

كان قاطنو ما سوف يصبح الولايات المتحدة رعايا للتاج البريطاني حتى أواسط سبعينيات القرن الثامن عشر، وكانوا يعدون جزءًا من الإمبراطورية البريطانية. غير أن سلسلة من الأزمات الإمبريالية ساهمت في إثارة مطالب الاستقلال لدى المستعمرات الأميركية. فبعد انتصارها على فرنسا في حرب السنوات السبع[1] في عام 1763، أصبحت بريطانيا القوة الأوروبية المسيطرة في النصف الشرقي من أميركا الشمالية. وأعلن المسؤولون البريطانيون خطًّا على طول جبال الأبلاش يمنع الاستيطان في ما وراءه، ليحفظوا السلم مع الهنود الأميركيين، الذين كانوا لا يزالون يقطنون أغلب القارة. وبعدها بسنوات قليلة، بدأوا يفرضون الضرائب على سكان مستعمرات أميركا الشمالية لسداد تكاليف

(1) حرب السنوات السبع: هي حرب جرت بين عامي 1756 و1763، وشاركت فيها بريطانيا وروسيا وهانوفر ضد فرنسا وروسيا والسويد وسكسونيا. وكان الصراع الاستعماري بين بريطانيا وفرنسا في أميركا الشمالية، أهم أسبابها. وانتهت الحرب بمعاهدة باريس 1763 وفرض بريطانيا سيطرتها على معظم أراضي أميركا الشمالية بوصفها القوة الاستعمارية المهيمنة في القارة على حساب فرنسا. (المترجم)

الحرب مع فرنسا. أغضب كلا الإجراءين سكان المستعمرات كثيرًا، إذ كانوا يعدون التوسع نحو الغرب حقًا طبيعيًا وضرورة اقتصادية. وزاد قمع السلطات البريطانية للمخالفين من تأجيج الميل نحو الثورة. وتصاعدت التوترات في أوائل سبعينيات القرن الثامن عشر، جراء بعض التدابير البريطانية مثل ما عرف بالقوانين الجائرة وقانون كيبيك[2]، الأمر الذي أثار المزيد من التظاهرات الغاضبة. وما لبثت الحرب أن اندلعت في ماساتشوستس في ربيع عام 1775 بمعركتي كونكورد وليكسنغتون[3].

جاء الانفصال الحاسم عن بريطانيا بعدها بعام عندما اجتمع الكونغرس القاري[4] في فيلادلفيا لتقديم وتوقيع إعلان الاستقلال[5]. وكان غرض الإعلان

(2) القوانين الجائرة (Intolerable Acts): هي مجموعة من القوانين التي أصدرها البرلمان البريطاني لمعاقبة مركز المعارضة في مدينة بوسطن. فبعد إنشائهم ما عرف بحزب الشاي الذي اعترض بشدة على الضرائب المفروضة على واردات الشاي، قام بعض أعضائه بإتلاف شحنات الشاي في الميناء، الأمر الذي دفع البرلمان البريطاني إلى إصدار عدة قوانين لمعاقبة سكان بوسطن منها: قانون ميناء بوسطن في حزيران/ يونيو 1774، الذي قضى بعدم مغادرة أي سفينة الميناء وعدم استقبال أي سفينة فيه حتى يتم دفع تكاليف الشاي الذي أُتلِف. وقانون تنظيم ماساتشوستس، الذي أعطى الملك سلطات أكبر في الإدارة السياسية للمستعمرة. وقانون إدارة العدالة، الذي سمح للحاكم البريطاني بنقل من يحاكَم في الجرائم الكبرى إلى بريطانيا أو إلى أي مستعمرة أخرى. وقد استغل ناشطو بوسطن تلك القوانين لتصوير بريطانيا والملك بمظهر المستبد الذي يريد سلب المستعمرين حريتهم وحقوقهم. (المترجم)

قانون كيبيك (Quebec Act): قانون من البرلمان البريطاني يقضي بتوسيع حدود كندا إلى نهر أوهايو. (المترجم)

(3) أولى المعارك التي قامت بين الجيش البريطاني وسكان المستعمرات الأميركية في التاسع عشر من نيسان/ أبريل 1775، وهي التي مثلت نهاية الثورة الفكرية وبداية الثورة المسلحة التي استمرت حتى نهاية الثورة وتحقيق الاستقلال. (المترجم)

(4) الكونغرس القاري (Continental Congress): أول مؤتمر سياسي يجمع ممثلين من المستعمرات الثلاث عشرة، وكان ناشطو بوسطن هم أول من دعا إلى عقده، فعقد أول اجتماع له في فيلادلفيا في الرابع من أيلول/ سبتمبر 1774 بحضور ستة وخمسين ممثلًا من اثنتي عشرة مستعمرة. وأصبح ذلك الكيان في ما بعد هو صوت المستعمرات الموحد وأنيطت به مهمة إدارة الحرب مع بريطانيا خلال أعوام الثورة الثمانية. (المترجم)

(5) إعلان الاستقلال (Declaration of Independence): كان الحديث عن الانفصال السياسي التام عن التاج البريطاني قد انتشر في أرجاء المستعمرات جميعًا وتكلل بالمنشور الذي كتبه توماس بين بعنوان «الفطرة السليمة» ودافع فيه عن فكرة الاستقلال عن بريطانيا. وقد لاقى هذا المنشور قبولًا وانتشارًا واسعين، =

الرئيس هو تقوية اتحاد ما كان حتى هذه اللحظة مجرد تجمع ضعيف لحفنة من المستعمرات المنفردة اليائسة التي يغلب عليها التنازع، أو بكلمات أخرى، إقامة اتحاد جديد مستقل. وأراد مؤلفو الإعلان لأمتهم الجديدة أن «تتبوأ مكانة مساوية ومستقلة بين أمم الأرض». ولفعل ذلك، كان عليهم أن يهزموا البريطانيين، وكان ذلك يتطلب حلفاء. لذلك، كان أحد أهداف الإعلان الأخرى هو التماس عون خصوم بريطانيا في أوروبا، لا سيما فرنسا، ولبيان أنه ليس من الممكن التراجع عن طريق الثورة بعد الآن. وقد سعى الثوار إلى بث شكاواهم من بريطانيا بالتماس «احترام لائق لآراء البشرية وعرض الحقائق على العالم النزيه». لذلك، كان إعلان الاستقلال يمثل استغاثة وطلبًا للعون، بقدر ما كان إظهارًا للحزم والإصرار.

احتاج سكان المستعمرات، عند إطلاق ثورتهم، إلى الموازنة بين طموحهم لنيل الاستقلال الوطني، والحاجة إلى عقد روابط عسكرية ودبلوماسية مع خصوم بريطانيا، فرنسا وإسبانيا. فمن ناحية، كانت التحالفات أمرًا حيويًا، فقد امتلك البريطانيون أقوى جيش في العالم، وكان الأسطول الملكي وحده قادرًا على تنغيص حياة الولايات المتحدة، هذا وقد حافظ البريطانيون على وجود عسكري كثيف في أميركا الشمالية منذ حرب السنوات السبع. لذلك كانت فرصة نجاح الولايات المتحدة في هزيمة بريطانيا من دون شركاء ودعم، ضعيفة للغاية - في الحقيقة، كان الكونغرس القاري قد بدأ بالفعل في تهريب كميات كبيرة من السلاح والعتاد الآتي من أوروبا. من ناحية أخرى، إذا قدم الثوار وعودًا أكثر من اللازم لكل من فرنسا وإسبانيا، فإقامة تلك التحالفات قد تهدد الاستقلال ذاته الذي كان هؤلاء الثوار يقاتلون من أجله.

= الأمر الذي شجع أعضاء الكونغرس القاري على إصدار إعلان الاستقلال في الرابع من تموز/ يوليو 1776، ليعلن بشكل قطعي رغبة المستعمرات في الاستقلال عن بريطانيا وينهي أي تململ أو تردد لدى المستعمرين في اتخاذ هذه الخطوة. ووضع توماس جيفرسون نصه الأساسي، ووقع عليه جميع أعضاء الكونغرس بعد تعديلات طفيفة، وتمت طباعته وتوزيعه ليقرأ على وحدات الجيش القاري وفي المجالس النيابية للمستعمرات. وكان أحد تداعيات إصدار مثل هذا الإعلان هو الدعوة الضمنية، التي مثّلها، للدول الأجنبية كي تبدأ التعامل مع المستعمرات بوصفها كيانًا سياسيًا موحدًا مستقلًا. (المترجم)

اعتقد جون آدامز[6]، المحامي من ماساتشوستس وأحد قادة الثورة الأميركية، أنه وجد طريقة للاصطفاف مع شركاء، من دون التخلي عن الاستقلالية الأميركية. فصاغ معاهدة أنموذجية (Model Treaty) في عام 1776، لتكون بمنزلة قالب للسياسة الخارجية للأمة الوليدة. وكان آدامز يعتقد أن الأمة الجديدة لن يكون باستطاعتها البقاء تابعة لإحدى القوى الأوروبية، وكان أيضًا شديد المعارضة للكاثوليكية ولا يثق بالملكية، الأمر الذي كان نابعًا من ثقافة منطقة نيو إنغلاند البيوريتانية. وخيم على صياغة هذه المعاهدة الأنموذجية شبح قوة فرنسا الذي لا مفر منه، إلا أنها مع ذلك صممت لتصبح مخططًا للدور الذي سوف تؤديه الولايات المتحدة في العالم. فانصرفت إلى وقاية الأميركيين من التورط في الشؤون السياسية للحلفاء الخارجيين، خاصة مشاحناتهم مع البلدان الأخرى. عدَّ آدامز التجارة أولويةً، بافتراض أن الأمة الوليدة سوف تحتاج إلى التجارة الخارجية لضمان بقائها، إلا أنه حرص على تجنب أي التزامات سياسية أو عسكرية دائمة، مثل معاهدة عدم اعتداء غير محددة المدة أو معاهدة دفاع مشترك حال وقوع الحرب. وكانت تلك المعاهدة بمنزلة إعلان استقلال في الشؤون العالمية، وأول تمظهر للأحادية الأميركية، فلم يكن من قبيل الصدفة أن يضمنها الكونغرس القاري في النقاشات التي أنتجت الإعلان. بيد أن الفرنسيين، حتى تلك اللحظة، كانوا على حذر من الدخول في شراكة معلنة مع الثوار ولم يكونوا على استعداد لمواجهة مفتوحة مع لندن.

كان العامان الأولان من الحرب الثورية صعبين على كلا الفريقين، فلم يكن باستطاعة البريطانيين ولا الأميركيين تحقيق زخم كاف لشن حملة حاسمة. وبعد سلسلة من الانتصارات الأميركية القصيرة الأجل، وقعت بوسطن، أحد معاقل الثورة ضد البريطانيين، تحت حصار استمر قرابة عام، في حين حقق القادة البريطانيون النصر في عدة معارك حول مدينة نيويورك ومن ثم تتبعوا الجيش

---

(6) جون آدامز (John Adams) (1735-1826): محام من ولاية ماساتشوستس وعضو بالكونغرس ودبلوماسي وأحد الموقعين على إعلان الاستقلال، وكان أحد أهم قادة الثورة الأميركية ويعد أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة وأحد أهم واضعي دستورها. شغل منصب نائب أول رئيس للبلاد وأصبح ثاني رئيس لها بعد جورج واشنطن. (المترجم)

الأميركي الرئيس، الذي كان تحت قيادة جورج واشنطن[7]، إلى نيوجيرسي. واستطاع واشنطن إيقاف التقدم البريطاني في كل من ترينتون وبرنستون في كانون الأول/ ديسمبر 1776 وكانون الثاني/ يناير 1777 على التوالي، إلا أن قواته كانت قد كابدت عناءً شديدًا. ولم يتحقق أول نصر أميركي كبير إلا في خريف عام 1777، عندما حاصر الجنود الجنرال البريطاني جون بورغوين وقواته بالقرب من مدينة ساراتوغا بمقاطعة نيويورك، وأجبروه على الاستسلام.

أصيب البريطانيون، وهم الجانب الأقوى وفق أغلب التقديرات، بحالة من الإحباط المتزايد جراء عجزهم عن إخضاع التمرد. إلا أنه على الرغم مما وقع في ساراتوغا، كانت الحرب أبعد ما تكون عن الانقضاء. فمن وجهة النظر الأميركية، حققت حملة نيل الاستقلال بعض الانتصارات المهمة، ولكن النجاح النهائي كان لا يزال غير مؤكد. لذلك، لم يكن أمام الأميركيين بد من إقامة تحالف قوي مع فرنسا، التي كانت حريصة على إضعاف قوة بريطانيا ومكانتها ونيل قسط من الثأر لما وقع في حرب السنوات السبع. وإذا كان التحالف مع فرنسا ضروريًا، بالنسبة إلى حكومة الثوار، كانت الحيلة تقضي بالحفاظ على الاستقلال الأميركي، ليس

---

(7) جورج واشنطن (George Washington) (1732-1799): قائد الجيش القاري الثوري الأميركي وأول رئيس للولايات المتحدة الأميركية. كان في مقتبل عمره أحد مالكي الأراضي الأغنياء في فيرجينيا قبل أن يلتحق بالخدمة العسكرية بالجيش البريطاني في أثناء حرب السنوات السبع ضد فرنسا، حيث أمضى أربع سنوات (1754-1758) ضابطًا لبعض التشكيلات الأميركية التابعة للجيش البريطاني وشهد عدة معارك خلط فيها بين الإخفاق والنجاح والهزيمة والنصر، إلا أنه اكتسب خبرة عسكرية لا بأس بها أهلته في ما بعد للدور الكبير الذي أنيط به خلال الثورة الأميركية. وبعد أن استقال من الجيش البريطاني في كانون الأول/ ديسمبر 1758، عاد إلى موطنه، فيرجينيا، وتزوج بأرملة ثرية فأصبح أحد أثرى أثريائها، وأمضى تلك السنوات، حتى قيام الثورة، معتنيًا بأملاكه وأراضيه وشؤونه المالية، حتى تم اختياره ليكون أحد ممثلي فيرجينيا في الكونغرس القاري، حيث اختاره أعضاؤه بالإجماع لقيادة القوة العسكرية الوليدة التي تم تجميعها لخوض الحرب الثورية ضد بريطانيا. وبعد خوض حرب مضنية ضد القوات البريطانية لمدة ثمانية أعوام، استطاع تحقيق النصر. وفي الثالث والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر 1783، وبعد مغادرة آخر سفينة بريطانية، قام بتسليم قيادته إلى الكونغرس القاري وعاد إلى مزارعه وأملاكه في فيرجينيا. إلا أنه لم يستطع البعد من الحياة العامة، فكان أبرز الداعين إلى الوحدة الكاملة بين الولايات الأميركية، وبعد إصدار الدستور الأميركي، تم انتخابه بالإجماع ليكون أول رئيس للولايات المتحدة، وتسلم منصبه في الثلاثين من نيسان/ أبريل 1789، ثم تم انتخابه لفترة ثانية في عام 1792، ورفض قبول انتخابه لفترة ثالثة في عام 1976. (المترجم)

عن بريطانيا فحسب، ولكن أيضًا عن مطالب داعميها الجدد في باريس. وأقنع استسلام بورغوين عند ساراتوغا، الذي أعقب إعلان الاستقلال، الفرنسيين بصدقية الثورة الأميركية.

أصبح باستطاعة التحالف الأميركي الفرنسي، الذي كان سريًا حتى تلك اللحظة، الخروج إلى العلن. وعلى عكس مخططات آدامز، اضطرت البعثة الدبلوماسية إلى باريس، التي كان يرأسها بنجامين فرانكلين[8]، إلى بذل بعض الوعود غير المريحة. فقد كان من المفترض أن تكون المعاهدة الأنموذجية قابلة للتعديل وفق الظروف المختلفة، إلا أنه تمت التضحية بالافتراض الضمني - القاضي بضرورة تجنب أميركا التورط في التزامات خارجية - لأسباب براغماتية تتعلق بالحاجة الملحة للتحالف مع فرنسا. إلا أن فرانكلين لم يكن عليه التنازل عن الكثير - التعهد بعدم توقيع معاهدة سلام منفردة مع بريطانيا ووعد بمساعدة فرنسا في استعادة أراضيها التي خسرتها في الكاريبي فحسب - وتم توقيع التحالف الأميركي الفرنسي في شباط/ فبراير 1778. كانت تلك لحظة حاسمة، فلم يكن من المرجح أن ينتصر الأميركيون وحدهم، في المستقبل القريب على الأقل، ولكن، بشراكتهم مع فرنسا، التي كان باستطاعتها أيضًا الضغط على البريطانيين في أماكن أخرى من العالم، أصبح لدى التمرد الأميركي كل فرص النجاح. وانضمت كل من إسبانيا وهولندا إلى الحملة ضد بريطانيا، بتشجيع من الفرنسيين، بينما ساهمت دول أوروبية أخرى، مثل روسيا والسويد والدنمارك وبروسيا والبرتغال، في كسر الحصار البحري الذي فرضته بريطانيا على أميركا الشمالية، من طريق الحفاظ على حياد الشحن البحري وحقوق التجارة.

استمرت الحرب الثورية ثمانية أعوام، ولم تنته إلا بعد استسلام القوات البريطانية في مدينة يوركتاون بمقاطعة فيرجينيا في عام 1781 وتوقيع معاهدة سلام في باريس في عام 1783. كان التدخل الأوروبي مهمًا للغاية، وقد أثبتت

---

(8) بنجامين فرانكلين (Benjamin Franklin) (1706-1790): رجل دولة أميركي من ماساتشوستس، عرف قبل الثورة بوصفه عالمًا ومخترعًا وكاتبًا ومحررًا. جاءت الثورة وقد ناهز السبعين عامًا، فكان له دور كبير فيها حتى نيل الاستقلال. (المترجم)

القوات الفرنسية أهميتها بشكل خاص طوال الحرب وصولًا إلى معركة يوركتاون. وبتوقيع معاهدة باريس، أصبحت الولايات المتحدة معترفًا بها، حتى بريطانيا العظمى اعترفت بها، بوصفها دولة ذات سيادة في النظام الدولي. تحققت أهداف إعلان الاستقلال، وأصبح باستطاعة الولايات المتحدة الآن أن تدعي لنفسها، نظريًا، شرعية تضاهي الشرعية التي تتمتع بها أي دولة أخرى، بما فيها بريطانيا ذاتها.

واحدة ضمن كثر

على الرغم من ذلك، كانت شرعية الولايات المتحدة موجودة على الورق فحسب، وبدا سريعًا أن البلاد كانت تفتقر إلى شيء آخر يحمل الأهمية نفسها، ألا وهو القوة. كان ذلك في جزء منه يتعلق بطبيعة الولايات الأميركية الحديثة الاستقلال، التي افترضت أنها سوف تتصرف بوصفها كيانات مستقلة ضمن اتحاد فضفاض بشكل أو بآخر، وليس جزءًا تابعًا لكيان قومي واحد مركزي التنظيم. فعلى الرغم من إمكان قوتهم إذا اتحدوا، كان تجمعهم الفضفاض ضعيفًا. ولم يكن ذلك بسبب نسيان قادة الثورة لحاجات الحكم القومي. فقد كان الكونغرس القاري مشغولًا بإقامة إطار حكومة جديدة، حتى مع اندلاع القتال خلال الحرب الثورية. وسُمي ذلك الإطار ببنود الاتحاد[9]. إلا أنه بتكوينها حكومة مركزية ضعيفة تفتقر إلى أي سلطة تنفيذية أو إلى صلاحية فرض الضرائب، عكست تلك البنود رغبة الولايات، التي كانت مستعمرات في السابق، في حماية استقلالها. وحذر واشنطن جيمس ماديسون[10] في عام 1786 من أن مشكلة وجود «ثلاثة عشر كيانًا سياديًا ينازع بعضها بعضًا، ومرتبطة كلها بالرأس الفدرالي»، تهدد بتقويض التماسك القومي من البداية. ولم يكن باستطاعة الولايات الجديدة التفاوض

---

(9) بنود الاتحاد (Articles of Confederation): يطلق عليها أحيانًا وثائق الكونفدرالية، وهي اتفاقات بين الولايات الثلاث عشرة المؤسسة للولايات المتحدة، وكانت بمنزلة الدستور الأولي لها. (المترجم)

(10) جيمس ماديسون (James Madison) (1751-1836): رابع رئيس للولايات المتحدة بين عامي 1809 و1817، وعرف بأبي الدستور. وقد أدى دورًا مهمًا في صوغ دستور الولايات المتحدة في عام 1787، وكان من بين الزعماء الرئيسين المؤيدين للوحدة الكاملة والدستور في مقالات «**أوراق الفدرالي**». (المترجم)

لتوقيع المعاهدات أو الدخول في حرب خارجية بمفردها، ولم يكن باستطاعة الكونغرس كذلك أن يتفاوض على توقيع معاهدات مع دول أخرى يكون من شأنها المساس بحقوق الولايات الأميركية منفردة. فكان ذلك نظامًا للحكومة عاجزًا عن العمل.

كان ذلك النظام أيضًا نظامًا خطرًا، خاصة بالنسبة إلى جمهورية وليدة يعتمد اقتصادها على التجارة عبر البحار. وكانت الولايات المتحدة محاطة، في البر والبحر، بالأجانب الذين تهدد حدود سيادتهم. فبموجب معاهدة السلام الموقعة في عام 1783، وافقت بريطانيا على التخلي عن كل مطالباتها بالأراضي الواقعة شرق نهر المسيسيبي، جنوب فلوريدا الإسبانية وشمال البحيرات العظمى(11). وكان لذلك أن يضاعف حجم البلاد عما كان مخططًا له بواسطة المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية، وأصبح لدى الكونغرس مساحة ضخمة من الأراضي الإضافية - المعزولة وغير الآهلة بالسكان - التي عليه حمايتها. أما الإسبان، في الجنوب، فلم يكونوا قد وقعوا معاهدة باريس، ولذلك نازعوا الولايات المتحدة مطالبها من الأرض. وفي الشمال، على الرغم من تخلي بريطانيا عن مطالباتها، بقيت قواتها على الأرض، التي باتت الآن تتبع الولايات المتحدة قانونيًا. أما الهنود الأميركيون فكانوا ينازعون بشراسة الحكومة القومية الجديدة كل محاولاتها فرض سلطتها في جميع أرجاء الولايات المتحدة، في الشمال والجنوب والغرب.

وفاقم من هذه المشكلات المتعلقة بالسيادة، الهجرة المستمرة نحو الغرب بواسطة المستوطنين البيض المتحدثين بالإنكليزية - لعله من غير المناسب الإشارة إليهم جميعًا بوصفهم «أميركيين»، حتى بعد عام 1783، ذلك أن ولاءهم للولايات المتحدة لم يكن أكيدًا وغالبًا ما كان هشًا. ومع تدفق المستوطنين إلى ما وراء جبال الأبلاش في الولايات المعروفة اليوم بأوهايو وكنتاكي وتنيسي، وقعوا في صراع مع الهنود الأميركيين، الذين كانوا بدورهم يتلقون تشجيع ودعم

(11) البحيرات العظمى (Great Lakes): عبارة عن 5 بحيرات عذبة المياه تستفيد منها بصورة مباشرة مقاطعتا كيبيك وأونتاريو الكنديتان وثماني ولايات أميركية وهي أوهايو وولاية نيويورك وبنسلفانيا ومشيغن وإنديانا وإيلينوي ووسكنسن ومينيسوتا، وأكبرها هي بحيرة سوبريور، أما الأصغر فهي بحيرة أونتاريو. (المترجم)

البريطانيين والإسبان. وعلى ذلك، استمرت الحرب طوال ثمانينيات ذلك القرن على طول خط حدود جبال الأبلاش.

أما الموقف في البحر، فكان أفضل قليلًا. فطالما ازدهرت المستعمرات الثلاث عشرة من خلال العلاقات الاقتصادية مع الأمم الأخرى، وكانت التجارة البحرية ضرورية لضمان الرخاء الأميركي - فمن دونها كانت قدرة الولايات المتحدة على الحياة محل شك. ولطالما انتفع التجار والبحارة الأميركيون من حماية الأسطول الملكي البريطاني، الذي أصبح الآن قوة محايدة غير متعاطفة على أفضل تقدير. ومن دون حماية، وقعت السفن الأميركية فريسة القراصنة والسفن المسلحة. وكان المغيرون من بلاد شمال أفريقيا (خاصة من الدول المعروفة اليوم بالمغرب والجزائر وتونس وليبيا) هم أكثر من يهاجم السفن الأميركية، حيث يتحرشون بها ويأسرونها في البحر المتوسط وشرق الأطلسي. استطاعت الفديات أن تحرر السفن وأطقمها، إلا أنها لم تجدِ نفعًا في إحباط مزيد من الغارات[12]. وحتى عندما كانت السفن التي تحمل العلم الأميركي تتجنب الهجوم عليها، كانت تجد موانئ المستعمرات البريطانية والإسبانية مغلقة أمامها.

لذلك كان الكونغرس عاجزًا عن حماية الولايات المتحدة من الهجمات الخارجية، فلم يكن تحت تصرفه جيش دائم، ولا أسطول يمكن الاعتماد عليه، ولا سلطة لجمع الضرائب. وبسبب غياب أي كيان مركزي فعال لتنسيق ورعاية سياسات الأمة الخارجية أو العسكرية، كان الكونغرس أيضًا يواجه مشكلات في الدفاع عن مصالحه القومية مثل حقوق حرية التجارة والملاحة المحايدة، التي سوف تساعد في التغلب على العقبات الحمائية المركنتيلية التي كانت تحجز الأميركيين عن طرق التجارة المربحة في الكاريبي. فعلى الرغم من إنشاء وزارة للخارجية رسميًا، إلا أنها كانت كيانًا ضعيفًا تُرك ليكون تحت رحمة نزوات الولايات المنفردة.

---

(12) بعضهم يذكر تلك الفديات المدفوعة لتحرير السفن فخرًا، مدعيًا أن حكومة الولايات المتحدة الوليدة كانت تدفع الجزية لحكام بلاد المغرب المسلمين، بينما كان ذلك مجرد فديات مالية تدفع لكل القراصنة. (المترجم)

في الواقع، لم يكن باستطاعة الولايات المتحدة امتلاك أي سياسة خارجية في ظل هذه البنود للاتحاد. وتساءل ألكسندر هاملتون[13]، في أحد مقالات «**أوراق الفدرالي**»[14]، غاضبًا: «هل نمتلك أراضي نفيسة ومواقع مهمة ما زالت في أيدي قوة خارجية، بينما كان لابد أن يتم تسليمها وفق الشروط المتفق عليها؟» كانت الإجابة واضحة بصورة مؤلمة بفضل التعديات البريطانية والإسبانية في منطقة البحيرات العظمى والجنوب الغربي. وتساءل أيضًا «هل نحن في وضع يسمح لنا برد العدوان؟» ومرة أخرى، جاءت الإجابة واضحة: «إننا لا نمتلك قوات مسلحة ولا خزانة ولا حكومة».

أدى عدم وجود سياسة خارجية إلى انتقاص قدرة أميركا على العمل بوصفها أمة مستقلة. ولم تكن التجارة هي أعظم ما على المحك، فقد كان بقاء الولايات المتحدة نفسه محل شك. فإذا لم تستطع رد أو ردع البريطانيين والإسبان والهنود الأميركيين على طول حدودها البرية المترامية، وإن لم تستطع اكتساب الحق القانوني في التجارة البحرية الأوروبية، وإن عجزت عن حماية نفسها من قراصنة شمال أفريقيا، فعلى الأرجح سوف يكون مصيرها الانهيار بسبب انتزاع القوى الأجنبية أراضيها والحرب مع الهنود والحركات الانفصالية.

عكست تساؤلات هاملتون الاستقصائية مخاوف أوسع بشأن مكانة الأمة

---

(13) ألكسندر هاملتون (Alexander Hamilton) (1757–1804): هو رجل دولة أميركي وأحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة، وأحد أبرز دعاة الوحدة الكاملة في مقالات **أوراق الفدرالي**، وداعية للدستور، فضلًا عن كونه مؤسس النظام المالي للبلاد، والحزب الاتحادي، وخفر السواحل الأميركي، وصحيفة **نيويورك بوست**. وكان المنظر الرئيس للسياسات الاقتصادية لإدارة جورج واشنطن بوصفه أول وزير للخزانة. (المترجم)

(14) **أوراق الفدرالي** (*Federalist Papers*): سلسلة من 85 مقالًا كتبها كل من جيمس ماديسون وألكسندر هاملتون وجون جاي تحت اسم مستعار واحد «ببليوس»، نشرت في صحف عدة بين عامي 1787 و1788، يدافعون فيها عن الدستور الجديد المعروض للتصديق عليه بواسطة الولايات الثلاث عشرة والذي يمهد إلى إقامة اتحاد قوي يتمثل في دولة مركزية موحدة لها دستور واحد. وقد كان لها أثر محدود في ذلك الحين، في الترويج لهذه الفكرة بين سكان المستعمرات والتصديق على هذا الدستور الذي أصبح دستور الولايات المتحدة الأميركية. إلا أنه بعد أن تم تجميعها في ما أطلق عليه **أوراق الفدرالي** صارت أحد أهم مراجع الفكر السياسي الأميركي حتى يوم الناس هذا. (المترجم)

الجديدة في العالم. وللتغلب على الضعف الأميركي في الخارج، الذي كان أيضًا ينخر في التماسك القومي داخل البلد الوليد، أذِن الكونغرس في عام 1787 بصوغ دستور جديد للبلاد[15]. وكان يأمل المؤسسون أن تزيد هذه الخطوة من شرعية الولايات المتحدة الحديثة التأسيس في أعين الأوروبيين المتشككين (فحتى أولئك الذين كانوا متعاطفين مع الجمهورية الأميركية تشككوا في قدرتها على البقاء طويلًا). فوفقًا للمؤرخ إليجا غولد[16]، كان تدشين دستور جديد يسمح بحكومة أكثر استقرارًا ومركزية، من شأنه أن يجعل الأمة الجديدة «أهلًا لعقد اتفاق معها»، أي بلدًا يمكن للبلاد الأخرى التعامل معه. ومن دون هذه الشرعية، سوف يُترك الأميركيون ضعفاء في العالم. ولم تكن المخاوف المتعلقة بالسياسة الخارجية هي الأسباب الوحيدة وراء قرار استبدال بنود الاتحاد بدستور جديد، إلا أنها كانت ضمن أكثر هذه الدوافع أهمية.

عندما انتهت صياغة الدستور الجديد، دشن حكومة مركزية أقوى بكثير، تتضمن رئيسًا تنفيذيًا (الرئيس) يتولى منصب القائد العام، ومؤسسة تشريعية قوية (الكونغرس) يمكنها جمع الضرائب وفرض الرسوم والتعاريف، ومن ثم تمويل قوة عسكرية لائقة. ووفقًا لنظريات ماديسون عن الفدرالية، التي يكون فيها لكل من المؤسسات التنفيذية والتشريعية سلطات منفصلة ومتداخلة في آن، كان لكل من الرئيس والكونغرس سلطات رعاية الشؤون الخارجية والدفاع القومي. فكان الكونغرس وحده هو من يمكنه إعلان الحرب، ولكن ما إن يتم حشد القوات المسلحة، يتولى الرئيس قيادة الدفة. وكان الرئيس (ووزراؤه) هم المخولين

---

(15) يوحي هذا الترتيب من المؤلف أن صياغة الدستور إنما جاءت استجابة لتساؤلات هاملتون، بينما العكس هو الذي حدث. فقد كان هاملتون وزميلاه ماديسون وجاي، هم الذين يدافعون عن هذا الدستور الذي كانت قد تمت صياغته بالفعل وكان معروضًا أمام الولايات الثلاث عشرة للتصديق عليه. وقد جاء جهدهم ردةَ فعل على الانتقادات الحادة التي وجهت لفكرة إقامة دولة مركزية قوية، خاصة في ولاية نيويورك حيث تم نشر المقالات لأول مرة. (المترجم)

(16) إليجا غولد (Eliga Gould): أستاذ ورئيس قسم التاريخ بجامعة نيوهامشر. تخصص في تاريخ الثورة الأميركية وحصل على عدة جوائز. كان آخر أعماله من بين **قوى الأرض: الثورة الأميركية وصناعة إمبراطورية جديدة** (*Among the Powers of the Earth: The American Revolution and the Making of a New World Empire*)، في عام 2012. (المترجم)

فحسب بالتفاوض في أثناء عقد الاتفاقات مع الحكومات الأجنبية، ولكن كان لمجلس الشيوخ[17] السلطة الوحيدة في التصديق عليها، وبالتالي يمكنه الاعتراض على أي معاهدة يوقعها الرئيس. وكان بإمكان الرئيس تعيين أي شخص في منصب وزير الخارجية أو الحرب، ولكن كان لابد لمجلس الشيوخ من أن يقرهما كذلك، الأمر الذي أعطى للمؤسسة التشريعية سلطة كبيرة في الشؤون الخارجية.

بيد أن ميزان القوى بين السلطات بدأ مع الوقت يميل لمصلحة المؤسسة التنفيذية، خاصة في القرن العشرين. فقد شعر المؤسسون أن الأمة لن يكون باستطاعتها البقاء من دون آليات أقوى تحمي بها الولايات المتحدة نفسها وتحقق مصالحها. فهل يمكننا اعتبار أن القوة الهائلة، التي تمتعت بها الرئاسة الأميركية في بدايات القرن الحادي والعشرين، كانت المحصلة النهائية لغارات القراصنة بالقرب من السواحل الشمالية الغربية لأفريقيا منذ مئتين وخمسين عامًا مضت؟ لابد أن تلك تعد مبالغة، ولكن ليست كبيرة.

الإبحار في عالم متحارب

مهما تكن المشكلات التي يحملها المستقبل، فقد وضع الدستور الذي صُدِّقَ عليه ووضع محل التنفيذ في عام 1789 العلاقات الأميركية مع باقي العالم على أرض أكثر صلابة. إلا أن ذلك لا يعني أن الأحداث سارت بسلاسة ومن دون أزمات. فمنذ البداية، حملت تسعينيات ذلك القرن تحديات منتظمة بالغة الصعوبة، حيث وجدت الولايات المتحدة نفسها عالقة بين القوتين العظميين لتلك الفترة، بريطانيا وفرنسا، والحرب التي خاضاها من دون توقف تقريبًا، حتى هزيمة نابليون الأخيرة في عام 1815. كانت تلك فترة مهمة في تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية، حيث قام الجيل المؤسس، من خلال الموازنة بين البريطانيين والفرنسيين، بترسيخ مبادئهم الأولى المتمثلة في الأحادية والاستثنائية.

---

(17) مجلس الشيوخ (Senate): هو المجلس الأعلى بين مجلسي الكونغرس، ويتكون من عضوين فقط من كل ولاية، عملًا بمبدأ المساواة بين الولايات في اتخاذ بعض القرارات الهامة التي تمس الاتحاد ككل، ويختص دور مجلس النواب بالرقابة على السياسة الخارجية للبلاد. (المترجم)

كان التحالف مع فرنسا، الذي كان في غاية الأهمية لكسب الحرب الثورية، قد بدأ يبلى حتى قبل أن يجف حبر معاهدة باريس، ومع اندلاع الثورة الفرنسية في عام 1789، وصل حد الانهيار. ففي البداية هلل الأميركيون لاندلاع الثورة عبر الأطلسي، وبدا أن الفرنسيين تعلموا من المثال الأميركي. إلا أن حكومة الولايات المتحدة وجدت التعامل مع لويس السادس عشر سهلًا بالمقارنة. تصدرت التوترات المشهد في عام 1793، عندما انتقلت الحرب، التي وضعت فرنسا في مواجهة تحالف النمسا وبروسيا المضاد للثورة، إلى كل من هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ، وانضمت بريطانيا إلى التحالف المعادي لفرنسا. ومن ثم، دعت فرنسا، في سعيها لتشتيت البريطانيين في نصف الكرة الغربي ورغبتها في استعادة ما خسرته من أراضٍ في أميركا الشمالية والكاريبي، الولايات المتحدة إلى الوفاء بالتزاماتها بموجب تحالف عام 1778.

وعلى الرغم من معاهدة جون آدامز الأنموذجية، تحقق الكابوس الذي كان يخشاه، فقد أصبحت الولايات المتحدة عالقة في السياسة الأوروبية، ونتيجة لذلك خسرت حريتها الجيوسياسية. كان الأميركيون متعاطفين مع الفرنسيين بطبيعة الحال، وكانت ذكريات الحرب مع بريطانيا لا تزال حاضرة. إلا أن الولايات المتحدة كانت تحتاج إلى التجارة، خاصة التجارة البحرية مع غرب أوروبا والكاريبي، وكان ذلك يعني التزام رغبات البريطانيين بقدر المستطاع، فقد كان لديهم أقوى قوة بحرية وأكبر انتشار للمستعمرات. وفي الحقيقة، كان اندلاع حرب إنكليزية - فرنسية أخرى، واتساعها لتشمل أوروبا بأكملها وأغلب بقاع العالم، يمنح التجار الأميركيين فرصة اقتصادية لا مثيل لها. ولأسباب تتعلق بالأمن والنفعية، أصدر جورج واشنطن إعلانًا بالحياد. وسوف تقوم الولايات المتحدة، بشكل أحادي، بالتجارة مع الجميع ولن تنحاز في علاقاتها مع أي منهم.

كانت تلك نية واشنطن في الأقل، إلا أن المشكلة الرئيسة للأحادية والحيادية أنها كانت نافعة للولايات المتحدة فحسب، ومدمرة لكل من البريطانيين والفرنسيين، الذين أصروا على أن الأميركيين ليس بمقدورهم التجارة مع الطرفين وفقًا للشروط نفسها. فبطبيعة الحال، طالب الفرنسيون الأميركيين بالتزام شروط

التحالف، بينما أصر البريطانيون على العكس، مدعومين بأسطولهم الملكي وسيادتهم في منطقة الأميركيين أنفسهم.

استهلكت مسألة الانحياز إلى أيٍّ من بريطانيا أو فرنسا الحياة العامة الأميركية خلال تسعينيات ذلك القرن، حيث رأى أنصار كل من الدولتين الحياد الصادق بوصفه استسلامًا للطرف المقابل. وعلى خلاف رغبة أو نية جميع المشاركين في الدستور تقريبًا، حفز الشجار حول فرنسا وبريطانيا ظهور انقسامات سياسية حادة، الأمر الذي أدى إلى صعود طوائف سياسية سرعان ما تحولت إلى أول نظام للأحزاب، حيث كان هاملتون ومناصرو الفدرالية متعاطفين مع البريطانيين ويحملون أيديولوجيا سياسية محافظة إلى حد كبير، بينما كان توماس جيفرسون[18] والجمهوريون في ذلك الوقت، محبين للفرنسيين إلى حد الجمهورياتية المتطرفة ومعاداة رجال الدين المميزة للثورة الفرنسية.

بيد أن الجماعتين كانتا تتشاركان أمرًا واحدًا مهمًا، فكل من الهاملتونيين والجيفرسونيين كانا يشتركان في الاعتقاد الجازم بحرمة حقوق الملاحة والتجارة المحايدة. وعنى ذلك أن الولايات المتحدة، بوصفها محايدة في الحروب الثورية في أوروبا، تحتفظ بحريتها التجارية مع جميع الأطراف، بغض النظر عن كونهم في حالة حرب أم لا، طالما ليسوا في حرب معها، حتى وإن كان ينتفع بهذه التجارة في الواقع أحد المتحاربين أكثر من الآخرين. وكان هذا التأكيد للحقوق الحيادية، في الواقع، يلغي التحالف السابق مع فرنسا - فقد بدا أن الفرنسيين وقعوا معاهدة آدامز الأنموذجية لعام 1776 لا المعاهدة التي وافقوا عليها فعليًا في عام 1778. إلا أنه، في ذلك الوقت، تم تأجيل هذه التوترات نظرًا إلى الحقائق المتعاضدة المتمثلة في حاجة الفرنسيين إلى الطعام والمؤن وحاجة الأميركيين إلى الزبائن. وبحلول أواسط التسعينيات، كانت التجارة قد ازدهرت بين الجمهوريتين.

وضع ذلك الولايات المتحدة مباشرة في عداء مع بريطانيا العظمى، وأشعل

(18) توماس جيفرسون (Thomas Jefferson) (1743-1826): محام ومشرع من فيرجينيا ودبلوماسي ورجل دولة، وهو المؤلف الرئيس لإعلان الاستقلال وثالث رئيس للولايات المتحدة الأميركية. (المترجم)

أزمة أدى تفاقمها في النهاية إلى اندلاع حرب شاملة في عام 1812. ولم تبد الحرب بعيدة في عام 1794، عندما بدأت الأزمة الطويلة عبر الأطلسي حول الحقوق السيادية. فقد كان موظفو الجمارك في موانئ الكاريبي البريطانية وضباط البحرية الملكية يصادرون الأميركيين وبضائعهم من دون أن يدفعوا تعويضًا، بل كانوا غالبًا ما يجمعون عليهم المصادرة والحبس. لذلك تأثرت التجارة مع فرنسا، ومعها أرزاق الأميركيين، لكن ربما كانت الضربة الأكثر تأثيرًا هي تلك التي تلقتها مكانة الولايات المتحدة وكرامتها. فبعد مرور أكثر من عقد على نهاية الثورة الأميركية وتأسيس الولايات المتحدة الأميركية، ظل البريطانيون يعاملون الأميركيين معاملة رعايا المستعمرات. وأدت النزاعات المستمرة على منطقة البحيرات العظمى ورفض بريطانيا وحلفائها الهنود الأميركيين الاعتراف بسيادة الولايات المتحدة وعجز الأميركيين عن فرضها بالقوة، إلى مفاقمة الأمر.

أدت أزمة عام 1794 إلى حالة فزع من الحرب، التي أدت بدورها إلى إثارة الرئيس واشنطن، الذي كان محبطًا وقلقًا، ويخشى أن حربًا مع بريطانيا سوف تؤدي إلى هزيمة مروعة وربما إلى تقسيم الدولة الوليدة رغبةً في التوصل إلى تسوية. لذلك أرسل جون جاي (John Jay) الذي عمل في وظيفة أشبه بوزير خارجية لدى الكونغرس في ثمانينيات القرن الثامن عشر، وكان الآن يتولى منصب أول رئيس للمحكمة الدستورية، إلى لندن. كان جون جاي سليل عائلة من الهيوغونوت، الفرنسيين البروتستانت الذين كان عليهم الفرار بأرواحهم في أواخر القرن السابع عشر، إلى إنكلترا أولًا، ثم إلى المستعمرات الأميركية. وكزملائه من الفدراليين، كان لا يثق بفرنسا، سواءً حكمها كاثوليك محافظون أم ثوار متطرفون. وقد كشفت المعاهدة التي فاوض عليها ووقعها في لندن بعض هذه المشاعر تجاه بريطانيا وفرنسا، إلا أنها كانت تعكس أيضًا الموقف الاقتصادي والعسكري الخطر التي وجدت الولايات المتحدة نفسها فيه.

كان لمعاهدة جاي هذه آثار متعارضة بوصفها عملًا من أعمال صناعة السلم. فبينما خففت من حدة التوترات مع لندن، أدت كذلك إلى مفاقمة الخلافات السياسية في الولايات المتحدة. وفي المحصلة، لم تتمتع أعمال جاي

بالشعبية، فقد اتهمه الجمهوريون بالخيانة، وحتى كثير من الفدراليين أخفقوا في الدفاع عنه. ففي لندن، اعترف جاي بالموقف البريطاني من قضية حقوق الملاحة المحايدة - بحيث ألغيت تمامًا في زمن الحرب - وهو أكثر ما يمكن أن يبذله أي دبلوماسي أميركي من تنازلات. في المقابل، حصل على وعد من بريطانيا بإخلاء جميع الأراضي شرق نهر المسيسيبي وجنوب البحيرات العظمى، والتخلي عن التحالفات الضمنية مع الهنود الأميركيين المعادية لأميركا في المنطقة، وتقديم تعويضات عن السفن والبضائع الأميركية المصادرة. أي إن جاي تنازل عن أحد أهم مبادئ الجمهورية الجديدة في مقابل وعود بريطانية بالالتزام بنود المعاهدة التي كانت قد وقعتها بالفعل منذ أحد عشر عامًا. فإن بدا أنها لم تكن صفقة جيدة بالنسبة للولايات المتحدة، فإنها بالفعل لم تكن كذلك. إلا أن جاي قد صنع أفضل ما يمكن بالتأكيد في ظل تلك الأحوال، فقد تم تجنب الحرب، وازدهرت التجارة مع بريطانيا ومستعمراتها مرة أخرى، وتعاملت قوة عظمى وخصم قديم مع الولايات المتحدة على قدم المساواة.

بيد أن الفرنسيين لم يروا الأمر على هذا الوجه. وسرعان ما اتخذت فرنسا موقع الخصم الرئيس لأميركا بدلًا من بريطانيا، مدفوعة بغضب عارم إزاء إلغاء الولايات المتحدة لمعاهدة عام 1778 من طرف واحد والزيادة الحادة في التجارة بينها وبين بريطانيا. وما إن تم التصديق على معاهدة جاي في عام 1795، حتى بدأ الأسطول الفرنسي يتحرش بالسفن الأميركية ويصادر بضائعها، وبدأ الدبلوماسيون الفرنسيون يلمحون بتشاؤم إلى حرب منتظرة. وزادت المشاعر تأججًا عندما أرسل جون آدامز، الذي خلف واشنطن في الرئاسة عام 1797، وفدًا إلى باريس للصلح. وبدلًا من ذلك، قابلهم ثلاثة عملاء لدى الحكومة الفرنسية يُعرفون بأسمائهم الرمزية فحسب، (إكس وواي وزي)، يطالبون بدفعة مالية تدفع في الحال نقدًا وقرضًا يقدم لاحقًا، وبذلك من الممكن أن تقتنع فرنسا بالتسوية. أساءت هذه الحادثة إلى الشرف الجمهوري للأميركيين، واستدعى آدامز مبعوثيه من دون أن يحققوا شيئًا غير جرح الكرامة. واندلع صراع بحري مفتوح في عام 1798 استمر لعامين، عُرف بالاسم غير الأنيق، ولكن الدقيق، «شبه الحرب». وبينما تحاربت السفن الفرنسية والأميركية في البحر، ضغط آدامز على الكونغرس لتمرير قوانين

«الأجانب والتحريض على الفتنة»[19] التي تعد بعض أكثر التشريعات قمعًا في التاريخ الأميركي، والتي تقضي فعليًا بتجريم المعارضة وفقًا لتقدير الرئيس. وانتهت شبه الحرب عندما أدرك الطرفان صغر المَغْنم وعظم المَغْرم جراء هذه المشاحنة.

في شهر أيلول/ سبتمبر من عام 1796، وفي أثناء هذه الصراعات الدائرة في أعالي البحار، مع بريطانيا أولًا ثم مع فرنسا، نشر الرئيس واشنطن **خطبة الوداع**[20]، كشف فيها عن إحدى أكثر الرؤى تجذرًا وديمومة لدور أميركا في العالم. تحدثت **الخطبة** كثيرًا عن مكان الدين والفضيلة في الديمقراطية، وكذلك عن الصعود غير المتوقع للأحزاب السياسية، إلا أن إسهامها الأهم كان في تصريحه الواضح بالأحادية الأميركية. فقد أعلنها واشنطن «على الولايات المتحدة أن تبقى بعيدة من أي تحالفات دائمة مع أي جزء من العالم الخارجي». وقدمت الخلفية القائمة للعداء مع بريطانيا وفرنسا تبريرًا واضحًا لمثل هذه السياسة الأحادية، إلا أن واشنطن كان قلقًا بالقدر نفسه من التأثير الضار للشؤون الخارجية على السلم السياسي والاستقرار الداخلي لأميركا. لذلك كانت أفضل سياسة، هي الحياد.

بيد أنه على خلاف الخرافة القومية، لم تكن **خطبة الوداع** التي كتبها واشنطن بيانًا عن «الانعزالية». فالناس في أواخر القرن الثامن عشر كانوا يسكنون عالمًا متصلًا إلى حد بعيد - في الحقيقة كان عالمًا معولمًا - وكان الانعزال التام أمرًا مستحيلًا بالنسبة إلى الحكومة الأميركية، ومدمرًا من الناحية الاقتصادية بالنسبة إلى الشعب. فلم يرحب واشنطن قط بتوهم الانعزال، ولم يكن مصطلح «الانعزالية» قد عُرف في عهده. وكان يدعو لدخول الولايات المتحدة في اتفاقات تجارية مع

---

(19) قوانين الأجانب والتحريض على الفتنة (Alien and Sedition Acts): مجموعة من أربعة قوانين تحد من حريات الأجانب داخل البلاد وحرية التعبير والصحافة زمن الحرب. (المترجم)

(20) خطبة الوداع (Farewell Address): هي خطبة أو رسالة كتبها جورج واشنطن قبيل انقضاء فترة رئاسته الثانية وأصبحت بعده عادة لجميع رؤساء الولايات المتحدة يقدمون فيها خلاصة تجربتهم ويوصون فيها الأمة بما يرونه في حاضرها ومستقبلها. وعادة ما تتضمن هذه الخطب إشارات وتنويهات تظل سارية للدلالة على ظواهر سياسية معينة، مثل مصطلح «المجمع العسكري الصناعي» الذي صكه الرئيس أيزنهاور وحذر منه في خطبة الوداع الخاص به. (المترجم)

الجميع، وفي تحالفات سياسية أو عسكرية مع البعض، متى كان ذلك ضروريًا، لضمان الأمن العسكري والاقتصادي - وكذلك، الانسجام السياسي الداخلي - للولايات المتحدة. إن هذا الإعلان العظيم لـ «الانعزالية» المفترضة، دعا إلى رعاية العلاقات التجارية والثقافية الدولية، واعترف بالانخراط الدولي العميق الذي سوف يتطلبه مثل هذا الموقف من الولايات المتحدة. وكرر جيفرسون، الذي أصبح رئيسًا في عام 1801، رسالة واشنطن عن الأحادية - التي تعني الانخراط الدولي النشط، ولكن وفقًا للشروط الأميركية الخاصة - عندما دعا، في خطبة تنصيبه، إلى «السلم والتجارة والصداقة الحقيقية مع جميع الأمم، من دون التورط في تحالفات مع أي منها».

حرب الاستقلال الثانية

ظلت العلاقات الأميركية مع بريطانيا وفرنسا تتأرجح بين الصراع والتعاون طوال أربعين سنة. وليس من قبيل الصدفة أن كانت هذه العقود الأربعة علامة على عصر الثورة، حيث كان الصراع بين بريطانيا وفرنسا يقبع في قلب العنف الثوري، وحيث وجد الأميركيون، المنشغلون بتحقيق أجندتهم الخاصة، أنفسهم محاصرين في مكان ما في الوسط. ولكن مع نهاية شبه الحرب مع فرنسا في عام 1800، وتسوية التوترات مع بريطانيا بمعاهدة جاي، يمكن تلمس العذر للأميركيين الداخلين إلى العصر الجيفرسوني لاعتقادهم بأنهم قد خلفوا مشكلاتهم الدولية وراءهم.

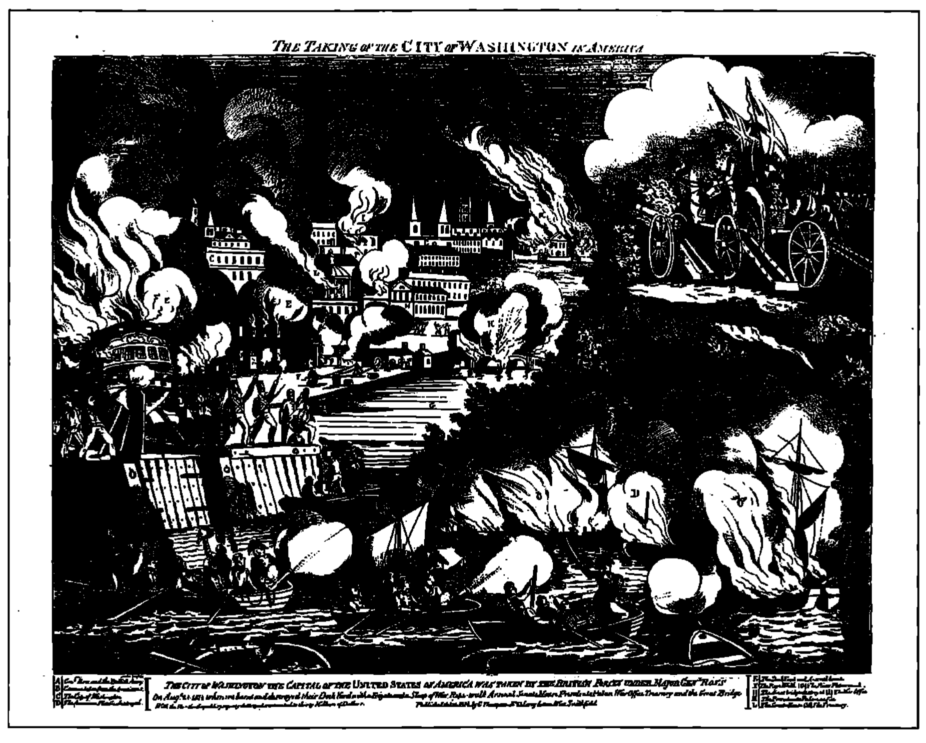
بيد أن السلم استمر بضعة أعوام فقط، وعندما استؤنف القتال في أوروبا، أصبحت المسألة مسألة وقت قبل أن تجر الولايات المتحدة إليها مرة أخرى. فاستعاد البريطانيون دورهم بوصفهم الشرير الأعظم المناهض للفضيلة الأميركية، في البحر وعلى امتداد الحدود الغربية. ومنذ عام 1805، بدأ الأسطول الملكي مرة أخرى مصادرة السفن والبضائع الأميركية، وكذلك الرجال وأجبرهم على الخدمة، على أساس أن كثيرًا منهم ما زالوا رعايا الملك. وأثارت سياسة الاعتقال هذه ردة فعل غاضبة في الولايات المتحدة. ووقعت أشنع الحوادث في عام 1807، عندما قصفت سفينة الحرب البريطانية إتش إم إس **ليوبارد**

(HMS *Leopard*) سفينة في البحرية الأميركية تسمى يو إس إس **تشيسابيك** (USS *Chesapeake*)، بالقرب من سواحل فيرجينيا، ومن ثم استقلوها وقبضوا على أربعة بحارة أميركيين، حيث شنق أحدهم بتهمة التهرب من الأسطول الملكي. أعلنت بريطانيا أن أي سفينة ترغب في التجارة مع أوروبا القارية، التي باتت الآن تحت السيطرة الفرنسية الكاملة، عليها أولًا أن تعرض نفسها للتفتيش والإجازة في أحد موانئ الجزر البريطانية، الأمر الذي كان يهدد أرباح أميركا وكذلك كرامتها. وزادت الاستفزازات البريطانية في الغرب من الغضب الأميركي، حيث شجع البريطانيون الهنود الأميركيين، مرة أخرى، على مقاومة التمدد الأميركي غربًا.

وجد جيفرسون نفسه في مأزق ألفه عدة رؤساء أميركيون من واشنطن حتى ويلسون، فالقبول بمطالب أوروبا كان بمنزلة قبول مكانة التابع في الساحة الدولية، في حين تضاهي مقاومة هذه المطالب عملًا من أعمال الحرب ضد القوة المهيمنة في الأطلسي. ومع رفضه التحالف مع الدول الأوروبية، حتى تلك التي معه على الحياد والتي كانت أيضًا تقاوم الحصار البريطاني، اختار بدلًا من ذلك حلًا وسطًا كارثيًا، ألا وهو المقاطعة الاقتصادية الكاملة لكل تجارة الولايات المتحدة مع بريطانيا، وهو ما كان غير قابل للفرض فعليًا وتم تجاهله على نطاق واسع.

وعلى الرغم من تصميم جيفرسون لهذه الاستراتيجيا الوسيطة بغرض تأجيل الحرب، إلا أنها في حقيقة الحال، جعلتها أمرًا حتميًا، خاصة عندما خلفه جيمس ماديسون، المنظر السياسي العبقري والسياسي غير البارع، في منصب الرئاسة عام 1809. وأعلن الكونغرس الحرب في صيف عام 1812، مدفوعًا بـ «صقور الحرب» الذين كان أغلبهم من الجنوب والغرب ممن أرادوا التوسع غربًا. وعلى الرغم من التسبب في الكثير من الدمار، لم يستطع أي من الفريقين بناء أي زخم في الصراع الذي تلا ذلك، وفي النهاية لم يستطع أي منهما تحقيق أي من أهداف الحرب الرئيسة. فقد شهد الغزو الأميركي لكندا إحراق مدينة يورك (تورونتو الآن)، وبعض المعارك البحرية في البحيرات العظمى. وأخفقت محاولة بريطانية التوغل في ولاية نيويورك، وبينما نجح اجتياح آخر لولاية ميريلاند مبدئيًا – أسفر عن نهب مدينة واشنطن العاصمة وإحراق القصر الرئاسي – إلا أنه رد على أعقابه في النهاية.

الصورة (1-1)



يصور هذا المنشور، المصنوع في لندن، الهجوم البريطاني على مدينة واشنطن العاصمة في آب/ أغسطس 1814. وعلى الرغم من أن الحرب انتهت بالجمود العسكري، فقد احتفل بها الأميركيون بوصفها حرب التحرير الثانية.

وفي ليلة عيد الميلاد من عام 1814، في مدينة غِنت الفلمنكية، وافق المفاوضون البريطانيون والأميركيون على بنود السلم التي افتقرت إلى الكثير من التحديد والتصميم، إلا أنها سمحت لكلا الطرفين بإيقاف القتال مع حفظ ماء الوجه. وانتهت حرب عام 1812 كما بدأت، بحالة من الجمود، من دون أن يحقق أي من الطرفين أي مكسب حقيقي. إلا أن ذلك كان كافيًا بالنسبة للأميركيين، الذين احتفلوا وكأنه كان انتصارًا عظيمًا. وقد كان انتصارًا بوجه من الوجوه، فقد استطاعت تلك الجمهورية الناشئة، التي هي عبارة عن الاتحاد مهلهل منتشر بشكل رقيق على امتداد آلاف الأميال، أن ترد، وللمرة الثانية، هجوم إحدى أقوى الإمبراطوريات في التاريخ. وعلى الرغم من التهديد بالانفصال بواسطة إقليم نيو

إنغلاند[21] الذي عارض الحرب بغضب (على أساس المصلحة الذاتية وليس السلامية[22] الصرفة)، إلا أن الشعور القومي اجتاح الولايات المتحدة. كذلك انحسر الوجود البريطاني في أميركا الشمالية بعد الحرب، وانخفض تهديد أمن الولايات المتحدة ومن ثم اختفى بالكلية، واستقر شعور جديد باللحمة الوطنية. لهذه الأسباب، أطلق على حرب عام 1812، اسم «حرب الاستقلال الثانية».

أميركا أولًا

أصبحت الأوضاع الآن مثالية لتزدهر هذه الأمة الأحادية. وأصغى رجال الدولة الأميركيون لواشنطن وجيفرسون، فعملوا على تجنب أي تحالفات دائمة مورطة، الأمر الذي ترك لهم حرية العمل في العالم وفق إرادتهم. وكان هناك بعض العوائق أمام سلوك الولايات المتحدة، إلا أنها لم تكن كثيرة.

وفي عام 1823، دشن الرئيس جيمس مونرو[23]، هذا المبدأ السائد للأحادية في عقيدة ما فتئت تحمل اسمه إلى الأبد[24]. وعلى غرار جميع العقائد الرئاسية اللاحقة، بزغت النظرية العامة مباشرة من الأحوال الخاصة، حيث استخدم الرئيس أزمة حالة لتبرير السياسة القائمة ووضع قواعد أساسية للعمل في المستقبل. ففي أوائل عشرينيات القرن التاسع عشر، شهدت أميركا اللاتينية سلسلة من الثورات القومية، خشي على إثرها الناس في الولايات المتحدة من أن تستولي قوة أوروبية أخرى، مثل فرنسا أو روسيا، على إمبراطورية إسبانيا المنهارة. في الوقت نفسه، بدأت مجموعة من الأميركيين النافذين، الضغط من أجل التدخل ضد العثمانيين

(21) إقليم نيو إنغلاند (New England): يتكون من 6 ولايات هي: ماين ونيوهامشير وفيرمونت وماسوشوستس ورودأيلاند وكونكتيكت. (المترجم)

(22) السلامية أو اللاعنفية (pacifism): هو مبدأ فلسفي أخلاقي يناهض الحرب والعنف لذواتها بغض النظر عن الأسباب والمبررات ويدعو إلى السلام الشامل المطلق. (المترجم)

(23) جيمس مونرو (James Monroe) (1758-1817): محام ورجل دولة ودبلوماسي أميركي، أحد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة وخامس من تولى منصب الرئاسة بين عامي 1817 و1825. (المترجم)

(24) العقيدة الرئاسية (presidential doctrine): رؤية عامة يقدمها بعض الرؤساء لاستراتيجية إدارة سياسات الدفاع والعلاقات الخارجية التي يعتزمون اتباعها في أثناء ولايتهم. (المترجم)

في الحرب الأهلية اليونانية، وهي مجازفة خطرة، لا تتعلق إلا بالقليل من المصالح الأميركية.

كانت عقيدة مونرو التي صاغها فعليًا وزير الخارجية جون كوينسي آدامز[25]، تحل هذه المعضلة الجيوسياسية. فقد أعلمت القوى الأوروبية أن نصف الكرة الأرضية الغربي منفصل جغرافيًا ومتمايز سياسيًا، وعليه يجب ألا تتدخل أوروبا في الشؤون الأميركية. وفي المقابل، تعهد مونرو أن الولايات المتحدة سوف تمتنع من إقحام نفسها في المسائل الأوروبية. تعهدت عقيدة مونرو بأن أميركا لن تدخل في مستعمرات أوروبا في العالم الجديد، إلا أنها وضعت قواعد أخرى مثل، عدم قابلية الانتقال، أي إن السيادة الاستعمارية لا يمكن أن تنتقل من إمبراطورية أوروبية إلى أخرى، وإن نهاية حكم أي قوة استعمارية لابد من أن تؤدي إلى الاستقلال الوطني لتلك المستعمرة. كذلك وضعت قاعدة أخرى هي عدم التوسع، أي إن الإمبراطوريات الأوروبية لا يمكنها توسيع نطاق حكمها في الأميركتين.

كانت عقيدة مونرو كذلك أحادية في تنفيذها بلا مواربة. فقد كان البريطانيون، السعداء ببناء إمبراطورية اقتصادية غير رسمية في أميركا الجنوبية والواثقون من قدرتهم على الاحتفاظ بمستعمراتهم الرسمية القائمة، يشعرون بالتخوفات نفسها من سقوط المستعمرات الإسبانية في أيدي الفرنسيين أو الروس. ونظرًا إلى معرفتهم بأنهم باتوا الآن يرون الموقف الدولي بشكل مشابه، طرحت لندن على إدارة مونرو مقترحًا للشراكة، وأراد عدد من أعضاء حكومة مونرو قبول العرض البريطاني، إلا أن آدامز أصر على انفراد الولايات المتحدة بالعمل.

كانت الآثار المجتمعة لحرب عام 1812 وعقيدة مونرو هائلة. فقد أصبحت المبادئ الأولى، المتمثلة في الأحادية الدولية والاستثنائية الخلقية،

---

(25) جون كوينسي آدامز (John Quincy Adams) (1767-1848): محام ورجل دولة ودبلوماسي أميركي، وسادس من تولى منصب رئيس الولايات المتحدة بين عامي 1825 و1829. وهو حفيد الأب المؤسس وثاني رئيس للولايات المتحدة، جون آدامز. (المترجم)

الآن مترسخة بقوة، بحيث باتت النجوم الهادية للولايات المتحدة في العالم. واعتقد الأميركيون، أكثر من أي وقت مضى، أن الولايات المتحدة أمة مختارة، مختلفة عن الأمم الأخرى وأفضل منها، وأنه مقدر لها القيام بأمور عظيمة. وعليه، فإن لها صلاحية العمل منفردة، من دون تشويه أو إعاقة أي شراكات مع الدول الأخرى. وفي العقود التالية، سوف تدفع هذه الصفات - الشعور بالمصير وتجنب الحلفاء - توسع الولايات المتحدة الحثيث باتجاه الغرب.

الفصل الثاني

التوسعية

ظل أولئك الذين يقطنون ما عُرف لاحقًا بالولايات المتحدة، لقرابة الثلاثمئة عام، يوسعون ممتلكاتهم من الأراضي. فمن قاعدتهم الأساسية التي شملت ما بين مقاطعات نيو إنغلاند وكارولينا الشمالية وكارولينا الجنوبية، ظل الأميركيون يوسعون حدودهم غربًا وجنوبًا حتى أصبحت الولايات المتحدة هي القوة ذات السيادة من الأطلسي إلى الهادئ، ومن نهر ريو غراندي [جنوبًا] إلى البحيرات العظمى [شمالًا]. وخلال قيامهم بهذا، تجذر لديهم الاعتقاد بأن ذلك التوسع لم يكن عملًا حتميًا فحسب، بل كان فاضلًا كذلك. لقد كان التقدم فضيلة، وكانت الولايات المتحدة تمثل التقدم، لذلك بدأ الكثيرون يعتقدون بأن أفضل ما يمكن أن يحدث للجميع هو تمدد حدود الولايات المتحدة إلى أبعد ما يمكن. ولم تكن هذه التوسعية مجرد عملية من عمليات الاستيطان، بل كانت، إلى حد ما، تمثل أيديولوجيا لفتح فاضل نبيل، كان لها أن تحدد، أكثر من أي شيء آخر، الشخصية القومية الأميركية.

لم تكن التوسعية ظاهرة جديدة، بل كانت ببساطة تعبر عن أفكار قديمة بشكل أكثر قوة من أي وقت مضى. فالنمو، خاصة ذا الطبيعة الاقتصادية، كان جنونيًا لا يلين - وفوق كل ثابت - طوال التاريخ الأميركي. إلا أن الأهم من ذلك، كان **الاعتقاد** الدائم في النمو، الذي يشبه الإيمان العلماني بأن التوسع سوف يؤدي إلى مستقبل أسعد وأكثر رخاءً. حيث قال جون ل. أوسوليفان[1] أشهر الداعين إلى التوسعية في الأمة، أنه «ليس لدينا أي اهتمام بمشاهد الماضي السحيق، فالمستقبل التوسعي هو ساحتنا ومن أجل تاريخنا». وختم بقوله إن الولايات المتحدة فريدة لأنها «أمة عظيمة للمستقبل».

---

(1) جون ل. أوسوليفان (John L. O'Sullivan) (1813-1895): صحافي ومحرر وسياسي أميركي وأحد ناشطي الحزب الديمقراطي الأميركي. (المترجم)

إن هذا الإيمان بالمستقبل، خاصة في قدرة الأميركيين على إخضاعه لإرادتهم، كان قويًا بما يكفي لتحمل نتائج التوسعية الهائلة المزعزعة للاستقرار، لا سيما الحرب. وفي الفترة ما بين حرب عام 1812 والحرب الأهلية، التي تُعرف عادة بالحقبة الجاكسونية، والتي ربما كان من الأصلح تسميتها بـ «عصر أوسوليفان»، أطلِق العنان لهذه الدوافع الهائجة وآثارها العنيفة بطول القارة وعرضها، حيث وضعت الأساس الأيديولوجي لتوسعات أخرى أعظم تتبعها.

مجال رحب

لم تكن أصول أولئك الذين وقفوا خلف التوسعية الأميركية، ترجع إلى قارة أميركا الشمالية. فقد انتقل أسلافهم، إلى الأرض التي سوف تصبح أميركا، فرارًا من الاضطهاد أو تطلعًا إلى تحسين حالتهم الاقتصادية، أو كليهما. وحتى منتصف فترة ما قبل الحرب، انحدر أغلب هؤلاء السكان الأوروبيين (أو كانوا أبناء من انحدروا) من إنكلترا واسكتلندا وويلز وألستر. إلا أنه كان من الممكن العثور على بعض اللاجئين البروتستانت الآخرين - بمن فيهم الهولنديون والسويديون والألمان والفرنسيون الهيوغونوت - وكذلك الجيوب الصغيرة للكاثوليك واليهود، على طول الساحل الشرقي لأميركا الشمالية. ولأنهم لم يكونوا سكان البلاد الأصليين، جاءت أطماعهم التوسعية على حساب أولئك الذين عُرفوا، طوال أغلب التاريخ الأميركي، بالهنود، وحديثًا بسكان أميركا الأصليين أو الهنود الأميركيين. وكان غرس المجموعة الكبيرة الأخرى من المهاجرين عبر البحار - أي العبيد الأفارقة - حاسمًا للتوسع الأميركي، حتى وإن لم يكن العبيد أنفسهم توسعيين بإرادتهم.

أغضب تشريد سكان القارة الأصليين، الذي كان يتم أحيانًا من طريق المعاهدات، ولكن غالبًا بالقوة، بعض الأميركيين، إلا أن معظمهم رآه بوصفه وسيلة كريهة لغاية أشرف ينشدونها. وأدت العنصرية دورًا كبيرًا في تبرير التوسع، ففي اقتصاد تسيره العبودية إلى حد بعيد (لا سيما بعد عام 1800)، ومع طرد الهنود الأميركيين من أراضي أسلافهم، أسست أجيال متتابعة من الأميركيين أمة على فكرة سيادة البيض. ودُعمت هذه العنصرية بقواعد قانونية وعقيدة دينية

وإيمان راسخ بمثال للحضارة. على سبيل المثال، تمسك المستوطنون البيض القادمون من إنكلترا بمذهب قانوني مبني على الاستغلال الأمثل للأرض، فإن لم تكن مملوكة أو آهلة، وتُركت لتبور، كان يتم اعتبارها غير مملوكة لأحد ومتاحة للاستيلاء عليها. وعندما وصل أولئك المستوطنون إلى أميركا الشمالية في القرنين السابع عشر والثامن عشر، لم يفهموا كيف يستغل الهنود البدو أراضيهم، ولكن كان باستطاعتهم إدراك أنها لم تتطور إلى القرى والبلدات والمراعي المألوفة للعين الأوروبية. وحتى عندما كان يستوطن الهنود الأميركيون منطقة ما، كان ذلك يحدث بطريقة لا تليق بالأعراف الأوروبية، أي كأنها لم تستوطن أصلًا.

بيد أن كل هذه المفاهيم - القانون والدين والحضارة - زرعت في الأميركيين كذلك شعورًا بالمسؤولية تجاه هذه الشعوب التي افترضوا أنها جاهلة وتفتقر إلى النظام القانوني والإيمان المسيحي ومقاييس التحضر الحديثة. ففي أثناء قيامهم بنشر سيادتهم على الأراضي، شعر الأميركيون أن عليهم أيضًا واجب نشر قيمهم. فقد كانوا أقوى من جيرانهم البدائيين، وساعد هذا التفاوت الاقتصادي والعسكري في زرع دافع إصلاحي لدى المستعمرات البريطانية، أصبح في ما بعد أكثر صراحة، ما إن أسست الولايات المتحدة ووجهت ناظرها ناحية الغرب. لذلك، فبحلول القرن التاسع عشر، لم تعد أيديولوجيا التوسعية مبنية على أحقية الغزو فحسب، ولكن أيضًا على مسؤولية تحسين حياة الآخرين، الأمر الذي زاد بالطبع من ثقة الأميركيين بأن التوسع كان عادلًا شريفًا. وسواءً كانت الإصلاحية معتقدًا صادقًا أم مجرد غطاء للاستيلاء الدائم على الأراضي، فقد وجد دافعان قويان - المثل الإيثارية والمصالح الأنانية - في النظرة الأميركية إلى العالم، من دون أي شعور بالتناقض أو الصراع، ووفر هذان الدافعان أيديولوجيا قوية تهدي أميركا في العالم لقرون قادمة.

لذلك، عندما أنشئت الولايات المتحدة بين عامي 1775 و1783، كانت التوسعية بالفعل تشغل عقول شعبها. فقد كان إعلان الخط الفاصل المكروه، [الذي أعلنته بريطانيا] في عام 1763، والذي يحظر الاستيطان الاستعماري وراء جبال الأبلاش، أحد أهم أسباب قيام الثورة الأميركية. ولا غرو أن المرة الوحيدة

التي يصدر فيها الكونغرس تشريعًا فعالًا، خلال فترة بنود الاتحاد الضعيفة، كانت في عام 1787، عندما أصدر مرسوم الشمال الغربي[2]. ويعد ذلك المرسوم انتصارًا لتخطيط الأراضي الأساسي، حيث إنه يمثل مسحًا وتنظيمًا على نطاق واسع لأراضٍ كانت بريطانيا قد تنازلت عنها في عام 1783. كذلك أسس ذلك المرسوم مبدأً حيويًا بالنسبة إلى التوسع الأميركي في المستقبل، فسوف يتم تضمين الأراضي الجديدة التي تحوزها الولايات المتحدة (الأمر الذي كان توقعه شائعًا) بوصفها أراضيَ خاضعة للحكم الفدرالي حتى ينتقل إليها عدد كاف من الناس ويستوطنوها ويطوروها إلى الحد الكافي، عندها يصبح باستطاعة تلك الأرض أن تتقدم لنيل صفة الولاية وتصبح عضوًا له كامل الصلاحيات في الاتحاد. وفي العقود التالية، تم تقسيم هذا الامتداد الشاسع من الأراضي، التي عُرفت بأراضي إنديانا، إلى ولايات أوهايو وإنديانا وإيلينوي ومشيغين ووسكنسن.

وأصبح لدى الولايات المتحدة الآن نظام قانوني مرتب للتوسع المستمر. في الحقيقة، أسس المرسوم إطارًا لنوع جديد من الدول، ليست دولة قومية على الإطلاق، بل شيء أشبه بدولة إمبراطورية. حيث مثلت المستعمرات الثلاث عشرة حاضرتها التي توفر محرك التقدم الاقتصادي ورأس المال والخبرة التقنية، التي يتطلبها تماسك الأراضي الجديدة المستولى عليها، إضافةً إلى المدد الثابت من المهاجرين الراغبين في سكنى تلك الأراضي. إلا أن تلك الإمبراطورية كانت تختلف في أن مستعمراتها (أي الأراضي، مثل أراضي إنديانا التي خلقها المرسوم الشمالي الغربي) لم تكن تحكم بوصفها مكونات دونية، بل شركاء منتظرين في دولة فدرالية.

من الصعب المبالغة في تقدير أثر المرسوم الشمالي الغربي بوصفه عملًا من أعمال بناء الدولة. فبوصفه إعلانًا للنوايا، كان المرسوم يقف مكان أرسخ مطالبة

(2) مرسوم الشمال الغربي (Northwest Ordinance): تم سنه في 13 تموز/ يوليو 1787، وهو مرسوم أقره كونغرس الاتحاد في الولايات المتحدة، وتم بموجبه إنشاء الإقليم الشمالي الغربي، أول إقليم منظم في الولايات المتحدة، وشمل الأراضي وراء جبال الأبلاش بين أميركا الشمالية البريطانية والبحيرات العظمى إلى الشمال ونهر أوهايو إلى الجنوب. (المترجم)

ممكنة بالأرض - فلم يعد هناك أي غموض حول من الذي ينوي الاستيطان في الشمال الغربي. الأكثر من ذلك، أن مبدأ الاستيطان التوسعي، الذي كان بالفعل بدهي في المخيلة الأميركية، تم سنه قانونًا. وعلى الرغم من رأي مونتسكيو[3]، فيلسوف النهضة الفرنسية، القائل بأن الجمهوريات يجب أن تكون صغيرة لكي تبقى، ذلك أنها كلما كبرت، زاد الانقسام وزادت المشاحنة بين أهلها، الأمر الذي يجعل الحكم الفعال أمرًا مستحيلًا. إلا أن جيمس ماديسون، أكثر المنظرين السياسيين علمًا بين مؤسسي الولايات المتحدة، قلب ثنائية مونتسكيو رأسًا على عقب. فكان رأيه أن ظهور الطوائف السياسية أمر حتمي، ولكي يتم استيعابها وإعطاؤها مساحة للتعبير عن نفسها، لابد للجمهورية الأميركية أن تنمو لكي تزدهر. وقد قال لزميله من فيرجينيا توماس جيفرسون في عام 1787 «إن هذا الشكل للحكومة لن يؤتي أكله إلا إذا عمل في مجال رحب، لا ضيق».

وبوعد لا نهاية له بالأراضي المتاحة غربًا، وتبرير أيديولوجي سهل ميسور، لم يضيع رجال الدولة الأميركيون كثير وقت قبل إعلان مستقبل أكثر إشراقًا لولايات متحدة أكبر وأعظم. فكتب جيفرسون إلى جيمس مونرو في عام 1801، الذي كان في ذلك الوقت حاكمًا لولاية فيرجينيا، قائلًا: «على الرغم من أن مصالحنا الحالية قد تجبرنا على التوقف عند حدود قدرتنا، إلا أنه من المستحيل عدم النظر إلى المستقبل البعيد، حين يمتد تكاثرنا السريع إلى ما وراء تلك الحدود ليغطي القارة الشمالية كلها، إن لم يغط الجنوبية أيضًا، مع شعب يتكلم اللغة نفسها، ويحكم بأنظمة وقوانين واحدة». وجاء جون كوينسي آدامز، الذي ربما كان أهم مخطط للتوسعية بعد جيفرسون وإن كان أقل منه طموحًا بقليل، ليتنبأ لزوجته لويزا، عشية حرب عام 1812، بأن الولايات المتحدة «سوف تمتد حتى تشمل قارة أميركا الشمالية كلها، وأن الرب والطبيعة قدرا لشعبها أن يصبح أكبر وأقوى شعب في التاريخ، يجتمع تحت رابطة اجتماعية واحدة».

---

(3) مونتسكيو (Montesquieu) (1689-1755): هو قاضٍ وفيلسوف سياسي فرنسي وأحد أهم مفكري عصر التنوير الأوروبي، وهو صاحب فكرة الفصل بين السلطات، وأحد أهم من تأثر به الآباء المؤسسون للولايات المتحدة في صياغة دستورها ومبادئها السياسية. (المترجم)

بيد أن المشكلة بالطبع كمنت في أن الأرض التي أراد كل من جيفرسون وآدامز حيازتها، كانت لا تزال مسكونة بعدة أمم هندية أميركية، تتمتع بالدعم غير الرسمي، لكل من بريطانيا العظمى وإسبانيا. لذلك لم يكن التوسع ليأتي سلميًا على الأرجح. وقد تنبأت رسالة جيفرسون إلى مونرو بمستقبل ماجد، إلا أنها انتهت بنذير شؤم: «ولا يمكننا أيضًا التفكير بارتياح بتلطيخ أيدينا على هذه الأرض أو الامتزاج عليها». ولم يرض هذا أولئك الذين كانوا في طريق التوسع الأميركي - أي أولئك الذين كانوا بالفعل يعيشون على هذه الأرض المرتجاة ومثلوا بقعًا متوقعة على الخريطة ومصادر غير صحية للامتزاج العرقي. ومع بداية أعوام ازدهار العبودية في الجنوب بسبب اختراع محلج القطن، وتسارع الاستيطان الأميركي جنوبًا وغربًا، كان على الجمهورية الجديدة أن تعدل إلى التقدم بناءً على بساط التفوق العرقي. وبهذا الانحراف القاتم للرؤية الاستثنائية، أصبح من الأسهل تبرير إزاحة أولئك الذين يقفون في طريق التوسع الأميركي.

جسدت التوسعية الأميركية ظاهرة «الاستعمار الاستيطاني»[4]، الشكل الأكثر قوة للغزو، ذلك أنه يركز تركيزًا حثيثًا على أمر واحد فقط السيطرة على الأرض. فليس لدى الاستعمار الاستيطاني حيز لمشاركة السلطة أو السيادة - فلم يكن يطلب من سكان الأرض الأصليين التعاون أو القسم على الولاء، بل كان يطلب منهم ببساطة الرحيل وعدم الرجوع. كان من المفترض أن تكون الإمبريالية الليبرالية، النظرية التي ارتكزت عليها الاستعمارية الاستيطانية، تنويرية بما كانت تدعو إليه من القيم الديمقراطية، بينما تعترف أيضًا بتنوع الثقافات الأخرى. ولكن، لأنها ارتكزت على مفاهيم مثل الملكية الخاصة والحقوق الفردية والنمو الاقتصادي، كانت آثارها غير قابلة للنقض. بمعنى آخر، كان تمدد الليبرالية يرتكز على طرق أبعد ما تكون عن الليبرالية.

---

(4) الاستعمار الاستيطاني أو الإحلالي (settler colonialism): هو شكل من أشكال الاستعمار المبني على طرد سكان البلاد الأصليين وإحلال جماعات من مهاجري المستعمرين ليستوطنوها بشكل دائم، حتى تنقلب هويتها تمامًا. (المترجم)

فهم جورج واشنطن المشكلة جيدًا. فقد بدأ مهنته العسكرية بوصفه ضابطًا في الميليشيا الاستعمارية في خمسينيات القرن الثامن عشر، عندما كلف بمهمة إخلاء الطريق أمام الاستيطان الإنكليزي في وادي أوهايو. وفي عام 1754، أشعل معركة مع الفرنسيين أصبحت الصدام الأول في الحرب الفرنسية الهندية، والتي امتدت لتصبح حرب السنوات السبع. إلا أنه على الجانب الآخر، كان واشنطن أحد المستثمرين في شركة أوهايو، التي كانت أهم الشركات الاستعمارية العاملة في مجال التوسع الغربي، والتي كان واشنطن، الرائد بالجيش البريطاني وقتها، مكلفًا بحماية زبائنها في عام 1754. لذلك، فهم واشنطن أيضًا أهمية الاستعمارية الاستيطانية من القواعد. كانت استراتيجية واشنطن تقضي بمحاولة استخدام الدبلوماسية أولًا، ولكن مع الاستيطان في أرض أميركا غربي المسيسيبي، ولو بالقوة إن لزم الأمر. أما هنري نوكس (Henry Knox)، وزير الحرب وأحد أقرب مستشاري واشنطن، فقد كان يشاركه تضارب المشاعر ذاته. فقد كان يأمل أن تتحضر القبائل الهندية الأميركية وأن يتم إدماجها في الجسد السياسي الأميركي، وكان لديه إعجاب خفي بصفاتهم، كما كان يكن ازدراءً للجموح العنيف للمستوطنين الأميركيين. إلا أنه أدرك كذلك أن المستقبل سيتحدد وفقًا لاحتياجات ورغبات الولايات المتحدة. وعلى ذلك أخبر نوكس قبائل الشمال الغربي [بسفور] «هذا آخر عرض يقدم لكم، وإن لم تقبلوه الآن، فمصيركم الهلاك إلى الأبد».

وقد أدرك الهنود الأميركيون بوضوح، أن مشكلة الدبلوماسية هي ببساطة كونها طريقة لإخلاء الأرض أمام الاستيطان والنمو الأميركي. فأي معاهدة توقعها أمة هندية كانت عبارة عن استسلام ورسالة انتحار طريقة حياتهم بأسرها، حتى وإن قبلوا بشروط السلم والاندماج في الولايات المتحدة. وبعد أن ووجهوا بهذا الخيار، وبتشجيع من البريطانيين، اختاروا الحرب.

كانت الحرب المنخفضة الحدة، التي تتخللها بعض المعارك الوحشية الحاسمة، السمة السائدة في الأراضي التي شملها المرسوم الشمالي الغربي بين عام 1790 ونهاية حرب عام 1812. ورأى كل من الهنود والأميركيين حظوظهم تعلو وتنخفض، إلا أن النمط العام كان معاناة الهنود أغلب الهزائم وإحراز

الأميركيين أغلب الانتصارات، وبنهاية حرب عام 1812، لم يعد هناك أي شك بأن الأرض شمال نهر أوهايو وشرقي أنهار المسيسيبي، أصبحت مملوكة بكاملها للولايات المتحدة. وقد استطاع الأميركيون إحراز أول انتصاراتهم الكبيرة في عام 1794، في معركة «فالين تيمبرز» بالقرب من ضفاف بحيرة إيري (Lake Erie). وجاءت اللحظة الحاسمة التي قلبت الموازين في عام 1811، إبان انتصار وليام هنري هاريسون (William Henry Harrison) الشهير على تيكومسيه في معركة تيبكانو التي وقعت في ولاية إنديانا الحالية. وانتهت حرب عام 1812 بالجمود بالنسبة إلى كل من بريطانيا والولايات المتحدة، إلا أنها كانت كارثة على الأميركيين الأصليين، فقد كانت تعني أن سكنى الهنود شرقي المسيسيبي وشمال نهر أوهايو لم يعد ممكنًا.

بحلول ذلك الوقت، وبفضل جيفرسون، كان مبدأ التوسع المستمر قد تم زرعه بوصفه أحد جوانب الهوية الوطنية. ففي عام 1803، حاز أراضي لويزيانا من فرنسا بالشراء لا الغزو. وكانت هذه القطعة من الأرض في ذلك الزمن أكبر بكثير من ولاية لويزيانا الحالية - كانت تشمل قرابة المليون ميل مربع من الأرض من نهر المسيسيبي إلى الجبال الصخرية التي تمتد، بعد اجتزاء الحدود مع تكساس الإسبانية، من نيو أورليانز على خليج المكسيك حتى الحدود النهائية مع كندا.

وبحلول عام 1815، كانت الولايات المتحدة قد وضعت يدها على ثلثي ما سوف يصبح الولايات المتحدة القارية. فبشراء لويزيانا، أصبح من حق الولايات المتحدة غزو واستيطان تلك الأراضي متحررة من النفوذ الأوروبي، إلا أن ذلك كان يعني التعامل مع مئات القبائل الهندية الساكنة لها، وهي العملية التي استمرت لعقود قادمة، سلمًا وحربًا. أما ما وراء لويزيانا، فقد ناور التوسعيون، من أمثال آدامز، لتأمين كل شيء آخر وتحويل الجمهورية إلى دولة قومية ممتدة عبر القارة.

كانت فلوريدا الإسبانية هي الهدف الأول. حيث بدأ الجنرال أندرو

جاكسون[5]، بطل حرب عام 1812، تلك العملية بغزو فلوريدا عام 1818، زاعمًا أن غرضه هو قمع تحرش الإسبان والهنود بمستوطني ولاية جورجيا وأراضي ألاباما (في الحقيقة، كان المستوطنون الأميركيون هم من يزحف على الأراضي الإسبانية والهندية). استطاع جاكسون هزيمة جميع محاولات المقاومة وقدم إلى آدامز، وزير الخارجية آنذاك، فرصة تعظيم حجم الاتحاد مرة أخرى. وعلى الرغم من أن جاكسون كان قد جاوز التعليمات الموجهة إليه، وغزا فلوريدا بمبادرة منه، قبل آدامز هديته ممتنًا، بل زاد عليها. ففي المفاوضات مع إسبانيا، لم يصر آدامز على ضم فلوريدا بأكملها فحسب، وإنما أصر كذلك على أن تعترف إسبانيا بأن الحدود القانونية الجنوبية للولايات المتحدة تمتد حتى المحيط الهادئ. ومع توقيع المعاهدة عبر القارية في عام 1819، كان آدامز قد مضى بعيدًا في نبوءته التي باح بها لزوجه قبل ثمانية أعوام.

أكمل جاكسون، بعد أن أصبح رئيسًا في عام 1829، المشروع التوسعي، باستخدام العنف مرة أخرى. وعلى عكس إخوانهم من قبائل الشمال، استطاع الهنود الأميركيون في الجنوب خارج لويزيانا، بالمعاهدة، ترتيب اعتراف بالسكنى الدائمة في الولايات المتحدة. وأكثر من ذلك، صدقت المحكمة الدستورية العليا في عام 1832 على وضع الهنود بوصفهم ولايات ذات سيادة داخل الولايات المتحدة. ولكن، بينما كانت قبائل الشيروكي والشيكاساو والتشوكتاو والكريك تتمتع بالحق القانوني في البقاء حيث هي، فإنها كانت كذلك تقف عقبة في طريق استيطان البيض وتمدد العبودية في ولايات جورجيا وتنيسي وألاباما ومسيسيبي وكارولينا الشمالية والجنوبية. لذلك أمر جاكسون القوات الفدرالية، متجاهلًا حكم المحكمة الدستورية العليا، بإزالة الأمم الهندية إلى غرب نهر المسيسيبي، إلى ما يعرف اليوم بولاية أوكلاهوما.

---

(5) أندرو جاكسون (Andrew Jackson) (1767-1845): قائد عسكري أميركي كان له دور بارز في حرب عام 1812، وقاد الأميركيين في عدة معارك ضد الهنود أبرزها معركة نيو أورليانز في عام 1815. تولى منصب الحاكم العسكري لفلوريدا في عام 1821، قبل أن يصبح الرئيس السابع للولايات المتحدة بين عامي 1829-1837.

لم تؤد إزالة الهنود إلى مزيد من حيازة الأراضي، إلا أنها كانت حاسمة بالنسبة إلى التوسعية الأميركية بوصفها خطة للتماسك وشرارة لمزيد من النمو. ففي خلال العقود التالية، انحدرت الولايات المتحدة على طول قارة أميركا الشمالية وعرضها، كالماء ينحدر من أعلى التل، لا تنحرف إلا عندما تعترض عقبة طريقها. وفي وقت سابق، قبل حرب عام 1812، كانت تلك العقبة تصميمًا بريطانيًا وكنديًا. وكانت القوة البريطانية تمثل ضابطًا للمخططات الأميركية في ما وراء الأرض المستولى عليها بموجب صفقة لويزيانا. لاحقًا، أصبحت التحفظات الأيديولوجية والسياسية للأميركيين أنفسهم هي التي تضبط عملية التوسع. وكانت العبودية هي أكثر هذه المسائل الخلافية ضغطًا، إلا أنه كانت هناك مسائل أخرى كذلك. على سبيل المثال، بعد الحرب المكسيكية[6]، كانت المسألة الخلافية الأهم هي تردد الولايات المتحدة في استيعاب المكسيكيين الكاثوليك المتحدثين بالإسبانية، الذين كانوا يعيشون جنوب نهر الريو غراندي. حينها، بحلول أربعينيات القرن التاسع عشر، وبجانب موانعها الخاصة، لم يكن هناك شيء يمكنه أن يحد التوسع القاري للولايات المتحدة إلا المحيط الهادئ.

لطالما كانت التوسعية جزءًا من نسيج الاستثنائية الأميركية، والعكس بالعكس. إلا أن الرابطة بين التوسع والقومية لم يتم تطويرها، بهذا الوضوح والاكتمال، كما في الحقبة التي سبقت الحرب، ولم يعمل أحد على ذلك أكثر من جون ل. أوسوليفان. كان أوسوليفان صحافيًا وناشطًا بالحزب الديمقراطي يقطن نيويورك، وكان أيضًا توسعيًا متحمسًا. فكان التوسع بالنسبة إليه يمثل دعوة مقدسة، تخلط في عقله بين العناية الإلهية ومعاني القوامة البروتستانتية من ناحية، والقواعد الأنكلوسكسونية التي تقضي بواجب زراعة الأرض الصالحة للزراعة (أو التخلي عنها) من ناحية أخرى. وكتب في مقالة ترجع إلى عام 1845، كثرت الإحالة عليه، أنه «من حق قدرنا المتجلي أن ينتشر ويمتلك كامل القارة التي منحتنا إياها العناية

(6) الحرب المكسيكية: اندلعت بين عامي 1846 و1848، بين الولايات المتحدة والمكسيك نتيجة خلافات متراكمة، وانتهت بدخول القوات الأميركية عاصمة المكسيك وأسفرت عن استيلاء الولايات المتحدة على أراضي شاسعة كانت تحت الحكم المكسيكي. وسوف يتناولها المؤلف بالتفصيل بعد قليل. (المترجم)

الإلهية لتنمية هذه التجربة العظيمة للحرية والحكومة الفدرالية المستقلة». ومن خلال جريدته، أشاع أوسوليفان عبارته الجديدة، «القدر المتجلي»، التي تشير في الحقيقة إلى عملية قديمة للغاية. فقد حاجج أنه بسبب موقعها من الأرض وقيمها السياسية والاقتصادية الفريدة، كانت الولايات المتحدة تمتلك حق غزو أميركا الشمالية. إلا أن أوسوليفان وغيره من التوسعيين أضافوا أن الأمة عليها مسؤولية نشر هذه القيم السياسية والاقتصادية خلال توسعها غربًا. فالتوسع في الأراضي لا يمكن أن يكون هدفًا في حد ذاته، وإنما لابد أن يخدم هدفًا أسمى يتمثل في تمدين قارة متوحشة.

الصورة (2-1)



لوحة جون غاست (John Gast) لعام 1872، المسماة «التقدم الأميركي» (American Progress)، والتي تجسد القدر المتجلي بوصفه قوة لنشر الحضارة، حيث يقود المستوطنون والمزارعون وعمال المناجم البيض، الأميركيين الهنود والحيوانات البرية، إلى خارج الأرض، في حين تعبر المرأة المتألهة عن التقدم، فهي تحمل كتابًا مدرسيًا وتقود السكة الحديد وتقيم سلك التلغراف خلفها بينما تسير إلى الأمام.

حرب الغزو

لم يكن أوسوليفان يكتب في الفراغ. فبحلول عام 1845، كان الأميركيون يشهدون التوسع على ثلاث جبهات: تكساس التي كانت جمهورية مستقلة في ذلك الوقت، وكاليفورنيا التي كانت إحدى مقاطعات المكسيك، وأراضي أوريغون الواسعة الممتدة من الحدود الشمالية لكاليفورنيا إلى الطرف الجنوبي لألاسكا بانهاندل، المتنازع عليها جزئيًا مع بريطانيا.

قبل ذلك بعشر سنوات، وبعد استيعاب موجة إثر أخرى من المستوطنين المتحدثين بالإنكليزية، خاضت تكساس حربًا قصيرة للاستقلال وانفصلت عن المكسيك. وقدم سكان تكساس المتحدثون بالإنكليزية التماسًا للانضمام إلى الولايات المتحدة، إلا أنه رُفض. وفي عام 1820، أسست تسوية ميزوري[7] لمبدأ التساوي، أي أن كل ولاية جديدة يسمح فيها بالعبودية، لابد من أن توازن بأخرى تحظرها (في هذه الحالة، تم خلق ولاية مين لتوازن ولاية ميزوري). وفي خلال الأعوام التي تخللت هاتين الحادثتين، اشتد الجدل الدائر حول مسألة العبودية، فشعر جاكسون، على الرغم من امتلاكه العبيد وعدم تعاطفه مع المطالبين بإلغائها، أنه لا يستطيع قبول ولاية كبيرة تسمح بالعبودية مثل تكساس من دون موازنتها بأخرى تحظرها. كذلك، فالمكسيك، التي كانت لا تزال تداوي جراح كرامتها الوطنية إثر الصراع مع تكساس، أوضحت أن ضم الولايات المتحدة لمنطقة تكساس سوف يعتبر عملًا من أعمال الحرب.

وفي عام 1845، تفاقمت مواجهة أخرى موازية تتعلق بمصير أوريغون. فقد كانت منطقة أوريغون تتمتع بقدرات اقتصادية هائلة وتتنازعها كل من لندن وواشنطن. بالنسبة إلى التوسعيين من أمثال آدامز، سوف توفر تلك الأراضي للولايات المتحدة المنفذ على المحيط الهادئ المقدر لها امتلاكه، وتتم الرؤية

(7) تسوية ميزوري: قرار تم تمريره في عام 1820 للحد من التوتر بين مناهضي العبودية والمدافعين عنها، وتضمّن عدة بنود أهمها حظر العبودية شمال خط عرض 36.6 درجة، باستثناء ميزوري، وعدم قبول انضمام أي ولاية تسمح بالعبودية إلا ومعها أخرى لا تسمح بها، وذلك لضمان التوازن داخل ولايات الاتحاد. (المترجم)

التي عبر عنها في المعاهدة عبر القارية. إلا أن البريطانيين هددوا بالحرب، على غرار المكسيكيين، إذا حاولت الولايات المتحدة الاستيلاء على أوريغون بكاملها.

أما كاليفورنيا، فقد كانت أيضًا محط أنظار الأميركيين، على الرغم من كونها جزءًا لا يتجزأ من المكسيك (الجمهورية الثورية الشقيقة والدولة القومية ما بعد الاستعمارية في العالم الجديد). وربما كانت تلك الأراضي هي المرغوبة أكثر من غيرها، إلا أنها كانت أيضًا، الأقل قابلية للحصول عليها. فقد كانت تكساس مستقلة وكانت تسعى بنشاط للانضمام إلى الولايات المتحدة، وكان البريطانيون يعترفون بأحقية الأميركيين في جزء من أوريغون في الأقل. وعلى الرغم من صعوبة الاستيلاء عليهما، إلا أن الاستيلاء على كاليفورنيا سيكون غزوًا سافرًا.

لم تسر الأحداث بشكل سلس كما يبدو على الورق بعد مرور 170 عامًا، إلا أن تلك المواجهات انتهت بين عامي 1845 و1846، بسلسلة من التطورات السريعة التي انقضت كلها تقريبًا لمصلحة أميركا. ولم تكن تلك مفاجأة، فقد كانت الولايات المتحدة في وضع مسيطر. في البداية انضمت تكساس إلى الولايات المتحدة في عام 1845. وفي السنة التالية، ومع تخمر حرب مع المكسيك، وافق الرئيس جيمس ك. بولك (James K. Polk)، التوسعي المخلص، على اقتسام أوريغون مناصفة مع بريطانيا عند خط عرض 49 درجة، الأمر الذي فرغ بولك لاستكمال خططه التوسعية في كاليفورنيا. وبعد أن أثارت القوات الأميركية حادثة على الحدود المتنازع عليها لكي يتم استخدامها ذريعةً، أعلن الكونغرس الحرب على المكسيك في شهر أيار/ مايو من عام 1846، وأسفر القتال عن استيلاء الجيش الأميركي على مدينة مكسيكو سيتي في أيلول/ سبتمبر 1847. أجبرت المكسيك في معاهدة السلام، التي تم توقيعها في شباط/ فبراير التالي، على التخلي عن مقاطعاتها الشمالية (الأرض التي سوف تصبح ولايات كاليفورنيا وأريزونا ويوتاه ونيفادا ونيو مكسيكو، إضافةً إلى أجزاء من ولايات أخرى كثيرة)، والاعتراف بسيادة الولايات المتحدة على تكساس مقابل تعويض قيمته خمسة عشر مليون دولار. وفي عام 1853، بعد ذلك بخمسة أعوام، حازت

صفقة غادسدن على شريط ضيق من الأرض جنوبي أريزونا، وبذلك أكملت ضم الولايات المتحدة القارية. وانقضى التوسع الإقليمي للولايات المتحدة في قارة أميركا الشمالية بصفقة ألاسكا في عام 1867.

وعلى الرغم من النجاح المذهل الذي حققته الحرب المكسيكية من ناحية التوسع الإقليمي والمجد العسكري، إلا أنها استندت إلى أصول أخلاقية ملتبسة. أولها، أن مكتسبات الأراضي في الجنوب الغربي، بداية من تكساس في اتجاه الغرب، أخرجت شبح توسع العبودية، الأمر الذي فاقم من الصراع الدائر بين مناصري العبودية في الجنوب، والداعين إلى إلغائها وإلى أرض خالية من العبودية في الشمال، وهو ما أشعل بدوره تصاعد التوترات التي اندلعت إبان أزمة الانفصال[8] بين عامي 1860 و1861. في الحقيقة، لن يكون من المبالغة القول بأن الحرب المكسيكية كانت المعركة الأولى للحرب الأهلية. أما الأصل الملتبس الثاني للحرب المكسيكية فكان سبب قيامها ذاته، الأرض. فقد كان واضحًا أن الهجوم العفوي على المكسيك، ما هو إلا وسيلة لانتزاع الأرض. وأخيرًا، فإن ذريعة الحرب المباشرة المتمثلة في زحف مكسيكي على الأراضي الأميركية، كان محل نزاع في ذلك الحين، وظل محط سخرية بعدها. فلم يكن بولك يريد الظهور بمظهر الغازي، ومع ارتفاع حدة التوترات على طول الحدود المتنازع عليها، انتظر اللحظة المناسبة لتوجيه ضربته. وعندما جاءت تلك اللحظة، كان الجرم المكسيكي محل شك، الأمر الذي دفع أحد أعضاء الكونغرس الجدد آنذاك، وهو من ولاية إيلينوي، أبراهام لينكولن[9]، إلى التقدم بمساءلته الشهيرة بـ «القرارات

(8) أزمة الانفصال: أي إعلان بعض الولايات الانفصال عن اتحاد الولايات المتحدة الأميركية وتشكيلها لاتحاد منفصل سمي بالكونفدرالية، وهي الأزمة التي أدت إلى نشوب الحرب الأهلية الأميركية بين ولايات الشمال (الاتحاد) وولايات الجنوب (الكونفدرالية) بين عامي 1861 و1865. (المترجم)

(9) أبراهام لينكولن (Abraham Lincoln) (1809-1865): محام وسياسي أميركي والرئيس السادس عشر للولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1861-1865. ويعد من أشهر الرؤساء الأميركيين، على الرغم من قصر مدة رئاسته، نظرًا إلى قيادته البلاد في ظروف صعبة للغاية تمثلت في الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب، والتي استطاع فيها هزيمة ولايات الجنوب وتوحيد البلاد مرة أخرى تحت حكومة فدرالية واحدة. وخلال تلك الحرب، تم إعلان تحرير جميع العبيد، وعندما انقضت الحرب، كانت العبودية قد ألغيت تمامًا في الولايات المتحدة بكاملها. (المترجم)

الفورية» طالبًا أن يحدد بولك بوضوح ودقة موقع الصدام بين القوات الأميركية والقوات المكسيكية.

حينها، لم يكن من المستغرب أن تتسبب الحرب في انقسامات عميقة داخل المجتمع الأميركي، والتي كان جزء منها مناطقيًا وحزبيًا. وفي خلال العملية، بلورت الحرب مع المكسيك ما سوف يصبح خاصية بارزة بشكل متزايد للعلاقات الخارجية الأميركية، ألا وهي، حركة مناهضة الحرب. بشكل عام، كان الديمقراطيون توسعيين بلا مواربة، أما المحافظون، فكثير منهم لم يكن مرتاحًا لحرب من أجل التوسع، والتي كانت أيضًا، في روحها على الأقل، حرب لمصلحة العبودية. لقد أشعلت كل من الحرب الثورية وحرب عام 1812، معارضة للحرب كذلك، إلا أنه في كلتا الحالين، جاءت المعارضة مدفوعة بحقيقة أن البعض كان لديهم شيء ليخسروه، مثل الموالين للتاج البريطاني في سبعينيات القرن الثامن عشر وتجار مقاطعة نيو إنغلاند في عام 1814. بكلمات أخرى، لم تكن معارضة الحرب قبل عام 1846 ترتكز على موقف مبدئي من أخلاقية الحرب، بل كانت خوفًا من الآثار المادية التي سوف تحدثها حرب بعينها. أما الحرب المكسيكية، فكانت مختلفة. وعلى الرغم من عدم إنتاجها لحركة شعبية، إلا أنها أشعلت معارضة واسعة النطاق ارتكزت على شعور بأن ما كانت تفعله الحكومة الفدرالية لم يكن أخلاقيًا. فجزء من معارضة الحرب مع المكسيك كان لأغراض خالصة مناهضة للحرب، وقد تميز القرن التاسع عشر ببزوغ حركة من أجل السلام تدين الحرب تحت أي ظروف. إلا أن بعض الأميركيين، مثل عضو الكونغرس، لينكولن، عارضو الحرب لأنهم اعتقدوا أن أمتهم كانت في الطرف الخاطئ.

لم تصنع هذه المشاعر القوية المناهضة للحرب، شيئًا لردع بولك، إلا أنه كان لها بعض التأثير، فللمفارقة، قامت بشحن الحرب والدبلوماسية الأميركية بحماسة خلقية خاصة وشعور بالرسالية. إن الاستثنائية لم تكن دائمًا تسير بالأميركيين في الاتجاه نفسه، فهي قد تدفع أحد الوطنيين إلى الحرب من أجل المجد القومي، إلا أنها قد تدفعه كذلك إلى الاستنتاج بأن أمته المحبوبة ضلت الطريق. فنادرًا ما كانت الحركة المناهضة للحرب في الولايات المتحدة معادية لأميركا، أي إنها

نادرًا ما كانت تنتقد الولايات المتحدة ذاتها، بل ركزت على النخب الضالة أو الفاسدة التي تخون القيم الأميركية الحقيقية. لذلك، عندما يقدم منتقدو حرب معينة - في هذه الحالة، لينكولن لحرب بولك في المكسيك - نقدًا نابعًا من الفكر الاستثنائي لأغراض الحرب وأهدافها، فإن هذا يجبر الرؤساء، والقادة الآخرين في زمن الحرب، على تبرير أفعالهم بوصفها تسعى وراء أكثر الأهداف شرفًا ونبلًا، تلك الحقيقة بأميركا وقيمها. فعند محاسبة مدبري الحرب بواسطة المقاتلين من أجل السلام، ادعوا أنهم كانوا يخوضون حروبًا لمصلحة الحضارة والتقدم، لا المجد والغزو. فالتوسع كان يُسعى إليه لخير البشرية، لا الولايات المتحدة فحسب. وعلى الرغم من أن هدفها كان إيقاف الحرب، إلا أن المثالية المناهضة للحرب دفعت الولايات المتحدة إلى وضع حروبها في صورة الحروب الصليبية الأخلاقية.

أمة تولد من جديد

لم تكن أي حرب صليبية لتفوق الحرب الأهلية عظمة، فقد بدأت بوصفها حربًا من أجل الوحدة الوطنية، إلا أنها أيضًا أصبحت أول حرب تدخُّل إنساني تخوضها الأمة. فقد بعثت قضيتان أخلاقيتان، القومية وتحرير العبيد، روح الشعور بالمصير بين الأميركيين الوحدويين. فحربهم كانت حرب خلاص - ليس خلاص الولايات المتحدة فحسب، بل خلاص العالم أجمع. فمنذ توقيع إعلان الاستقلال، رأى الأميركيون أمتهم بوصفها مستودع أحلام البشرية وطموحاتها. ولم تكن الولايات المتحدة مجرد دولة قومية، بل كانت مشروعًا أخلاقيًا ملزمًا، بالقانون الطبيعي والعناية الإلهية، بأن ينشر أنظمته المتنورة المتعلقة بالحكومة المستقلة والفرصة الفردية، إلى أقصى ما يمكن بلوغه. لذلك، ففي أعظم لحظاتها خطرًا، عندما تحرك أرستقراطيو الجنوب ملاك العبيد، نحو الانفصال عن الولايات المتحدة، قاد لينكولن الشمال إلى حرب صليبية غاضبة صالحة. فقد قال لينكولن أمام الكونغرس في عام 1862: «نقول إننا ندعو إلى الاتحاد، ولن ينسى العالم قولنا ذاك. وسوف ننقذ آخر أمل للأرض، أو نخسره بدناءة». فنضال أميركا كان أيضًا، نضال العالم، ومعه سوف يتقرر مصير آمال الأمم الأخرى في الحرية.

وعلى الرغم من وحشيتها، إلا أن الحرب الأهلية انتهت بشكل جيد بالنسبة إلى الاتحاد. فبعد بداية غير متكافئة، استطاع لينكولن وجنرالاته أن يجدوا معادلة للنصر بحلول عام 1864، وأن يخضعوا قوات الكونفدرالية في حرب استنزاف كريهة ملطخة بالدماء. واستطاع وزير الخارجية، وليام سوارد (William Seward)، بمهارته الدبلوماسية، أن يبقي كلًّا من بريطانيا وفرنسا خارج الصراع - فقد كانتا تعتمدان إلى حد ما على القطن الجنوبي، وكانتا سوف تسعدان برؤية الولايات المتحدة، تلك القوة القارية ذات القوة الكامنة الهائلة والمقلقة، وهي تنقسم إلى دولتين - وانقضت الحرب في نيسان/ أبريل 1865.

أما على سياق التطورات العالمية، لم تكن الحرب الأهلية فريدة من نوعها - في الحقيقة، لم تكن حتى غير عادية. فالثورة الصناعية التي بدأت في بريطانيا أواخر القرن الثامن عشر ومن ثم انتشرت في كل مكان، كانت، بحلول أواسط القرن التاسع عشر، قد أثارت ظاهرتين مهمتين، نمو الدولة وصعود القومية. فمن ناحية، أدت ضغوط الاقتصادات الصناعية الحديثة إلى مركزية سلطة الدولة، ومعها نمت بنى دقيقة للحكم، مثل البيروقراطيات، لتقوم بإدارة شؤون الدولة والمجتمع التي تتصاعد في تعقيدها ودقتها. ومن الناحية الأخرى، أدت ثورات سبعينيات وثمانينيات القرن الثامن عشر وصعود القوى العاملة الصناعية، إلى حركات شعبية واسعة النطاق. وكان انتشار الديمقراطية إحدى النتائج المترتبة على ذلك، وكان صعود القومية إحدى نتائجه الأخرى. وهاتان العمليتان - نمو الدولة وتحديثها وصعود القومية الشعبية - عادة ما كانتا تثيران بعضهما بعضًا لإنتاج الحرب. ذلك أنه مع تكون الأمم، أو إعادة تكوينها، فإن أهداف وقيم الدولة القومية ذاتها - الثقافة السياسية التي سوف تجمع شعبها في وحدة وطنية - تصبح متاحة للاستيلاء عليها.

بناءً على ذلك، كانت الحرب الأهلية الأميركية، إلى حد كبير، حلقة من حلقات هذا التطور العالمي الأوسع. حيث قادت الحاجة الملحة إلى التحديث، بين عامي 1861 و1871، العديد من الدول القومية الأخرى إلى إعادة اكتشاف أو تحويل ذواتها بالكلية، مثل ما حدث في ألمانيا وإيطاليا وروسيا واليابان وكندا.

إلا أنه كان هناك فرق واحد رئيس بينها وبين الولايات المتحدة، ألا وهو الحجم. فضخامة مشروع التحديث الأميركي غطى على هؤلاء جميعًا، الأمر الذي كان له عواقب هائلة في ما يتعلق بانخراط الولايات المتحدة في العالم الأوسع منذ ذلك الوقت.

لذلك، فقد كان من المناسب تمامًا أن تبدأ الحرب الأهلية أيضًا اندفاعًا كبيرًا نحو تسوية مسألة الغرب الأميركي ودمج قارة بكاملها تحت راية دولة قومية واحدة. فقد فرضت الحرب الأهلية السيادة الأميركية في الجنوب، إلا أن الجنوبيين لم يعودوا موجودين في الكونغرس لتعقيد التوسعية، وكذلك أتاحت الحرب فرصة لفعل الشيء نفسه في الغرب. وبعد أن زالت مسألة العبودية من النقاش، قام الكونغرس بسن مراسيم الحيازة الزراعية (Homestead Act) في عام 1862، التي نظمت منح ملكية ملايين الهكتارات من الأراضي الفدرالية وراء المسيسيبي، وكان الهدف هو تشجيع الأميركيين البيض على الهجرة غربًا والاستيطان في الأرض. وكان عليهم أولًا الوصول إلى هناك، والتفاعل مع باقي الأمة حال وصولهم. لذلك، شهدت السنة التالية بداية إنشاء سكة حديد الترانسكونتنتال (أي العابرة للقارة)، التي سوف تربط كاليفورنيا بالغرب الأوسط، وبالتالي، بالأسواق في الشرق.

بيد أنه، مرة أخرى، لم يكن الأميركيون ينتقلون إلى أرض خالية بكر. فقد أثارت الحرب الأهلية الحلقة الأخيرة من حروب أميركا الهندية الممتدة منذ زمن طويل، وأثبت اندفاعها نحو الغرب أنه لا يقل عنفًا عن حملاتها في الجنوب. وبدأت سلسلة من الصراعات المتداخلة، الممتدة عبر قرابة الأربعة عقود، من عام 1857 بحرب يوتاه، والتي تبعتها حرب داكوتا في مينيسوتا (1862)، وحرب كولورادو (1863-1865)، وحرب البلاك هوك في يوتاه (1865-1872)، وحرب الغيمة الحمراء في مونتانا ووايومنغ (1866-1868)، وحرب سيوكس العظمى في مونتانا وداكوتا الجنوبية (1876-1877)، التي اشتهرت بمعركة ليتل بيغهورن (Little Bighorn). وأسفرت هذه الحروب، باستثناء هزيمة الجنرال جورج كاستر (George Custer) المذلة في ليتل بيغهورن، عن انتصار غير متناسب

تلو آخر للولايات المتحدة وشبه التدمير الكامل والإزاحة القسرية لقبائل الهنود الأميركيين. وربما كانت أكثر تلك الحوادث سفورًا هي مذبحة ساند كريك، التي وقعت في شهر تشرين الثاني/ نوفمبر 1864 (في ولاية كولورادو الحالية، بالقرب من الحدود مع ولاية كانساس)، إلا أن تلك المآسي لم تكن غير عادية. فقد اشتعلت معارك أخرى أصغر في طول الغرب وعرضه، بينما أفلت عقال الاستعمارية الاستيطانية عبر القارة، حيث قام الأميركيون بالزراعة والتعدين واستصلاح الغابات، وبدأت شركات السكك الحديد تربط الأمة سوية برباط أوثق من ذي قبل. وبدأت الحروب الهندية تقترب إلى نهايتها مع سن قانون داوز (Dawes Act) في عام 1887، الذي وضع برنامجًا لتنظيم شؤون الهنود واستيعابهم النهائي. أما آخر المعارك الكبرى فوقعت في حرب غوست دانس (أي رقصة الشبح) في داكوتا الجنوبية بين عامي 1890 و1891، التي اشتهرت بمذبحة وُوندد ني (أي الركبة الجريحة).

وأصبحت هذه الصراعات المتوازية للاتحاد والتكامل القومي، ضد الكونفدرالية في الجنوب والهنود الأميركيين في الغرب، المنصة التي انطلقت منها الولايات المتحدة إلى جولتها التوسعية التالية، الأكثر طموحًا على الإطلاق، ألا وهي القوة العالمية.

الفصل الثالث

أميركا العالمية

أصبحت الولايات المتحدة، بحلول نهاية القرن التاسع عشر، القوة الاقتصادية الأكثر تفوقًا في العالم. فقد تخطى إنتاجها الصناعي جميع خصومها الأوروبيين - بل تخطى أوروبا كلها مجتمعة تقريبًا - وبات قطاعها المالي على وشك تخطي القطاع المالي لبريطانيا العظمى. وكانت الولايات المتحدة القارية، تلك التي تم ربطها بشبكة واسعة من السكك الحديد وخطوط التليغراف، تمثل سوقًا داخلية هائلة متماسكة تكاد تلبي جميع حاجات الأمة الاقتصادية. فقد كانت هناك وفرة في الموارد الطبيعية، والأراضي الصالحة للزراعة، ووفر العديد من الموانئ على محيطين وعلى خليج المكسيك روابط رئيسة مع الأسواق العالمية، وكان الحصول على رؤوس الأموال من البنوك الأميركية سهلًا ميسورًا. وعلى الرغم من تدفق الصادرات والواردات، كانت البلاد مبدئيًا، تتمتع بالكفاية الاقتصادية الذاتية.

بيد أنه، بالنسبة إلى بلد بمثل هذا العظم والثروة، كانت الولايات المتحدة، بحلول عام 1890، في وضع غريب. فقد كانت عملاقًا اقتصاديًا، قزمًا دبلوماسيًا وعسكريًا. وكان الأميركيون لاعبين صغارًا على الساحة العالمية إذا ما قورنوا بقوى أوروبا العظمى أو اليابان. وكان للولايات المتحدة تأثير محدود في الشؤون العالمية خارج نصف الكرة الغربي. وكان كل ذلك يوشك أن يتغير.

بالطبع، لم يكن الأميركيون قط محجمين عن الترحال خارج حدودهم. فعندما كانت تتطلب الأحوال، كانوا يقدمون بكل ترحاب على الاشتباك مع العالم الخارجي، بما في ذلك الانخراط السياسي والتدخل العسكري. ولا يعني ذلك أن وجود الأميركيين في العالم كان قليلًا، بل كان هناك آلاف التجار والمبشرين والرحالة الآخرين يجوبون العالم ويعيشون في الخارج ويعملون بوصفهم سفراء غير رسميين للولايات المتحدة إلى باقي العالم. والأهم من ذلك، كان تدفق المهاجرين إلى الولايات المتحدة، تلك الموجة التي بلغت مستويات هائلة

بحلول نهاية القرن. وقد بقي العديد من هؤلاء المهاجرين في موطنهم الجديد إلى نهاية حياتهم، إلا أن عددًا لا بأس به منهم إما عادوا إلى بلادهم الأصلية، أو ظلوا يروحون ويجيئون. ومثلت هذه الملايين من البشر، سواءً من بقوا أو من رحلوا، جسورًا تربط أميركا بالعالم.

تسارعت العملية، التي نطلق عليها الآن العولمة، في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر. فقد ازدادت التدفقات الدولية للسلع والبشر والأفكار ورؤوس الأموال، في التواتر والشدة والتمدد، وأصبح العالم مترابطًا أكثر من أي وقت مضى. ولم تكن الولايات المتحدة في مركز العولمة، فقد احتلت الإمبراطورية البريطانية ذلك الموقع، حيث مثل أسطولها الملكي ومدينة لندن والمراكز الصناعية الكبرى في المقاطعات الوسطى والشمالية، محركات هذه الإمبراطورية - إلا أنها كانت، أي الولايات المتحدة، إلى حد بعيد، جزءًا لا يتجزأ من هذه الروابط العالمية التي تم تشكيلها في الفترة ما بين الحرب الأهلية والحرب العالمية الأولى.

وبحلول عام 1900، كان العالم قد أصبح مترابطًا إلى حد بعيد، بفضل التقدم التكنولوجي، إلا أنه أيضًا صار يعتمد بعضه على بعض - أي إن ما يحدث في منطقة ما يؤثر على ما يحدث في منطقة أخرى، حتى وإن لم يكن هناك علاقات سابقة بينهما. أحد الأمثلة على ذلك، والذي أزعج المسؤولين الأميركيين بشكل خاص، كان عندما تسامحت روسيا القيصرية مع المذابح المدبرة ضد اليهود في ريفها، الأمر الذي دفع اليهود الروس إلى الفرار بشكل جماعي إلى الولايات المتحدة، حيث إنها كانت البلد الوحيد الذي يمكنه أن يوفر لهم وظائف سهلة وملاذًا آمنًا. ونتيجة ذلك، أصبح لدى الأميركيين وعي أكبر بدورهم بوصفهم مواطنين في العالم. وقد وصف هذا الوضع الزعيم التبشيري جوزيه سترونغ[1]، بقوله إن العولمة جعلت «العالم كله جوار واحد والبشر كلهم جيران».

---

(1) جوزيه سترونغ (Josiah Strong) (1847-1916): هو رجل دين ومبشر وكاتب بروتستانتي أميركي، اشتهر بنشاطه التبشيري العالمي الكبير وبكتابه *Our Country* (بلدنا) الذي كتبه في عام 1885 وانتشر انتشارًا واسعًا، وفيه يروج لفكرة تفوق العرق الأنكلوسكسوني على باقي أعراق العالم الهمجية من وجهة نظره، وهي التي يجب على العرق المتفوق تحويلها إلى المسيحية لكي تتمدن وتتحضر. (المترجم)

عام 1898 وأشياء أخرى

بيد أن الروابط العابرة للقوميات غير الرسمية بين الشعوب، واختطاط القوة الدولية، ليسا الشيء نفسه. وحتى الأعوام الأخيرة للقرن التاسع عشر، كانت السياسة الخارجية للولايات المتحدة شأنًا أكثر رزانة. فقد كان الجيش الأميركي صغيرًا بشكل غير عادي بالنسبة إلى قوة صاعدة، خاصة إذا كان لها مثل هذا التعداد السكاني وهذا الاقتصاد الكبيرين. وكانت البعثة الخارجية قليلة الخبرة تفتقر إلى العدد الكافي من الموظفين. وكان سبب هذا الإهمال لزمام القوة الدولية بسيطًا، فحتى تسعينيات القرن التاسع عشر، لم تكن الحاجة إلى التدخل السياسي والعسكري في أوروبا وآسيا أمرًا بديهيًا، وكانت متطلبات الدفاع عن النفس داخل القارة في أدنى مستوياتها. أما من الناحية الاقتصادية، فكانت السوق الداخلية هائلة، وبالتالي مكتفية.

اختفت هذه الطمأنينة السهلة فجأة بسبب اشتعال أزمة في كوبا، المستعمرة الإسبانية – وللغرابة، فإن هذا النزاع الذي نشب على أعتاب أميركا، خلق الأوضاع التي أهلتها لتصبح قوة عالمية ذات أهمية حقيقية. فقد اشتعلت قضية الاستقلال الكوبي في بداية تسعينيات القرن التاسع عشر، عندما كانت إسبانيا تمر بمرحلة صعبة بشكل خاص في تاريخها، إلا أنها كانت مستميتة في الحفاظ على أحد آخر كنوزها الإمبريالية. وبدأ القتال في شتاء عام 1895 . في البداية، استطاع المتمردون الكوبيون تحقيق بعض المكاسب، إلا أنهم واجهوا هجومًا مضادًا إسبانيًا وحشيًا، تضمن القبض القسري على غير المقاتلين واحتجازهم في معسكرات اعتقال، أو الكونسنترادوس (*concentrados*)، وهو أول استخدام لمصطلح معسكرات الاعتقال (concentration camps) الحديثة. كان الاحتجاج على هذه الكارثة الإنسانية، في الولايات المتحدة، عاطفيًا وصاخبًا، وكان السبب وراء ذلك، في جزء منه، هو أن هذه الفظائع بدت جديدة (مع أنها لم تكن كذلك، فقد لجأ الجيش الأميركي إلى مثل هذه التكتيكات الوحشية في أثناء الحروب الأميركية الهندية)، أما السبب الآخر فكان الثوار الكوبيين، الذين كان يعيش كثير منهم لاجئين في نيويورك، وشنوا حملة علاقات عامة ألمعية للفوز بالدعم الأميركي. وكانت الصحف

الأميركية، خاصة صحافة نيويورك «الصفراء» السيئة السمعة، شديدة الترحاب بتهويل الفظائع الإسبانية. وبحلول عام 1898، أصبح الأميركيون داعمين بشكل متزايد للتدخل المباشر في حرب الاستقلال الكوبية.

الصورة (3-1)



كانت الحرب ضد إسبانيا في كوبا أول صراع خارجي يُنظر فيه إلى التدخل الأميركي بوصفه تدخلًا إنسانيًا بالأساس. ففي تلك الرسمة المأخوذة من صحيفة باك (*Puck*) الصادرة في نيويورك، والتي تحمل العنوان الدقيق «الأمس والآن» يظهر التضاد بين الفظاعات التي ارتكبها الجنود الإسبان من ناحية، والخيرية التي تتمتع بها الولايات المتحدة من الناحية الأخرى.

أما الرئيس وليام ماكينلي[2]، المحارب القديم في الحرب الأهلية، والذي كان قد اكتفى من رؤية دماء تسفك في حياته، فلم يكن متحمسًا للتدخل في كوبا، إلا أنه مع تصاعد الغضب الشعبي تجاه الإسبان، شعر أنه لا خيار لديه. وفي شهر

(2) وليام ماكينلي (William McKinley) (1843-1901): محام وسياسي والرئيس الخامس والعشرون للولايات المتحدة الأميركية. كانت رئاسته حافلة، فقد شهدت التدخل الأميركي في حرب الاستقلال الكوبية وفرض الجمارك لحماية الصناعة الأميركية وإبقاء أميركا على عيار الذهب. وقد اغتيل في عام 1901 خلال فترة رئاسته الثانية. (المترجم)

كانون الثاني/ يناير 1898، أرسل سفينة الحرب الأميركية، الـ مين (*the Maine*)، إلى ميناء هافانا لمراقبة الوضع الذي يزداد سوءًا على الشاطئ. بعدها ببضعة أسابيع، انفجرت السفينة بينما كانت لا تزال رابضة. ألقت الصحافة الصفراء وأعضاء الكونغرس اللوم على الإسبان، على الرغم من أن السبب كان على الأرجح حريقًا نشب بالخطأ في موضع رباط السفينة. كان ماكينلي لا يزال غير متحمس، إلا أنه لم يكن يستطيع المقاومة أكثر من ذلك. فكما أوضحت كريستين هوغنسون[3]، كانت العقد المتعلقة بالرجولة مرتفعة في تلك الحقبة، وكان المسؤولون العموميون يخشون الظهور بمظهر الضعف و«الجبن غير الحقيق بالرجولة». وعلى ذلك، أعلن الكونغرس الحرب على إسبانيا في شهر نيسان/ أبريل 1898.

ولم يلبث القتال أن اشتعل من قريب. فحاصر الأسطول الأميركي موانئ كل من كوبا وبورتوريكو وقام بقصف المواقع الإسبانية على تلك الجزر في أيار/ مايو. ونزلت القوات الأميركية في كوبا في شهر حزيران/ يونيو، ثم في بورتوريكو في شهر تموز/ يوليو، مدعومة إلى حد بعيد بالمقاتلين الكوبيين المناهضين للاستعمار، حيث استطاعت السيطرة على كلتا الجزيرتين في غضون أسابيع. وفي غضون ثلاثة أشهر من إعلان الحرب، كانت إسبانيا قد أزيلت تمامًا بوصفها قوة إمبراطورية في نصف الكرة الغربي. إلا أنه كان هناك مسرح آخر لهذه الحرب، في المحيط الهادئ، حيث كانت إسبانيا لا تزال تحتفظ ببعض الممتلكات الاستعمارية. فما أعلنت الولايات المتحدة الحرب، حتى أبحرت سفنها من مقرها الموقت في المحيط الهادئ في هونغ كونغ إلى مانيلا، حيث هزمت الأسطول الإسباني. وأحضر الأسطول الأميركي معه إميليو أغينالدو[4]، الزعيم

---

(3) كريستين هوغنسون (Kristin Hoganson): مؤرخة أميركية متخصصة في التاريخ الأميركي والعلاقات الخارجية الأميركية، أستاذة التاريخ بجامعة إيلينوي وهي رئيسة جمعية مؤرخي العلاقات الخارجية الأميركية. آخر كتبها نشر في عام 2019 تحت عنوان **الأرض الوسط: تاريخ أميركا** (*The Heartland: An American History*). (المترجم)

(4) إميليو أغينالدو (Emilio Aguinaldo) (1869-1964): جنرال فلبيني وسياسي وزعيم استقلال شارك بدور أساسي في الثورة في الفلبين ضد إسبانيا، والحرب الفلبينية - الأمريكية وأيضًا قاوم الاحتلال الأميركي في بلاده. (المترجم)

المنفي لحركة التحرر الفلبينية المناهضة للإسبان، الذي دخل إلى مانيلا وجمع قواته وأعلن استقلال الفلبين. ومن ثم هزمت قوات أغينالدو الإسبان في سلسلة من المعارك بين شهري حزيران/ يونيو وتموز/ يوليو، وفي شهر آب/ أغسطس غزا الجنود الأميركيون مانيلا، عاصمة الفلبين.

لذلك، أطلق وزير الخارجية جون هاي[5]، على هذه الحرب «الحرب القصيرة البديعة»، حيث استطاعت الولايات المتحدة، في أقل من مئة يوم، طرد قوة استعمارية أوروبية في مسرحين مختلفين على طول جبهتين عبر-قاريتين. وكان عدد ضحايا المعارك الأميركيين تافهًا - ليس أكثر من ثلاثمئة فقط - بالمقارنة مع مذبحة الحرب الأهلية، التي كانت لا تزال في الذاكرة، اقتنع العديد من الناس أن مكانة القوة العظمى سوف تكون سهلة المنال. وأسفرت معاهدة باريس، التي وقعت عليها كل من مدريد وواشنطن في شهر كانون الأول/ ديسمبر، عن استقلال كوبا وانتقال السيادة على كل من الفلبين وغوام وبورتوريكو إلى الولايات المتحدة، بينما تلقت إسبانيا عشرين مليون دولار، في المقابل.

بينت معارك عام 1898 أن الولايات المتحدة سوف تصبح قوة عالمية سياسية وعسكرية، وأن مجالات تأثيرها الأهم على الصعيد الإقليمي سوف تتضمن كلًّا من الكاريبي والمحيط الهادئ، بجانب قارة أميركا الشمالية. ففي العصر الأول للعولمة، لم يكن التركيز على المناطق البحرية محض مصادفة. لقد ركز الاستراتيجيون الأميركيون على الطريقين البحريين المهمين باتجاه أميركا الشمالية، فإن كان باستطاعتهم السيطرة عليهما، فقد ضمنوا أمن ورخاء الولايات المتحدة، وتمكن الملاحة الأميركية، التجارية والعسكرية على حد سواء، من اختراق أوروبا وآسيا وأفريقيا، بسهولة.

---

(5) جون هاي (John Hay) (1838-1905): رجل دولة ومسؤول أميركي امتدت مسيرته السياسية لما يقرب من نصف قرن. بدأ عمله سكرتيرًا خاصًا ومساعدًا للرئيس أبراهام لينكولن. أرفع منصب وصل إليه هو وزير الخارجية في زمن رئاسة وليام ماكينلي وتيودور روزفلت. وكان هاي أيضًا مؤلفًا وكاتب سير، وكتب الشعر وأشكال الأدب الأخرى طوال حياته. (المترجم)

قدم ألفريد ثاير ماهان[6]، ضابط العلَم ذو الخدمة غير المميزة بالبحرية، ولكن صاحب المعرفة والذكاء الواسعين، المنطق الاستراتيجي لهذه الانطلاقة الجديدة. فقد حاجج ماهان أن القوى الكبرى الحقيقية في التاريخ كانت قوية في البحر. وكانت القوة البحرية أيضًا متوافقة مع الديمقراطية، فهي تقود الدول لبناء أساطيلها البحرية والتجارية، الأمر الذي يسهل التجارة، بدلًا من الاحتفاظ بجيوش دائمة كبيرة، التي تمثل أحد المصادر المحتملة للسلطة السياسية الأوتوقراطية في الوطن. وكانت الولايات المتحدة في موضع مثالي يسمح لها بأن تصبح قوة بحرية هائلة، فهي ضامنة لأمنها في مواجهة الأعداء الخارجيين، وتمتد سواحلها على طول محيطين وأحد أكبر بحار العالم وتمتلك ثقافة سياسية جمهورية. وقد قطعت السيطرة الأميركية على كوبا والفلبين، شوطًا كبيرًا في تحقيق رؤية ماهان.

بيد أن حرب عام 1898 لم تكن «بديعة» بالنسبة إلى البعض. فقد كانت بالطبع تمثل كارثة تامة للإسبان الذين أذلوا، لكنها لم تعد بالنفع الكثير على بعض المنتصرين كذلك. فبالنسبة إلى مقاتلي الحرية الكوبيين والفلبينيين، كانت نتيجة الحرب عسلًا مرًّا، على أفضل تقدير. فنضالهم من أجل الاستقلال الوطني لم يسفر إلا عن شكل آخر من أشكال الحكم الاستعماري. كانت هذه هي الحال رسميًا بالنسبة إلى الفلبين، التي تم «ضمها» بواسطة الولايات المتحدة، إلا أنها كانت كذلك فعليًا بالنسبة إلى كوبا التي كانت مستقلة، ولكن محتلة ومحكومة، في كل شيء إلا الاسم، بواسطة الولايات المتحدة. وقد كان من المفترض أن تتقاعد حركة التحرر الكوبية (*Cuba Libre*) في عام 1898، بصفتها تعبيرًا عن الاستقلال من الاستعمار، إلا أنها بدلًا من ذلك، أصبحت صيحة نضال للأجيال المستقبلية من الكوبيين ذات آثار جانبية لكل من يهمه الأمر، بمن في ذلك الأميركيون.

أما أغينالدو، فمع تدمير هدفه بفلبين تحكم نفسها بحق، بدأ مع قواته تمردًا

(6) ألفريد ثاير ماهان (Alfred Thayer Mahan) (1840–1914): ضابط بحرية ومؤرخ أميركي وأحد أهم منظّري الاستراتيجيا البحرية في التاريخ. سيطرت نظريته الاستراتيجية البحرية على الفكر الاستراتيجي الأميركي لعقود، وما زال لها أثر كبير في الفكر الاستراتيجي البحري العالمي. ويعد كتابه *The Influence of Sea Power upon History (1660-1783)* (**تأثير القوة البحرية في التاريخ بين عامي (1660–1783)**) أهم أعماله. (المترجم)

جديدًا ضد الاستعمار، ولكن في مواجهة الحليف السابق، الولايات المتحدة، هذه المرة. بدأت الحرب الفلبينية الأميركية عام 1899، بعد أن بات واضحًا أنه لن يتم منح الفلبينيين استقلالهم. أسر أغينالدو في عام 1901، وعلى الرغم من استمرار التمرد من دون قيادته، إلا أنه تلاشى في العام التالي (على الرغم من صمود بعض جيوب للمقاومة لسنوات).

على الرغم من أن النسيان قد طوى حرب الفلبين، إلا أنها كانت نقطة فارقة في التاريخ الدبلوماسي للولايات المتحدة لأسباب ثلاثة. فقد كانت **الأولى** بين عدد من «الحروب الصغيرة» لمقاومة التمرد التي سوف يخوضها جيش الولايات المتحدة على مدار القرن التالي وأكثر. فمن ناحية التكنولوجيا العسكرية والأسلحة الثقيلة والقوة البحرية، لم تكن قوات أغينالدو لتجاري الأميركيين. لذلك فعلوا ما يفعله الكثير من القوات الضعيفة ظاهريًا، استغلال نقاط قوتها، مهما بلغ تواضعها. وعلى ذلك، شن أغينالدو تمردًا اعتمد فيه على المفاجأة والحركة، والدعم الشعبي للسكان المحليين بالطبع. دفع ذلك القوات الأميركية لاستغلال نقاط قوتها، ألا وهي قوة النيران الساحقة. وكانت النتيجة هي الانتصار النهائي – أو قمع مقاومة الاستعمار في الأقل – ولكن على حساب أكثر من أربعة آلاف قتيل أميركي قضوا في أثناء القتال و250,000 قتيل فلبيني في الأقل، غالبيتهم من المدنيين. وكانت الحرب جدلية بشدة، فكثير من الأميركيين لم يستطع تقبل فكرة الحرب من أجل بناء إمبراطورية – فقد ولدت بلادهم، قبل أي شيء، على إثر ثورة ضد الاستعمار – كذلك، شعر العديد من الناس بالفزع من التكتيكات الوحشية التي استخدمتها القوات الأميركية خلال محاولتها قمع التمرد. حيث كان التكتيك الأكثر بشاعة هو ما سمي بـ «العلاج بالماء»، الذي تضمن إجبار، أحد أسرى المقاتلين القوميين، على شرب الماء حتى يبوح بما يعرف أو تنفجر معدته. ولذلك، شكل معارضو الحرب في الداخل رابطة مناهضة الإمبريالية ونظموا تظاهرات وتقدموا بالتماسات وعقدوا جلسات استماع بالكونغرس.

ثانيًا، كانت هذه أولى غزوات أميركا الجدية في آسيا. لاحقًا، خاضت الولايات المتحدة ثلاث حروب أكبر بكثير ضد اليابان، وفي كل من كوريا وفيتنام، وبعدها سوف تأتي حروب أميركا الأطول في كل من أفغانستان والعراق. لم تشكِّل

هذه الحروب الخمس على حدة، ولكن مجمعة أيضًا وبشكل خاص، التاريخ العسكري الأميركي فحسب، بل شكلت التاريخ الأميركي على المستوى الأكبر. وإذا كان هناك نقطة بداية لما سمي بـ «القرن الآسيوي» لأميركا، فقد كانت في الفلبين. وفي أعقاب الحرب، أصدر هاي مذكرات الباب المفتوح لعامي 1899 و1900، والتي حذرت القوى المنافسة من استعمار الصين أو إغلاق سوقها أمام التجارة الخارجية. وقد ظل إبقاء الباب مفتوحًا إلى شرق آسيا هدفًا أميركيًا رئيسًا حتى يوم الناس هذا.

ثالثًا، مثلت الحرب الفلبينية منعطفًا رئيسًا في سجل أميركا، غير المنتظم، في نشر قيمها حول العالم. فجميع الدول القوية تبرر - بشكل مخلص غالبًا - فرض قوتها ونفوذها، باستدعاء المثل والقيم، ولكن القليل منها التزمت نشر القيم والأخلاق مثل الولايات المتحدة. إلا أنه، ولفترة طويلة، كان التزام القيم الأميركية يعني الابتعاد من باقي العالم - ليس بالانعزال، بالطبع، وإنما بعدم شن حروب صليبية خارجية لفرض الدين على الآخرين. ومع صعود العولمة في العقود القليلة الأخيرة للقرن التاسع عشر، بدأت النظرة الأميركية إلى العالم بالتغير. فقد بدا أنه لم يعد من الممكن تقسيم العالم إلى مجالات تأثير منفصلة، كما الحال في عقيدة مونرو. لذلك، إذا كان الأميركيون سوف ينخرطون في العالم، فسوف يكون عليهم فعل ذلك من طريق الترويج لقيمهم الخاصة. وكان ما سيسمى قريبًا بـ «حق تقرير المصير»، أحد أكثر هذه المثل التي لاقت ترحيبًا، وهو ما يفسر، جزئيًا، ما الذي جذب الأميركيين، أصلًا، إلى قضية القوميين الكوبيين والفلبينيين المناهضة للاستعمار. إلا أن نتيجة الحرب بينت كذلك حدود المثل عندما تتعارض مباشرة مع المصالح القومية والتحيزات العرقية. فقد اعتقد ماكينلي أن الفلبينيين كانوا عاجزين عن الحكم الذاتي، وأنه إن لم يحتفظ بالفلبين، فسوف تحوزها قوة كبرى أخرى - غالبًا ألمانيا، وربما بريطانيا أو فرنسا أو اليابان - لنفسها. لقد أدرك الهنود الأميركيون جيدًا عدم التزام الأميركيين وعودَهم المتعلقة باحترام حق الآخرين في حكم أنفسهم، إلا أن حالتي كوبا والفلبين ميزتا انطلاقة جديدة في إدارة الدولة الأميركية، بوصفهما أول حوادث هذه الدينامية خارجيًا، ولن تكون الأخيرة.

أميركا في الحرب العالمية

أنعشت الحرب الدور العالمي النشط المتنامي للولايات المتحدة. فمع تعمق العولمة، اتسعت أعمال أميركا الدولية. وكانت هناك حدود للتأثير الدولي على أميركا. فقد كانت أميركا مكتفية ذاتيًا من الناحية الاقتصادية، وانفردت بذلك بين غيرها من القوى الكبرى، غير معتمدة على واردات من المواد الغذائية أو المواد الخام، ولا على صادرات تدعم حياتها الاقتصادية. إلا أن ذلك لم يمنع الأميركيين من إقحام أنفسهم في شؤون العالم السياسية والعسكرية والثقافية والاقتصادية، أكثر من أي وقت مضى.

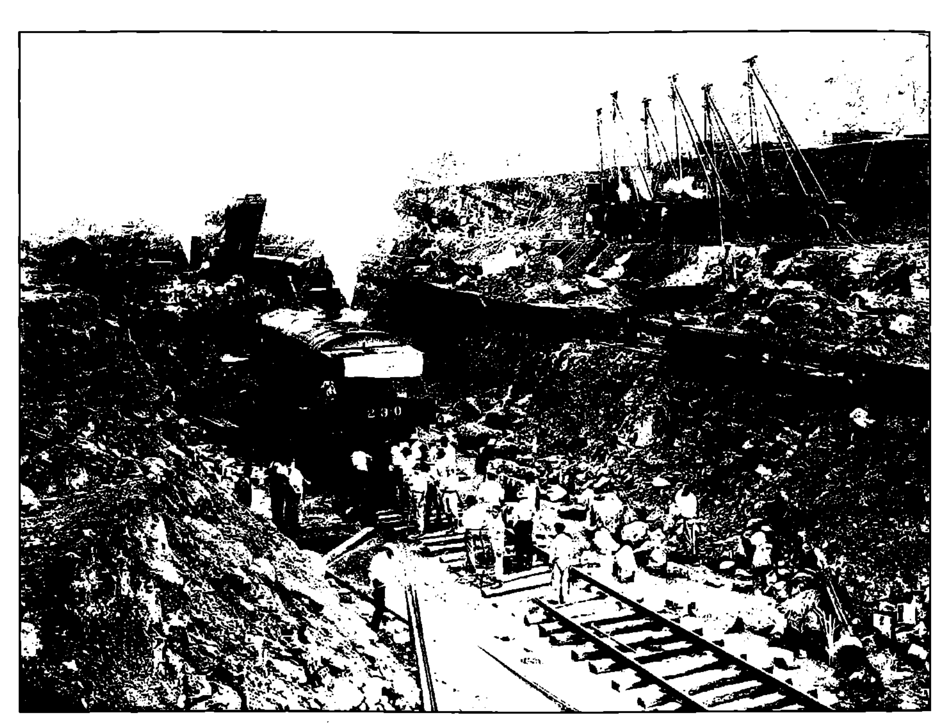
وفي عام 1858، أتاح أول كابل عابر للمحيط الأطلسي التواصل اللحظي بين الولايات المتحدة وأوروبا. وفي عام 1869، ربطت قناة السويس البحر المتوسط بالبحر الأحمر، الأمر الذي سمح للسفن بالعبور بسهولة بين المحيطين الأطلسي والهندي، من دون الحاجة إلى الالتفاف حول أفريقيا. وقامت أميركا بتقليد هذا الإنجاز الفرنسي، بين عامي 1903 و1914، بإنشاء قناة بنما، متمة ما كان بالأساس طريقًا بحريًا عابرًا للقارات والمحيطات يلف العالم بأسره. وربطت السكك الحديد العابرة للقارات، التي اكتمل إنشاؤها في الولايات المتحدة في عام 1869، وفي كندا عام 1885، وفي روسيا عام 1916، الترحال العالمي بالتجارة بشكل أكثر قوة. كذلك أتاحت الروابط الملاحية وسكك الحديد التوسع الزراعي، حيث أصبح بإمكان المزارع نقل منتوجاتها إلى أسواق بعيدة. وقد تحملت مدينة لندن، المركز المالي للعالم قبل الحرب العالمية الأولى، تمويل معظم هذه التطورات في الولايات المتحدة، إلا أن رؤوس الأموال تدفقت كذلك من وول ستريت[7]، ومن بنوك بوسطن وسان فرانسيسكو.

لم يساعد الأميركيون في تشكيل العولمة فحسب، بل شُكلوا بها أيضًا بعمق. وكان المثال الأكثر وضوحًا هو كيف أدى الازدهار الصناعي غير المسبوق في

(7) وول ستريت: شارع المال والأعمال في مدينة نيويورك، وتوجد به مقرات أكبر البنوك والمؤسسات المالية العالمية، وهو مركز العالم المالي والتجاري اليوم. (المترجم)

أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، الذي عرف بعصر الآلات، إلى تصاعد الطلب على العمال في المصانع الأميركية. وقد هاجر نحو عشرين مليون «مهاجر جديد»، بين الحرب الأهلية والحرب العالمية الأولى، إلى الولايات المتحدة من جنوب وشرق أوروبا، مدفوعين بالفقر والاضطهاد الديني في أوطانهم. وقد كانوا «جددًا» لأنهم أتوا من بلاد لم تكن قد أرسلت الكثر من المهاجرين إلى الولايات المتحدة من قبل، وجلبوا معهم لغات (الإيطالية والبولندية واليونانية والسويدية والنرويجية والروسية واليديشية والصينية واليابانية وغيرها) وأديان (الكاثوليكية والمسيحية الأرثوذكسية واللوثرية واليهودية الأرثوذكسية والبوذية والكونفوشيوسية) لم يكن لها وجود ذا بال في المجتمع الأميركي من قبل.

الصورة (3-2)



يشق العمال الطريق الذي سوف يكون المعبر المائي لقناة بنما. كانت ظروف العمل قاسية، ومات الآلاف، إلا أن القناة كانت إنجازًا هندسيًا كبيرًا كان له أن يحفز عملية العولمة.

إلا أنهم احتفظوا بروابط سياسية مع بلادهم الأصلية، وبذلك وسعوا اختصاص السياسة الخارجية للولايات المتحدة في أثناء هذه العملية.

وبعد إصدار مذكرات الباب المفتوح، التي أسست لمبدأ النظام الدولي المبني على الانفتاح، كان الأميركيون يؤدون كذلك دورًا أكثر نشاطًا في الحرب والدبلوماسية الدوليتين. ففي عام 1905، توسط الرئيس ثيودور روزفلت[8] في إنهاء الحرب اليابانية الروسية[9]. كذلك بدأ روزفلت، بوصفه أحد تلامذة الاستراتيجيا الماهانية، برنامجًا طموحًا لبناء الأسطول، والذي تكلل بإبحار «الأسطول الأميركي الأبيض الكبير» حول العالم بين عامي 1907 و1908. وواصل خلفه، وليام هاورد تافت[10]، هذه التوجهات، في الجمع بين القوتين البحرية والتجارية، بسياسته المسماة «دبلوماسية الدولار» التي تشترك بموجبها حكومة الولايات المتحدة مع المصالح الخاصة للتأثير في نمو البلاد الأخرى - كبناء السكك الحديد في الصين، على سبيل المثال - الأمر الذي من شأنه أن يمنح السياسة الخارجية للولايات المتحدة نفوذًا دوليًا أكبر أيضًا. وعلى الرغم من أن دبلوماسية الدولار أسفرت عن نتائج متفاوتة على المدى القصير، إلا أنها أشارت إلى طريق للأمام يسير فيه صانعو السياسة الخارجية الأميركية لحشد قوة أمتهم الاقتصادية المتنامية.

كانت الولايات المتحدة قد أصبحت دولة عظيمة القوة عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى في أوروبا. فقد تخطى اقتصادها الصناعي أوروبا بكاملها،

---

(8) ثيودور روزفلت (Theodore Roosevelt) (1858-1919): رجل دولة وكاتب ومؤرخ والرئيس السادس والعشرون للولايات المتحدة الأميركية من 1901 إلى 1909 وقاد في أثناء رئاسته حملة ضد احتكارات الشركات الكبرى. وتولى قبلها منصب حاكم ولاية نيويورك وكان أحد قادة الحزب الجمهوري. وأصبح أحد أربعة رؤساء نحتت وجوههم على نصب جبل راشمور التذكاري الشهير. (المترجم)

(9) الحرب اليابانية الروسية: حرب قامت بين روسيا واليابان بين عامي 1904 و1905 إثر صراعهما على إقليم منشوريا وسعي روسيا إلى امتلاك منفذ بحري على البحار الدافئة. (المترجم)

(10) وليام هاورد تافت (William Howard Taft) (1857-1930): محام وسياسي أميركي شغل منصب الرئيس السابع والعشرين للولايات المتحدة ورئيس المحكمة العليا للولايات المتحدة (1921-1930)، وهو الشخص الوحيد الذي شغل كلا المنصبين. وقد تولى منصب الرئيس لفترة رئاسية واحدة بين عامي 1909-1913. (المترجم)

وأصبحت مواردها المالية تحتل المرتبة الثانية في العالم، لا تفوقها إلا الموارد المالية لبريطانيا. أما قوتها العسكرية، التي كانت لا تزال صغيرة في ثمانينيات القرن التاسع عشر، فقد بدأت تصبح أكثر قوة، خاصة الأسطول. والأكثر من ذلك، كان واضحًا أن قوة أميركا الصناعية والمالية سوف تسمح لها بتوسيع قدراتها العسكرية في الحال. وبحلول عام 1914، لم تكن الولايات المتحدة القوة العظمى البارزة في العالم - فقد كانت بريطانيا لا تزال تحتل هذه المكانة، تتبعها من قرب ألمانيا وفرنسا، وربما روسيا واليابان - ولكنها كانت من بين الأقوى عالميًا، وكانت القوة المسيطرة في الأميركتين.

أدى اندلاع الحرب في صيف عام 1914، إلى مسارعة هذه التوجهات بشكل غير متوقع. فقد أسفرت الحرب عن انهيار قوة أوروبا وخلقت ظروف النمو المتعاظم لقوة أميركا. فمن الخنادق في بلجيكا وفرنسا، إلى الجبهات في شمال إيطاليا، والأوضاع القاسية للجبهة الشرقية بين ألمانيا وروسيا، والمعارك ضد الحكم العثماني في تركيا والشرق الأوسط، دمرت الحرب أوروبا - ماديًا واقتصاديًا ونفسيًا. في المقابل، كانت الأمور تسير بشكل جيد جدًا بالنسبة إلى الولايات المتحدة. فقد ازدهرت التجارة مع أوروبا، خاصة حلفاء بريطانيا وفرنسا، حيث كانت الأمم المتحاربة في أمس الحاجة إلى السلع التي لم تستطع إنتاجها بنفسها، في الأقل ليس بالتكلفة المنخفضة والكفاءة العالية للصناعة الأميركية. ومع تطاول زمن الحرب وارتفاع تكاليفها بشكل أكبر بكثير مما توقعته بريطانيا وفرنسا، قامتا كلتاهما باقتراض أموال هائلة من البنوك الأميركية، وفي عام 1916، تخطت نيويورك لندن بوصفها مركز العالم المالي.

تمتعت الولايات المتحدة بهذا الموقع المتميز لأنها بقيت محايدة رسميًا، عندما اندلع القتال في عام 1914. وكان الرئيس وودرو ويلسون[11] عازمًا على

(11) وودرو ويلسون (Woodrow Wilson) (1856-1924): أكاديمي وسياسي أميركي، شغل منصب الرئيس الثامن والعشرين للولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1913 و1921. كان أحد أعضاء الحزب الديمقراطي وشغل منصبي رئيس جامعة برينستون وحاكم ولاية نيوجيرسي. قاد الولايات المتحدة خلال الحرب العالمية الأولى وهو صاحب فكرة إنشاء عصبة الأمم في أعقاب الحرب. (المترجم)

عدم إقحام الأمة في الحرب - حيث قال إن الأميركيين لابد أن يكونوا «محايدين في الحقيقة والاسم على حد سواء» و«غير منحازين في الفكر والفعل كذلك» - واستطاع فعل ذلك حتى شهر نيسان/ أبريل 1917. ولم يكن ذلك بمثل هذه الصعوبة في الحقيقة. فقد كانت مجموعة صغيرة نافذة من نخبة الجمهوريين، تحت قيادة الرئيس الأسبق ثيودور روزفلت، هم فقط من يدعون إلى دخول الحرب، بينما كان معظم الأميركيين يعارضون التدخل، بمن فيهم قادة الكنيسة الكاثوليكية وجميع طوائف البروتستانت وملايين الأميركيين من أصول ألمانية وإيرلندية، الذين صوت أغلبهم لمصلحة الحزب الديمقراطي. فبالنظر إلى الأمر بأثر رجعي، يبدو التحالف مع بريطانيا وفرنسا ضد ألمانيا، أمرًا عاديًا، بل طبيعيًا، إلا أنه في عام 1914 لم يكن كذلك على الإطلاق. في الحقيقة، لا تكمن الأحجية بالنسبة إلى المؤرخين في سؤال لماذا تأخرت الولايات المتحدة كل ذلك الوقت لدخول الحرب، بل تكمن في سؤال لماذا أقدمت البلاد على ذلك من الأصل.

لقد كان احتكام ويلسون إلى الحياد رأيًا حسنًا، إلا أن نتيجة أفعال الولايات المتحدة لم تكن محايدة على الإطلاق. فمن دون تخطيط، مالت الولايات المتحدة في اتجاه الحلفاء. وقد نبع هذا التناقض غير المقصود في السياسة من رغبة الأميركيين في البيع لكلا الفريقين المتحاربين، وعدم رغبة ويلسون في منعهم من ذلك. فإصراره على الحياد الصارم كان يعني أنه لن توضع أي قيود على الصادرات الأميركية إلى أوروبا زمن الحرب. إلا أن هذه السياسة كانت في مصلحة الحلفاء. ففي خلال فترة الحياد الأميركي، حاول الأسطول الملكي منع وصول الصادرات إلى ألمانيا وحماية الملاحة التجارية الأطلسية المتجهة إلى بريطانيا وفرنسا. لذلك، فاقت الصادراتُ الأميركية إلى الحلفاء صادراتها إلى ألمانيا. وبناءً على ذلك، على الرغم من كون الولايات المتحدة محايدة رسميًا، إلا أنها أصبحت، عن غير قصد، جزءًا من المجهود الحربي للحلفاء.

ردت ألمانيا باستخدام إحدى الوسائل القليلة في حوزتها، ألا وهي حرب الغواصات. وأثبتت الغواصات الألمانية أنها سلاح مدمر ضد كل من الملاحة عبر الأطلسي التي كانت تمد المجهود الحربي للحلفاء، والأسطول البريطاني

الذي يحميها. ولأن سفن الولايات المتحدة كانت محايدة رسميًا، فقد كانت كذلك مدنية بالأساس، لذلك قامت الغواصات الألمانية بإحداث أضرار بالغة بسفن غير مقاتلة. وفي شهر أيار/ مايو 1915، وقعت أفجع هذه الحوادث عندما أغرقت توربيدات إحدى الغواصات الألمانية باخرة الركاب البريطانية، اللوسيتانيا (*Lusitania*)، الأمر الذي تسبب في مقتل 1,200 مدني، منهم 128 أميركيًا. رد ويلسون بأن أرسل إنذارًا إلى ألمانيا يطالبها بإيقاف حملة الغواصات. ونجح الإنذار، ولكن إن استأنفت ألمانيا حرب الغواصات، فلن يكون أمام ويلسون خيار غير التخلي عن الحياد. لذلك استقال وزير الخارجية وليام جينينغز براين (William Jennings Bryan)، الذي كان معارضًا شرسًا للتدخل.

خاض ويلسون حملة إعادة انتخابه في عام 1916 على أساس سجله في الإبقاء على أميركا خارج الحرب، إلا أن سياسته للحياد واجهت ساعة نهايتها في شتاء عام 1917. فما إن بدأ عام الحسم هذا، حتى دعا إلى «سلام من دون نصر»، إلا أن ذلك كان غير متصور لدى الأمم المتحاربة، التي رفضت تقبل أن تكون قاتلت الأعوام الثلاثة المنصرمة هدرًا، فقد أراد جميع الأطراف السلم، لكنهم أرادوا تحقيق النصر أيضًا. في هذه الأثناء، اعترضت الاستخبارات البريطانية تليغرافًا سريًا - سرعان ما سربته إلى الصحافة الأميركية - من وزير الخارجية الألماني، آرثر زيمرمان[12]، إلى الحكومة في مكسيكو سيتي، يعدها بالمساعدة في استرجاع الأراضي التي حازتها أميركا من المكسيك في حرب عام 1846، في مقابل مساعدة المكسيك على إبقاء الولايات المتحدة منشغلة إذا ما دخلت الحرب. أما ما جعل زيمرمان قلقًا من احتمالية دخول الولايات المتحدة الحرب، هو أن ألمانيا كانت قد اتخذت بالفعل القرار المصيري باستئناف حرب الغواصات غير المحدودة في أوائل شهر شباط/ فبراير. وكانت برلين على حق في قلقها بشأن ردة الفعل الأميركية، لأن ذلك كان على الأرجح هو الشيء الوحيد الذي من

(12) آرثر زيمرمان (Arthur Zimmermann) (1864-1940): سياسي ألماني شغل منصب وزير خارجية الإمبراطورية الألمانية من تشرين الثاني/ نوفمبر 1916 حتى استقالته في نيسان/ أبريل 1917. اشتهر ببرقية زيمرمان، التي أرسلها إلى المكسيك يدعوها إلى افتعال حرب مع الولايات المتحدة ويعد المساعدة. وقام أيضًا بدعم الثوار البلاشفة لإسقاط قيصر روسيا. (المترجم)

شأنه أن يقلب الرأي العام الأميركي إلى دعم الحرب ضد ألمانيا. وكان دخول الولايات المتحدة الحرب حتميًا على أي حال. وانهارت العقبة الأخيرة في آذار/ مارس، عندما أسقِط القيصر الروسي، الشخصية المكروهة في الولايات المتحدة، بواسطة الثورة الليبرالية المؤيدة للغرب، الأمر الذي وفر على ويلسون المعضلة المحرجة للقتال إلى جانب روسيا القيصرية الأوتوقراطية.

وفي الثاني من شهر نيسان/ أبريل، مشى ويلسون منفردًا من البيت الأبيض إلى الكابيتول هيل، ليطلب إعلانًا بالحرب ضد ألمانيا. واستجاب الكونغرس بعد يومين، وبهذا انضمت الولايات المتحدة رسميًا إلى الحرب العظمى.

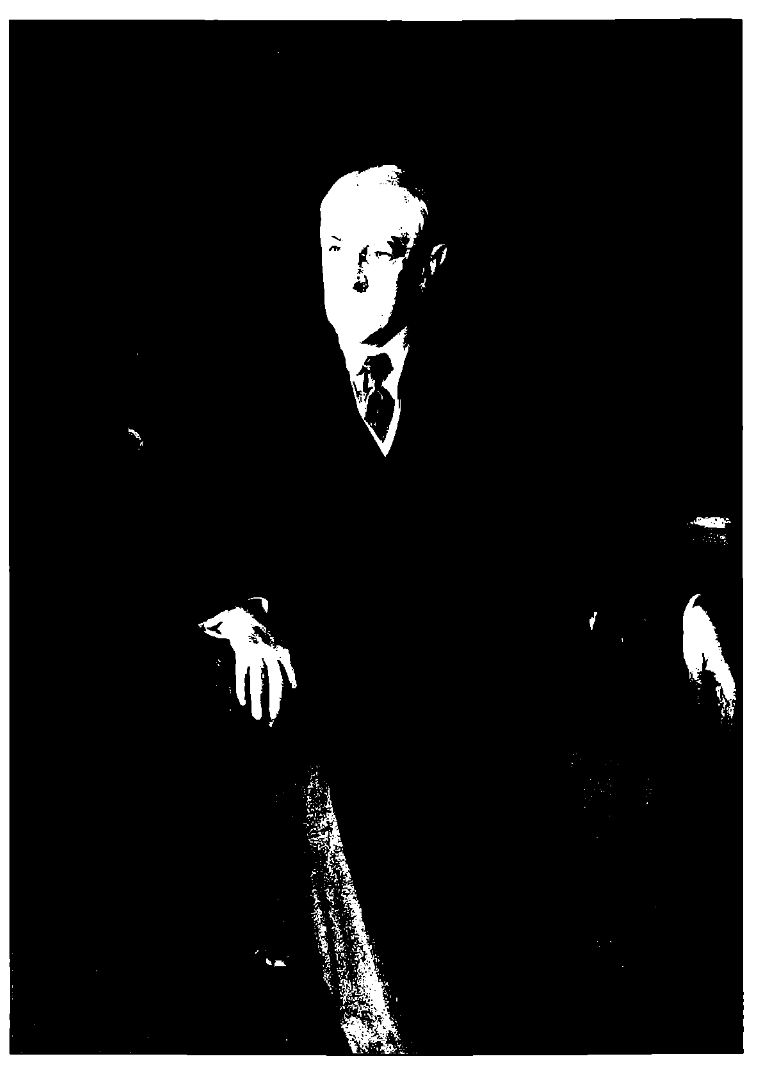
الثورة الويلسونية

كعادتها، دخلت الولايات المتحدة الحرب وفقًا لشروطها الخاصة. والتزم ويلسون مبدأً أولًا رئيسًا، الأحادية (على الرغم من عدم استخدام ويلسون نفسه لهذهلَالكلمة تحديدًا). وكان ذلك متفهمًا نظرًا إلى عظم الغرم، في الأرواح والأموال، الذي كانت بلاده على وشك أن تبذله لحل مشكلات أوروبا. فإذا كانت الولايات المتحدة ستدخل المطحنة، فسوف تفعل ذلك وفقًا لشروطها الخاصة. وكان ذلك أيضًا حكيمًا، نظرًا إلى حاجة بريطانيا وفرنسا الماسة إلى المساعدة الأميركية. وشرح ويلسون ذلك بقوله، إن الولايات المتحدة سوف تقاتل إلى جانب بريطانيا وفرنسا، لكنها لن تنضم إلى تحالفهما. فلم تكن أميركا إحدى دول الحلفاء، بل كانت مجرد شريك. كان ذلك يعني أن الولايات المتحدة تقاتل لأهدافها الخاصة، التي ليس من الضروري أن تتبناها كل من بريطانيا وفرنسا. وكانت تلك مقاربة من الممكن أن يتبناها الجيل الأسبق من رجال الدولة الأميركيين.

على الرغم من ذلك، لم يكن هؤلاء ليتبنوا باقي رؤية ويلسون، حيث إن الأهداف التي قاد لأجلها أميركا إلى الحرب، أقل ما يمكن أن توصف به، أنها كانت ثورية. فبتدخله مباشرة في حرب أوروبية، كان ويلسون قد قام بتحول حاسم عن تقليد عدم التورط الذي أسسه كل من واشنطن وجيفرسون قبل ذلك بقرن من الزمان، وعن تقليد الفصل بين نصفي الكرة الغربي والشرقي الذي أسسه مونرو

في عقيدته. فقد جعل ويلسون العالم كلًّا لا يتجزأ، وقد تورطت أميركا في مركزه تمامًا. وبهذا، وضع الولايات المتحدة على مسار جديد كلية في السياسة العالمية، ومنذ الآن فصاعدًا، لن تلعب أميركا دورًا فحسب، بل سيكون لها دور البطولة.

الصورة (3-3)



اللوحة التي رسمها جون سينغر سارجنت (John Singer Sargent) لوودرو ويلسون، والتي تظهر جلسته الدؤوب المتأنية ورؤيته الجريئة. وبينما فشلت الأيديولوجيا الويلسونية في أيامه، فقد أعيد بعثها من جديد خلال الحرب العالمية الثانية، بل مثلت الأساس لقوة الولايات المتحدة ونفوذها لعقود بعدها.

شرح ويلسون ماذا يعني في نقاطه الأربع عشرة، التي بينها في خطبة خاصة ألقاها أمام جلسة مشتركة للكونغرس في شهر كانون الثاني/ يناير 1918. وعلى الرغم من تطرق العديد من النقاط إلى نزاعات حدودية معينة وأشياء من هذا القبيل، إلا أن خطبة الأربع عشرة نقطة، التي ألقاها ويلسون، تعد إحدى أهم الخطب في التاريخ الدبلوماسي الأميركي. ذلك أنها أسست لمجموعة من المبادئ الأولى الجديدة تمامًا، كان لها، في ما عدى بعض الاستثناءات القليلة، أن تصبح أصول عمل أميركا في العالم منذ ذلك الوقت.

عرفت هذه الرؤية بالعديد من الأسماء، أكثرها انتشارًا هو «الدولانية الليبرالية»، و«الويلسونية»، تكريمًا للشخص الذي حلم بها. وعلى الرغم من عدم استعمال أي منهما في ذلك الوقت، إلا أن كلاهما يعكسان رؤية العالم التي شكلت أهداف ويلسون في الحرب. كانت «الدولانية» تختلف عن السياسة الخارجية الأحادية السائدة في رؤيتها للعالم، ليس بوصفه مترابطًا فحسب، بل بوصفه يعتمد بعضه على بعض اعتمادًا متبادلًا كذلك. فما يحدث في بلد ما، يؤثر في البلاد الأخرى تأثيرات مهمة ومباشرة. لذلك آمن الدولانيون بأن القوة العظمى تأتي مع مسؤولية عظمى، خاصة في المحافظة على نظام عالمي يعمل بسلاسة ويحقق السلم والرخاء. فإذا كانت الولايات المتحدة ستصبح قوة عظمى، فعليها أن تتصرف بوصفها كذلك، وتحمي أسس الحضارة. أما أسس النظام العالمي المتحضر فسوف يتم تحديدها بواسطة ثالوث ويلسون المقدس المتمثل في حق تقرير المصير القومي (أو ما سمّاه ويلسون «التنمية الذاتية») والديمقراطية والتنظيم الدولي. وتحت هذا الثالوث المقدس كانت هناك مبادئ أخرى مثل الانفتاح الدولي، الذي كان يثمنه أميركيو هذا العصر بشكل خاص والمتمثل في المساواة في فرص متساوية للعمل بالتجارة وحرية الملاحة عبر البحار ونزع السلاح. وبدلًا من المعاهدات السرية، دعا ويلسون إلى «مواثيق علنية للسلام، يتوصل إليها علنًا». كان الضامن التقليدي لهذا النظام العالمي المتحضر هو القوى الليبرالية العظمى في ذلك العصر، فرنسا وبريطانيا (على وجه الخصوص)، إلا أنه بحلول عام 1917، بات من الواضح لدى ويلسون أن العبء الرئيس قد وقع على عاتق الولايات المتحدة.

رأى مراقبو ذلك العصر أن ويلسون كان أخلاقيًا بشكل لا يحتمل، ورفضوا نقاطه الأربع عشرة بوصفها مثالية مشوشة التفكير. ويروى أن رئيس الوزراء الفرنسي، جورج كليمنصو[13] قال مازحًا «رضي موسى بعشر وصايا فحسب، أما ويلسون فيحتاج أربع عشرة». وانضم المؤرخون، منذ ذلك الوقت، إلى نقد «المثالية» الويلسونية. وكان لدى ويلسون بالطبع رؤية، وكانت حقًا رؤية ثورية، إلا أنها لم تكن مثالية غير واقعية. فقد كان، كما يذكرنا المؤرخ جون أ. تومسون (John A. Thompson)[14]، سياسيًا ناجحًا - حيث كان حاكمًا لولاية نيوجيرسي، قبل أن يصبح رئيسًا للولايات المتحدة لفترتين - وعلى ذلك كان عليه، كأي سياسي ناجح، أن يكون براغماتيًا واقعيًا. ولننظر إلى النقاط الأربع عشرة. كانت الأكثر مثالية منها، كما هو مفترض، في الحقيقة ردات فعل مباشرة لما رآه ويلسون (والأغلبية في ذلك الوقت) بوصفها المسببات الأصلية لحرب عام 1914. على سبيل المثال، كان حق تقرير المصير من شأنه أن يمنع اندلاع الثورات المحلية ضد الحكم الأجنبي، وهو ما أشعل شرارة الحرب في البلقان. أما حرية الملاحة في البحار، فمن شأنها أن تمنع الهجوم على الملاحة المحايدة، مثل حملة الغواصات الألمانية في المحيط الأطلسي. وسوف تتحاشى المواثيق المفتوحة وعصبة الأمم، التحالفات واتفاقات الدفاع المشترك السرية، من أمثال تلك التي كانت بين صربيا وروسيا أو بين ألمانيا والإمبراطورية النمساوية الهنغارية، التي ألزمت الدول بالحرب حتى عندما كانت مترددة. وسوف توفر العصبة كذلك، مكانًا وسطًا، لمناقشة التوترات التي ستؤدي إلى الحرب وحلِّها، إن لم يتم التعامل معها وتركها لتنمو وتكبر.

لذلك، لم تكن رؤية ويلسون مثالية بقدر ما كانت تعبيرًا عما سماه المؤرخ آرثر

(13) جورج كليمنصو (Georges Clemenceau) (1841-1929): رجل دولة فرنسي تولى منصب وزير الخارجية بين عامي 1906 و1909، ومرة أخرى بين عامي 1917 و1920. وهو شخصية لها شعبية، كانت له أدوار مركزية في سياسة الجمهورية الثالثة، أهمها قيادة بلاده في أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها. (المترجم)

(14) أغلب الظن أن المؤلف يشير هنا إلى كتاب تومسون المنشور تحت عنوان **منطق القوة: جذور الدور الأميركي في العالم** (*A Sense of Power: The Roots of America's Global Role*). (المترجم)

لينك[15] «الواقعية العالية». فلم يكن ويلسون يسعى خلف هذه الأهداف بوصفها مبادئ مجردة للقصد المثالي، بل كانت تكتيكات محددة مصممة للتعامل مع مخاوف محددة. وعلى الرغم من أنه كان مأمولًا أن يخلق ذلك عالمـًا أفضل، إلا أن هدف ويلسون، المتجاوز لأي هدف آخر، كان تأمين مصالح الولايات المتحدة في عالم يتميز بالاعتماد المتبادل -العالم الذي لن يكون بوسع الأميركيين فيه تجنب التشابكات الخارجية بعد الآن. ففي شهر نيسان/ أبريل 1917، عندما طلب ويلسون من الكونغرس إعلان الحرب على ألمانيا، حاجج بأنه «يجب جعل العالم آمنًا للديمقراطية». وقد بدا ذلك من التقى، إلا أنه كان في الحقيقة مبني على سياسة واقعية للدولة، فجعل العالم آمنًا للديمقراطية، يعني أيضًا جعله آمنًا للولايات المتحدة، أكبر ديمقراطية في العالم. فإذا كان النظام العالمي سيعاد بناؤه وفقًا للشروط الديمقراطية الليبرالية، فلن يعني ذلك شيئًا أقل من أمركة العالم.

وسواء أكانت رؤية ويلسون مثالية أم واقعية أم تجمع بينهما، فهي لم تمتد إلا إلى الحدود الخارجية لأوروبا المسيحية البيضاء. فكما بيَّن إريز مانيلا[16]، اكتشف الوطنيون المناهضون للاستعمار في فيتنام والهند وغيرهما، بشكل مؤلم، أن دعوة ويلسون للديمقراطية وحق تقرير المصير لا ينطبقان على إمبراطوريات أوروبا الاستعمارية المترامية الأطراف. كان ذلك في جزء منه بسبب عدم قدرة ويلسون على إجبار بريطانيا أو فرنسا على إنهاء الاستعمار على غير إرادتهما - إلا أنه عكس أيضًا تحيزات ويلسون نفسه. فلم يكن على وشك منح الفلبين أو كوبا استقلالهما، وكان قد غزا المكسيك مرتين، وأشرف على الاحتلال العسكري لكل من جمهورية الدومينيكان ونيكاراغوا وهايتي. الأكثر من ذلك، في الوطن،

(15) آرثر لينك (Arthur Link) (1920-1998): مؤرخ أميركي يُعد أهم من كتب عن حياة الرئيس وودرو ويلسون. له كتاب يقع في خمسة مجلدات عن ويلسون وحياته. (المترجم)

(16) إريز مانيلا (Erez Manela) (ولد في عام 1950): مؤرخ أميركي وأستاذ التاريخ بجامعة هارفارد. يركز في تدريسه وبحوثه على التاريخ الأميركي في القرن العشرين وعلى أميركا في العالم. له العديد من الكتب والأبحاث أهمها في ما يتعلق بمسألة ويلسون ودور أميركا إبان الحرب العالمية الأولى، كتابه **اللحظة الويلسونية: حق تقرير المصير والجذور الدولية للقومية المناهضة للاستعمار** (*The Wilsonian Moment: Self-Determination and the International Origins of Anticolonial Nationalism*)، المنشور في عام 2007. (المترجم)

دعم ويلسون فرض قوانين جيم كرو[17] في الجنوب وبدأ سياسة الفصل العنصري للموظفين الفدراليين. فلم تكن الدولانية الويلسونية أبدًا شاملة أو مطبقة بشكل متسق، إلا أن السياسات الخارجية للقوى الكبرى نادرًا ما تكون كذلك.

كان التدخل الأميركي في الحرب حاسمًا، ولكن ليس في أوله. فقد كان أمام العسكرية الأميركية الكثير لتتعلمه. فعلى عكس الجيوش الأوروبية الكبيرة، التي كانت بالفعل منخرطة في حرب شغلت معظم الأعوام الثلاثة المنصرمة، كان الجيش الأميركي صغيرًا، ضعيف التجهيز عديم التدريب. لذلك كان على ويلسون أن يبني جيشًا، وبسرعة. وكان البناء في خلال السنة التالية مذهلًا، ساعد في ذلك حقيقة أن الصناعة الأميركية كانت بالفعل في أعلى مستوياتها، حيث كانت تنتج عتاد الحرب لكل من بريطانيا وفرنسا. بدأت مجموعة صغيرة من جنود قوات التجريدة الأميركية[18]، تتقاطر إلى فرنسا في صيف عام 1917، وتبعتهم موجة مديدة تفوق المليون جندي، ولكن ليس قبل حلول الربيع التالي. إلا أن دخول الأميركيين غيَّر دينامية الحرب، نفسيًا، فهذه الموجات الأولى من جنود قوات التجريدة الأميركية، كان لابد من أن تتبعهم موجة إثر أخرى من الجنود. وقد كان لهم إسهامات مهمة في حملة عام 1918، أكثرها أهمية كانت انتصارات الحلفاء المحورية في كل من معركة بيلو وود وشاتو تييري وسانت ميهيل. وفي الحادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، وبينما لا تزال معركة غابة أرغون جارية، طلبت ألمانيا عقد السلم. وبذلك انتهت الحرب العظمى.

بيد أن الألمان كانوا حريصين على عدم الاستسلام للحلفاء. فاستسلموا بدلًا من ذلك، كما أمل ويلسون، للولايات المتحدة، تحت شروط النقاط الأربع عشرة. كان ذلك منطقيًا من وجهة نظر برلين، فقد كان ويلسون رافضًا غزو الأراضي بوصفه جزءًا من غنائم الحرب. إلا أن ذلك لم يكن مفهومًا من وجهة نظر لندن

(17) قوانين جيم كرو (Jim Crow Laws): قوانين تم فرضها في الولايات الجنوبية للولايات المتحدة تقضي بالتمييز والفصل العنصري ضد السود. وقد تم فرضها حتى عام 1965. (المترجم)

(18) قوات التجريدة الأميركية (American Expeditionary Force (AEF)): أول فرقة من الجيش الأميركي يتم إرسالها للقتال في أوروبا تحت قيادة الجنرال جون جاي بيرشينغ. وصل تعدادها في شهر أيار/ مايو 1918 أكثر من مليون جندي، إلا أن نصفهم فقط هم من اشتركوا في القتال المباشر. (المترجم)

وباريس، حيث كان رجال الدولة قد قاموا بالفعل - سرًا - بتقسيم الإمبراطوريتين الألمانية والعثمانية (على سبيل المثال، اتفاقية سايكس بيكو السيئة السمعة لعام 1916، التي قسمت الشرق الأوسط إلى محميات بريطانية وفرنسية). إن هذا الفارق في التصورات، بين القوى المنتصرة، لم يكن يبشر بالخير مستقبلًا.

التقى المؤتمر الذي عقد لتسوية شروط هزيمة ألمانيا، في باريس، في أول ستة أشهر من عام 1919. وهنا، خالف ويلسون أيضًا التقليد السائد، حيث أبحر إلى فرنسا للإشراف على المفاوضات بنفسه، وبذلك أصبح أول رئيس أميركي يسافر إلى أوروبا خلال توليه المنصب، وأول رئيس يعقد اجتماعات قمة مع القادة الأجانب. إلا أنه لم يحضر معه أي جمهوري، الأمر الذي من شأنه أن يجعل أي اتفاق يتوصل إليه منحازًا بشدة وفق الخطوط الحزبية.

كانت هذه الشروط النهائية، التي وقِّعت، كما ينبغي لها، في قاعة المرايا بقصر فرساي، حلًا وسطًا غير مثالي بين الويلسونية والسياسة الأكثر تقليدية للحلفاء. فكان على ألمانيا أن تدفع تعويضات لكل من فرنسا وبريطانيا، وخسرت بعض أراضيها لبولندا وتشيكوسلوفاكيا، الدول المستقلة المنشأة حديثًا. كذلك أسفرت الحرب عن تفكيك الإمبراطوريات الثلاث، الألمانية والنمساوية الهنغارية والعثمانية، التي تحالفت في أثناء الحرب - حيث اختفت الإمبراطوريتان الأخريان وقد كانتا من أركان العالم الأساسية منذ بداية العصر الحديث.

تسببت الحرب كذلك في أفول إمبراطورية عظمى أخرى، الإمبراطورية الروسية، غير أن مصيرها تقرر في شوارع سان بطرسبرغ. فقد أخفقت ثورة المناشفة الليبرالية[19] التي قامت في آذار/ مارس، في إلهام الروس، وأخفقت كذلك، بلا أي اختلاف عن القيصر نيقولا الثاني، في إدارة الحرب. ومع تنامي

(19) المناشفة (Menshevik): تعني «الأقلية» وهم جماعة سياسية تكونت في عام 1903 بعد انقسام حزب العمل الاشتراكي الديمقراطي الروسي إثر خلافات داخلية إلى شقين، أكثرية بلشفية بقيادة فلاديمير لينين، تسعى للحل الثوري وإعمال السلاح لحل المعضلات السياسية، وأقلية سميت لاحقًا المناشفة انضوت تحت قيادة يوليوس مارتوف وانتهجت طريق الحل السلمي في حل المشكلات السياسية الرائجة حينها. (المترجم)

الاضطراب، استغل البلاشفة، الأكثر تطرفًا، الفرصة واستولوا على السلطة في شهر تشرين الأول/ أكتوبر. وبذلك أصبحت روسيا، التي تم تعميدها توًا باسم الاتحاد السوفياتي، أول قوة شيوعية في العالم. وقدم السوفيات دولانية مختلفة تمامًا، بل مخاصمة لدولانية ويلسون، بوصفها أساسًا للنظام العالمي، الذي سيكون غير ليبرالي ومبنيًا على العدالة الجمعية والاقتصاد الموجه بدلًا من الحرية الفردية والسوق الحرة. كان ذلك تطورًا هائلًا بالنسبة إلى الولايات المتحدة كذلك، حيث إن الصراع بين الرؤى الدولية المتنافسة، للشيوعية بقيادة الاتحاد السوفياتي والرأسمالية بقيادة الولايات المتحدة، سيحدد السياسات الدولية للأعوام السبعين التالية، والذي بدأ بتدخل الولايات المتحدة في الحرب الأهلية الروسية.

كان ويلسون قلقًا من صعود الشيوعية، إلا أن التطور الأهم لما بعد الحرب، بالنسبة إليه، كان عصبة الأمم، واسطة العقد لمعاهدة فرساي. فقد كانت العصبة أول منظمة دولية دائمة، تلك المؤسسة التي ظل ناشطو السلام يدعون لإنشاء مثلها طوال عقود. ففي عام 1835، تنبأ الشاعر تنيسون (Tennyson) بيوم «لا تضرب فيه طبول الحرب مرة أخرى، وتنكس أعلام الحرب، في برلمان البشرية، اتحاد العالم». وبدا أنه آن أوان ذلك اليوم.

جسدت العصبة عدة مبادئ مهمة، منها مبدأ الأمن الجماعي[20]، والنقاش العلني المفتوح حول المشكلات الدولية. إلا أنها عانت من عيبين قاتلين، وإن كانا متناقضين، فقد كانت قوية جدًا وضعيفة جدًا في آن. حيث نبع ضعفها من غياب أي آلية لفرض قراراتها. على سبيل المثال، إذا غزت دولة، دولةً أخرى - وهو خرق واضح للقانون الدولي - لم يكن لدى العصبة أي وسائل ذاتية لمعاقبة

---

(20) الأمن الجماعي (Collective Security): مبدأ في العلاقات الدولية يقضي بأن تتعاون الدول كافة في ضمان الأمن والسلم الدوليين، وذلك بأن تجتمع كلها على ردع أي من الأطراف الدولية عن الاستخدام المنفرد للقوة لتحقيق أهدافه السياسية، وأن تجتمع كذلك على مقاومة أي خرق للسلم والأمن الدوليين. وقد تم تدشين هذا المبدأ عند تأسيس عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى، إلا أنه لم يتحقق ولذلك قامت الحرب العالمية الثانية. وعند تأسيس الأمم المتحدة تم تدشين هذا المبدأ بشكل أقوى ووضعت له آليات للتنفيذ تمثلت في الفصلين السادس (المتعلق بالأدوات السلمية) والسابع (المتعلق بأدوات استخدام القوة) من ميثاق المنظمة. (المترجم)

المعتدي. في المقابل، كانت العصبة أيضًا قوية جدًا. فوفقًا للمادة العاشرة لميثاق تأسيسها، تعد قرارات العصبة ملزمة لجميع أعضائها، وبالتالي فأفعالها تعلو على القوانين الداخلية للدول الأعضاء - بما فيها دستور الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن صياغة المادة تركت بعض المساحة للمرونة، إلا أن ذلك كان كثيرًا جدًا بالنسبة إلى أغلب أعضاء مجلس الشيوخ من الجمهوريين، الذين كان لابد من تصديقهم على توقيع ويلسون على المعاهدة، إذا كان لها أن تدخل حيز النفاذ في الولايات المتحدة[21]. وعلى ذلك، فقد رفضوا التصديق على المعاهدة طالما تتعارض المادة العاشرة من ميثاق عصبة الأمم مع القسم الثامن من المادة الأولى لدستور الولايات المتحدة. وبهامش ضئيل جدًا، رفض مجلس الشيوخ التصديق على معاهدة فرساي، وبذلك تخلت الولايات المتحدة عن دورها القيادي في السياسة العالمية.

(21) وفقًا للدستور الأميركي، فأي معاهدة دولية يوقع عليها الرئيس أو من ينوب عنه، لا تدخل حيز النفاذ ولا تعد ملزمة للولايات المتحدة حتى يتم التصديق عليها في مجلس الشيوخ بأغلبية الثلثين. (المترجم)

الفصل الرابع

القرن الأميركي؟

قليل هم من أدركوا جوهر صعود أميركا إلى العالمية، كما فعل هنري لوس[1]. فبوصفه مؤسس بعض أكثر المجلات تأثيرًا في البلاد مثل مجلة **تايم** و**لايف**، كان لوس يتمتع بتأثير هائل على الطريقة التي يفسر بها الأميركيون العالم من حولهم. وبوصفه رجل أعمال ناجح، أتقن الرأسمالية الزبونية، ذلك النوع من الرأسمالية الذي كان له أن يسود الاقتصاد الأميركي. وبوصفه من عائلة مبشرين، ولد في الصين وتعلم في الولايات المتحدة، كان يجسد الرؤية الأميركية للعالم.

بيد أنه بحلول شتاء عام 1941، أصبح لوس محبطًا بشكل متزايد جراء موقف بلاده. فقد تخلى الأميركيون عن نداء القيادة بعد الحرب العظمى، ودفع باقي العالم الثمن. ومع سقوط فرنسا وأغلبية غرب أوروبا تحت الاحتلال النازي، ناقش الكونغرس قانون الإعارة والتأجير[2]، الذي كان يقضي فعليًا بمنح بريطانيا مساعدات عسكرية وتمكينها من الحفاظ على تحديها لألمانيا. إلا أنه حتى تلك اللحظة، كان قانون الإعارة والتأجير، الذي رآه الدولانيون من أمثال لوس، محوريًا لبقاء الحضارة الغربية، لا يزال قيد المناقشة.

وضع لوس على عاتقه، متصفًا بتفانٍ تبشيري في الخدمة، وتقدير إمبريالي

---

(1) هنري لوس (Henry Luce) (1898–1967): صحفي ومحرر وناشر أميركي، اشتهر بكونه أكثر شخصية تأثرًا في عصره، حيث كان يشرف على نشر أربع مجلات في ذلك العصر. الأولى هي مجلة **تايم** (*Time*) التي كانت تلخص وتعلق على الأخبار الأسبوعية، والثانية مجلة **لايف** (*Life*) وهي مجلة سياسية مصورة حددت رؤية الأميركيين للعالم قبل ظهور التلفاز، والثالثة مجلة **فورتشن** (*Fortune*) المختصة بأخبار المال والأعمال، والأخيرة مجلة **سبورتس** (*Sports*) للأخبار الرياضية. كان لوس مؤيدًا للهيمنة الأميركية على العالم وهو صاحب مقولة أن القرن العشرين سوف يكون «قرنًا أميركيًا». (المترجم)

(2) قانون الإعارة والتأجير (Lend-Lease Act): بموجبه موّلت الولايات المتحدة فرنسا الحرة، بريطانيا العظمى، جمهورية الصين، ولاحقًا الاتحاد السوفياتي وحلفاء آخرين بالغذاء والنفط والمواد بين عام 1941 وآب/ أغسطس من عام 1945. وفي المقابل كانت الولايات المتحدة تحصل على إيجارات بعض القواعد لدى الحلفاء. (المترجم)

للقوة والنفوذ، عبء تكرار هذا النداء للقيادة. فكتب في عدد شهر شباط/ فبراير 1941 من مجلته الرئيسة، **لايف**، أنه حتى بعد أن نمت الولايات المتحدة لتصبح «الأمة الأقوى والأكثر حيوية في العالم، ظل الأميركيون عاجزين عن استيعاب هذه الحقيقة روحيًا وعمليًا، ولذلك أخفقوا في تأدية الدور المنوط بهم بوصفهم قوة عالمية - الإخفاق الذي كان له عواقب كارثية عليهم وعلى البشرية. والحل يكمن في تقبل واجبنا وفرصتنا، بكليتنا، بوصفنا أقوى أمم العالم وأكثرها حيوية، وبالتالي تقبل فرض نفوذنا بكامل قوته على العالم، للأغراض التي نراها ملائمة وبالوسائل التي نشاء». فالأميركيون يريدون أن يديروا ظهورهم للعالم، لكن ببساطة، لم يكن باستطاعتهم فعل ذلك. في المقابل، دعا لوس إلى واقعية جديدة أكثر صلابة وتصميمًا. فسوف يجعل الأميركيون العالم مكانًا أفضل، ليس ببساطة لأن ذلك هو الصواب، بل لأن تلك هي الحصافة. وختم بقوله إنه لكي يكون العالم مكانًا آمنًا لأميركا، فلابد للقرن «إلى حد كبير، أن يصبح قرنًا أميركيًا».

كانت دعوة لوس تأكيدًا مذهلًا للقصد الأميركي ومزيجًا مسكرًا من القيم والمصالح، وهو مزيج يمكن أن يصبح خطة سياسية لبزوغ الولايات المتحدة بوصفها القوة المسيطرة في العالم. ولو كان الأمر اقتصر على صفحات مجلة شعبية، لكان سوف يصبح ذا أهمية محدودة. إلا أن العديد من الدولانيين، من ذوي الأفكار المشابهة - أهمهم رئيس الولايات المتحدة، فرانكلين د. روزفلت[3] - كانوا يتشاركون الأمر نفسه. فتحت قيادة روزفلت، انتقلت الولايات المتحدة من لاعب كبير، ولكن هامشي، في المشهد العالمي، إلى إحدى أقوى الدول التي شهدها العالم.

---

(3) فرانكلين د. روزفلت (Franklin Delano Roosevelt) (1882-1945): فرانكلين ديلانو روزفلت، المعروف أيضا باختصار «إف دي آر»، هو رجل دولة وزعيم سياسي أميركي شغل منصب الرئيس الثاني والثلاثين للولايات المتحدة بين عامي 1933 و1945. وهو الرئيس الوحيد الذي فاز بأربع انتخابات رئاسية وأمضى ثلاث فترات في الرئاسة. أمضى فترة رئاسته الأولى في محاولة التعافي من الكساد العظيم الذي أصاب العالم والولايات المتحدة بشكل خاص واشتهر بسياسته الاقتصادية المعروفة ببرنامج الصفقة الجديدة (New Deal). ثم أصبح أحد أهم قادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، وتوفي قبل نهاية الحرب بقليل. (المترجم)

على الرغم من رفض الزواج الدولاني الذي كان وودرو ويلسون قد رتبه بين الولايات المتحدة وباقي العالم، بقيت أميركا الدولة الأقوى في النظام العالمي، وكانت لا تزال متورطة تمامًا في العولمة كما كانت دائمًا. فلم يكن باستطاعة الأميركيين تجنب العالم أكثر مما كان يستطيع باقي العالم تجنب أميركا. وحتى مع عدم انضمام الولايات المتحدة إلى عصبة الأمم (وقد انضمت إليها اثنتان وأربعون دولة أخرى)، كانت لا تزال تتمتع بتأثير سياسي وعسكري واقتصادي كبير على الشؤون العالمية. ربما كانت الويلسونية بداية خاطئة، إلا أن الدولانية الأميركية لم تكن قد ماتت.

لذلك علينا إعادة التفكير في خرافتين من تلك المنتشرة حول السياسة الخارجية الأميركية بين الحربين. أولاهما الانعزالية، فبينما لم تساعد الولايات المتحدة كثيرًا في تخطيط البنية الدولية الرسمية التي تم وضعها بعد الحرب العالمية الأولى، إلا أنها شاركت دولًا أخرى في استعادة نظام ما بعد الحرب. ففي عامي 1921 و1922، على سبيل المثال، استضافت واشنطن مؤتمرًا دوليًا لنزع السلاح البحري في المحيط الهادئ، حيث تم توقيع ثلاث معاهدات ضمت الولايات المتحدة واليابان وبريطانيا وفرنسا والعديد من الدول الأخرى، الأمر الذي خفف من حدة التوترات بين الدول الكبرى على طول حافة المحيط الهادئ. وكان الأميركيون أيضًا فاعلين في السياسة الأوروبية. فقد استطاعت خطة دوز في عام 1924 وخطة يونغ في عام 1929 (اللتان سميتا باسم المصرفي الأميركي تشارلز دوز[4] ورجل الأعمال الأميركي أوين يونغ)[5] تمويل ديون أوروبا من

(4) تشارلز دوز (Charles Dawes) (1865–1951): مصرفي وجنرال ودبلوماسي وملحن وسياسي جمهوري أميركي تولى منصب نائب الرئيس الثلاثين للولايات المتحدة بين عامي 1925 و1929. حصل على جائزة نوبل للسلام عام 1925 لمشاركته بصياغة خطة دوز للسلام عقب الحرب العالمية الأولى. (المترجم)

(5) أوين يونغ (Owen Young) (1874–1962): رجل صناعة وأعمال ودبلوماسي أميركي، اشتهر بمشاركته في مفاوضات التعويضات الألمانية عقب الحرب العالمية الأولى وبتأسيسه مؤسسة راديو أميركا. (المترجم)

طريق إعادة جدولة دفع تعويضات الحرب العالمية الأولى، مما أدى إلى تخفيف التوترات التي كان من الممكن أن تؤدي إلى اندلاع حرب أخرى. وفي عام 1928، وقع وزير الخارجية فرانك كيلوغ[6] ميثاق باريس، المعاهدة الرسمية التي وافقت الدول بموجبها على «إدانة الحرب بوصفها أداة للسياسة القومية» - والتي تعني في جوهرها، إلغاء الحرب. وصحيح أن بعض هذه المبادرات كان يعاني غياب القدرة على فرضه - حيث يمثل ميثاق باريس، المثالي وغير القابل للتنفيذ بشكل تام، أحد الأمثلة الصارخة على ذلك. وصحيح أيضًا أن العديد منها افتقر إلى الدعم الحاسم من واشنطن - فقد تم تمويل أغلب الدين الأوروبي بواسطة قروض من البنوك الأميركية، لا الخزانة، الأمر الذي جعلها أقل استقرارًا. إلا أن تلك لم تكن قط أفعال قوة «انعزالية» على الحقيقة.

أما الخرافة الثانية، فترتبط بالأولى، ألا وهي الاتجاه المزعوم بعيدًا من العولمة. لقد بذل المؤرخون في علم الاقتصاد المجهود الأكبر في رسم خارطة المد والجذر المتعلقة بالعولمة تاريخيًا، وكان عملهم منيرًا. إلا أنه من الممكن أن يكون مضللًا كذلك، لأنه إذا قسنا العولمة وفقًا للمعايير الاقتصادية فقط، فإننا نفوت الكثير. فقد كان للحرب العالمية الأولى أثر ضار على التجارة الخارجية بلا شك، إلا أن بعض قطاعات الاقتصاد شهد ارتفاعًا في صادراته إلى أوروبا. إضافةً إلى قيام الكونغرس بسن سلسلة من القوانين كان آخرها قانون الأصول الوطنية لعام 1924، القانون الذي قيد تدفق المهاجرين القانوني إلى الولايات المتحدة الأميركية. وبناء على ذلك، لم يتعافَ تدفق البشر والسلع - اثنين من مؤشرات قياس العولمة - إلا بعد نصف قرن. بيد أنه، كما رأينا، لم تكن حكومة الولايات المتحدة خاملة بتاتًا في الشؤون العالمية في عشرينيات القرن العشرين. كذلك، كانت المصالح الخاصة والمواطنون العاديون سابقين لحكوماتهم في توطيد الروابط مع باقي العالم. ولم يتضمن ذلك زيادة الروابط الحميمية المتنامية للشركات مع الأمم الرأسمالية الأخرى فحسب - حيث اشترت شركة جنرال

(6) فرانك كيلوغ (Frank Kellogg) (1856-1937): محام وسياسي ورجل دولة أميركي، انتخب عضوًا في مجلس الشيوخ وشغل منصب وزير الخارجية، اشتهر بتوقيعه ميثاق باريس، والذي حصل بسببه على جائزة نوبل للسلام في عام 1929. (المترجم)

موتورز صناع السيارات الألمان والفرنسيين، وافتتحت شركة أر سي أي (RCA) فرع لها في بريطانيا - بل مع تلك الشيوعية كذلك.

وفي وقت لم تكن فيه واشنطن قد أقامت روابط رسمية مع موسكو، كان بنك هاريمان برازرز الاستثماري، بوول ستريت (الذي أصبح لاحقًا براون برازرز هاريمان) يقرض الاتحاد السوفياتي المال لمساعدته في بدء برنامج جديد للتنمية الصناعية، البرنامج الذي عرف بالخطة الخمسية. وقد وجد المسؤولون الشيوعيون الإلهام، بدورهم، في استراتيجية التصنيع التي ابتكرتها شركة هنري فورد لصناعة السيارات. وفي الوقت ذاته، جال الرحالة الأميركيون - التجار والمبشرون والسياح - حول العالم، ليس في أوروبا فحسب، ولكن عبر آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. وكان الأميركيون أيضًا يتقدمون الطريق نحو التعاون والتكامل العابر للقوميات، بمبادرات مثل الحركة المسكونية البروتستانتية التي توجت بإنشاء مجلس الكنائس العالمي في عام 1938، أو بإنشاء منظمات الخدمة المجتمعية في بلدان أخرى، على غرار نادي الروتاري. وبالكاد كان هناك أي أمثلة على الانعزالية - فقد جاب الأميركيون العالم في خلال فترة ما بين الحربين. وعلى ذلك، فبالنظر إلى روح تلك الفترة، وليس إلى التدفقات التجارية لاقتصاد عالمي هش فحسب، يصبح من الواضح كيف كانت عقول الأميركيين متجهة نحو العالم أكثر من أي وقت مضى.

بيد أن بداية الكساد العظيم[7] سددت ضربة قاسية للعولمة، وكذلك لطموحات أميركا بوصفها قوة عالمية. فقد أهلك الكساد التجارة التي انتعشت بعد الحرب. وتمخضت جميع تطورات السياسة الخارجية للولايات المتحدة في العقد الذي أعقب عام 1929، إما عن الزهد في تحمل أي التزامات جديدة، أو الانسحاب من تلك القائمة. فعندما غزت اليابان منشوريا واحتلتها في عام 1931،

---

(7) الكساد العظيم (Great Depression): أكبر أزمة اقتصادية شهدها العالم في القرن العشرين بداية من عام 1929 واستمرت طوال عقد الثلاثينيات. وبدأت بانهيار بورصة وول ستريت في الرابع والعشرين من شهر تشرين الأول/ أكتوبر 1929. في ما عرف بيوم الثلاثاء الأسود. وبحلول عام 1933، كان أكثر من 15 مليون أميركي قد فقدوا وظائفهم وكانت نصف بنوك الولايات المتحدة قد أعلنت إفلاسها. (المترجم)

ردت الولايات المتحدة بعقيدة ستمسون، التي اتخذت اسم وزير الخارجية هنري ل. ستمسون[8]، والتي تقضي بـ «عدم الاعتراف». إن هذه الإشارة الرمزية، إلى حد بعيد، كانت مدفوعة بروح التبرير، مثلها مثل ميثاق باريس، مرضية أخلاقيًا، ولكن غير فعالة بالكلية. وفي عام 1933، أعلن الرئيس المنتخب لتوه، فرانكلين د. روزفلت، سياسة حسن الجوار التي تقضي بعدم التدخل في أميركا اللاتينية، وسحب الدولار من قاعدة الذهب[9]، وانسحب من مؤتمر لندن الاقتصادي، الذي كان يسعى إلى حل متعدد الأطراف للكساد. وفي عام 1935، ومع تصاعد التوترات في أوروبا وشرق آسيا، أصدر الكونغرس القانون الأول، من بين سلسلة من قوانين الحياد، والتي صممت لمنع الولايات المتحدة - ورئيسها بشكل خاص - من الانزلاق إلى حرب أخرى بين القوى العظمى. وإذا كان هناك عصر اقتربت فيه الولايات المتحدة حقًا من أن تصبح انعزالية، فقد كان ثلاثينيات القرن العشرين.

وعلى الرغم من ذلك، لم يكن الأميركيون، في ذلك الوقت، منعزلين مطلقًا، وقد أصبح المؤرخون الآن عازفين عن استخدام مصطلح «الانعزالية» بوصفه مصطلحًا محايدًا يصف الحال. أحد الأسباب في ذلك أن المصطلح كان يعبر عن نعت سياسي استخدِم لنزع شرعية منتقدي التشابكات الخارجية، ولم يستخدم بشكل متكرر حتى أجبر اندلاع الحرب في أوروبا في عام 1939،

---

(8) هنري ل. ستمسون (Henry L. Stimson) (1867-1950): محامٍ وسياسي جمهوري ورجل دولة أميركي، اشتهر بأثره الكبير على السياسة الخارجية للولايات المتحدة، حيث شغل منصب وزير الحرب بين عامي 1911 و1913، في إدارة الرئيس وليام هاورد تافت، ثم منصب وزير للخارجية بين عامي 1929 و1933، في إدارة الرئيس هربرت هوفر ثم منصب وزير الحرب بين عامي 1940 و1945، في إدارة كل من الرئيسين روزفلت وترومان. (المترجم)

(9) قاعدة الذهب (Gold Standard): نظام مالي يربط العملة بقدر معين من الذهب متفق عليه عالميًا، تضمن الحكومة تغطيته. أي إن الحكومة لا يمكنها طباعة أوراق عملة إضافية من دون تغطيتها بما يعادلها من الذهب ويمكن لأي مواطن، في أي وقت، استبدال ما لديه من أوراق العملة بما يعادلها من الذهب. وقد ألغى روزفلت هذا الارتباط بتوقيعه قانون احتياطي الذهب في عام 1934، وهو القانون الذي ألغى ارتباط الدولار بمعيار الذهب وأوجب على الأميركيين بيع جميع ما يحتفظون به من ذهب على شكل عملات أو سبائك إلى الحكومة الفدرالية. ويعتقد بعض المحللين أن هذه الخطوة خففت من أعباء الكساد العظيم على الحكومة ومكنت الاقتصاد من التعافي تدريجًا، إلا أن ذلك محل خلاف. (المترجم)

الأميركيين على مناقشة مكانهم في الشؤون العالمية. أحد الأسباب الأخرى هو أن العديد من الأميركيين - الأغلبية ربما - الذين لم يريدوا التدخل في حروب أوروبا، كانوا دولانيين عميقي التفكير أرادوا توسيع نطاق المساعدات الإنسانية ومحاولة التوسط في الصراع الدولي من دون توريط أنفسهم مباشرة في القتال. إلا أنهم كانوا عادة يسمون «مناهضي التدخل»، لا انعزاليين. فكما حاججت بروك بلووار[10]، من الأفضل أن يعرف هذا العصر بعصر «الحياد» لا الانعزالية.

تزايدت أهمية هذه الفوارق خلال الثلاثينيات، مع بدء تداعي النظام العالمي الكسيح الذي تم بناؤه عقب الحرب العظمى. كان الكساد هو المصدر الأعظم للاضطراب، حيث شهد صعود قوة النظم الفاشية والقومية المتطرفة في كل من ألمانيا واليابان، والتي أرادت مراجعة شروط معاهدة فرساي في أوروبا ومؤتمر واشنطن في آسيا. وقد استاءت تلك القوى التعديلية (Revisionist powers) من إنشاء بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة لنظام عالمي جديد على حسابها. وأرادت تلك القوى، مدفوعة بهذا الاستياء، إعادة التسلح والانطلاق إلى الهجوم.

أشعلت اليابان الشرارة الأولى للأزمة العالمية، التي سوف تؤدي في النهاية إلى الحرب العالمية الثانية، باستيلائها على منشوريا في عام 1931، وتبعتها إيطاليا بغزوها الحبشة، أحد أعضاء عصبة الأمم، في عام 1935، وشنت القوات الفاشية الإسبانية حربًا أهلية ضد الحكومة المنتخبة ديمقراطيًا في مدريد في عام 1936، وبدأ النازيون، في العام ذاته، برنامجًا هائلًا لإعادة التسلح وأعادوا عسكرة منطقة الراينلاند، في خرق مباشر لشروط معاهدة فرساي.

تصاعدت الأزمة في صيف عام 1937، عندما غزت اليابان الصين. وفي مواجهة مطالب ألمانيا بقطعة كبيرة من أراضي التشيك المستقلة، دعت كل من بريطانيا وفرنسا إلى مؤتمر قمة في ميونخ محاولتين استخدام سياسة «الترضية» بدلًا من اللجوء إلى الحرب. بيد أنه بعد ذلك بأشهر قليلة، خرقت ألمانيا اتفاق

---

(10) بروك بلووار (Brooke Blower): مؤرخة وأستاذة مساعدة في التاريخ بجامعة بوسطن. تركز في كتاباتها وأبحاثها على التاريخ الأميركي الحديث. (المترجم)

ميونخ بتقسيم تشيكوسلوفاكيا ودعم جمهورية سلوفاكية جديدة وغزو باقي الأراضي التشيكية. وفي أواخر شهر آب/ أغسطس، وقعت كل من ألمانيا النازية والاتحاد السوفياتي ميثاق عدم اعتداء مشترك واتفقتا سرًا على تقسيم بولندا نصفين. بعدها بأسبوع، في الأول من شهر أيلول/ سبتمبر 1939، بدأت ألمانيا غزو بولندا، الأمر الذي دفع كلًّا من بريطانيا وفرنسا وكندا إلى إعلان الحرب على ألمانيا. وهكذا، بدأت الحرب العالمية الثانية.

الجدال الكبير واختراع «الأمن القومي»

كان الجدل حول ردة الفعل المناسبة لأميركا على الأزمة العالمية المتصاعدة، يدور في أثناء التراجع العالمي المستمر لكل من الليبرالية والرأسمالية. وسواءً كان يجب تسميتهم بـ«الانعزالين» أم لا، كان للأميركيين المعترضين على التورط النشط في مقاومة الهجوم المناهض لليبرالية، اليد العليا.

كان من الممكن أن تصبح هذه نهاية القصة، لو لم يكن يضم الدولانيون رئيس الولايات المتحدة بين صفوفهم. ففي فترة رئاسته الأولى، لم يعر فرانكلين د. روزفلت الكثير من الانتباه للشؤون الخارجية، ولم يطلق مبادرات خارجية ذات بال، بغض النظر عن الاعتراف الرسمي بالاتحاد السوفياتي. وبخلاف ذلك، كان كل شيء آخر، من سياسة حسن الجوار إلى الحفاظ على الحياد الصارم تجاه الحرب الأهلية الإسبانية، يمثل أكثر السياسات الخارجية خمولًا من بين جميع رؤساء العصر الحديث.

لقد كان السبب وراء هذا الخمول يكمن في ما رآه روزفلت بوصفه مهمته الأولى، ألا وهو انتشال أميركا من الكساد العظيم. ولم يعن ذلك أن التطورات الخارجية لم تكن تقلقه، خاصة تلك الجارية في ألمانيا واليابان. وبحلول عامي 1936 و1937، بدا أن لبرنامج روزفلت للرفاه الاجتماعي في الداخل، الصفقة الجديدة، أثرًا طيبًا في الاستقرار، وأظهر الاقتصاد الأميركي علامات التعافي. وفي ذلك الوقت نفسه، بدأت كل من ألمانيا واليابان هجومهما، الأمر الذي دفع روزفلت إلى تحويل انتباهه من الأزمة الاقتصادية الداخلية إلى الأزمة الأمنية الدولية.

لقد اعتقد روزفلت نفسه أن القوى الرجعية، خاصة ألمانيا، تمثل تهديدًا غير مسبوق لأمن وحتى بقاء الولايات المتحدة وطريقة حياتها. وعلى ذلك، فبداية من عام 1937، وضع الولايات المتحدة في موقف مناهض لألمانيا واليابان، أولًا بالمقاومة البلاغية ثم بإجراءات أكثر صلابة. وبعد أن غزت اليابان الصين، دعا روزفلت الدول الأخرى إلى «عزل» الدول التي تقوض النظام العالمي بعدائيتها. واستمر في خلال الأعوام القليلة التالية يكرر النذير الدولاني، بينما تحركت ألمانيا واليابان باتخاذ خطوات نحو دول أخرى.

بيد أن دعوة روزفلت إلى العزل الجيوسياسي لاقت دعمًا ضئيلًا بين أغلب الأميركيين. فمناهضو التدخل الخارجي، المتنبهون إلى الكيفية التي تم جر بها بلادهم إلى الحرب العظمى على الرغم من المعارضة الواسعة، كانوا يحظون بدعم الرأي العام، ومن ثم قاموا بمدافعة الرئيس. وكان بعض منتقدي روزفلت، مثل السيناتور جيرالد ناي (Gerald Nye) والطيار الشهير تشارلز لندبرغ (Charles Lindbergh)، يماثلون الصورة النمطية للانعزاليين، فقد كانا كارهين للإنكليز ومعادين للسامية والمهاجرين وقاوما أي شكل من أشكال انخراط الولايات المتحدة في الأزمة العالمية. وتحت قيادة لندبرغ، قام العديد منهم بالشيء نفسه تحت شعار أميركا أولًا، أكبر منظمة «انعزالية» في البلاد.

إلا أن أغلب مناهضي التدخل الخارجي لم يوافقوا هذه الصورة النمطية الفجة، بل كانوا بالأحرى، دولانيين ينبذون الحرب. ولم يكن الرمز المشار إليه بينهم رجلًا عنصريًا مثل ناي أو معاديًا للسامية مثل لندبرغ، بل كان هربرت هوفر[11]، الرئيس السابق والحقوقي الغيور. وحاجج مناهضو التدخل الخارجي هؤلاء أن الخطر الأعظم الذي يهدد طريقة الحياة الأميركية كان الحرب ذاتها، بكل

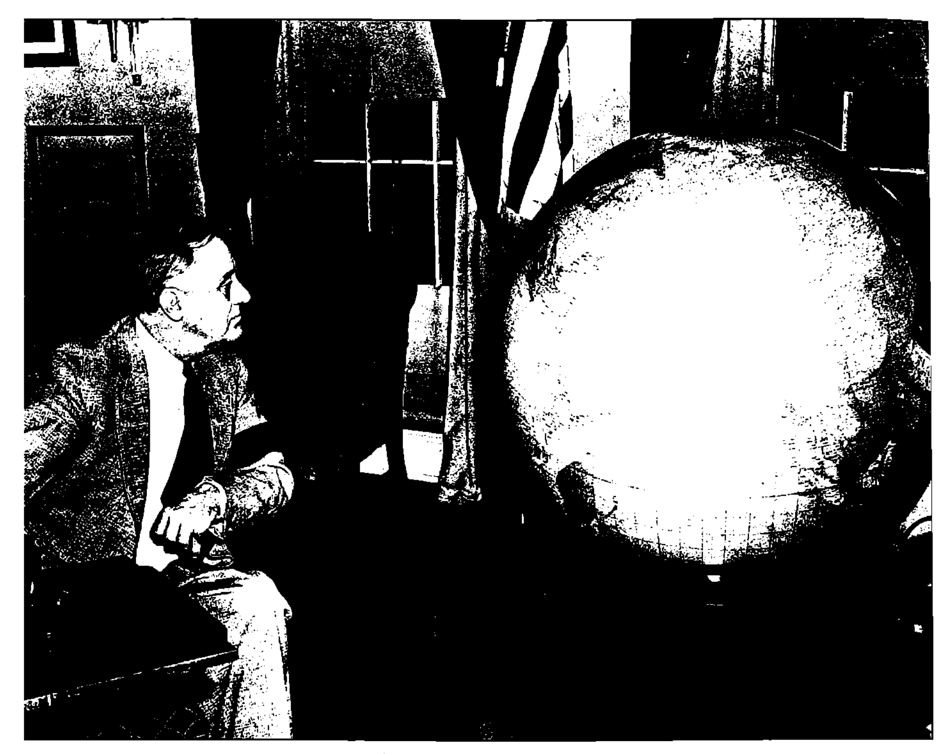
---

(11) هربرت هوفر (Herbert Hoover) (1874–1964): مهندس ورجل أعمال وسياسي أميركي، شغل منصب الرئيس الحادي والثلاثين للولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1929–1933. كان سياسيًا جمهوريًا وشغل مناصب عدة قبل توليه الرئاسة منها مدير الإدارة الأميركية للأغذية في أثناء الحرب العالمية الأولى، وبعدها وزير التجارة. (المترجم)

الأضرار التي سوف تُلحقها بالحريات المدنية والأسواق الحرة في الوطن. وكان لكلماتهم قوة غير عادية، مما صعب على الرئيس حجاجها. كذلك كان المنطق يدعم موقفهم، فبغض النظر عن خسة هذا المنطق أخلاقيًا، كانت ألمانيا تفتقر إلى الأسباب التي تمكنها من مهاجمة الولايات المتحدة، فضلًا عن غزوها واحتلالها، كذلك كانت اليابان. وقال هوفر إن مصلحة الأميركيين تكمن في الابتعاد من هذا الصراع، كما كان عليهم أن يفعلوا في عام 1917. أما تحذير روزفلت بأن القوة الجوية الحديثة جعلت أميركا معرضة للهجوم، فقد كان لدى لندبرغ حجة مضادة قوية، بأن القوة الجوية تمنح الولايات المتحدة دفاعًا لا يمكن اختراقه حرفيًا، في مواجهة قوة خارجية ليس أمامها إلا امتلاك خطوط مواصلات طويلة ممتدة بشكل رفيع على طول المحيط سواءً في البحر أو الجو.

مثّل الجدال الكبير الذي دار حول ما إذا كان على الولايات المتحدة دخول الحرب أم لا، علامة فارقة في التاريخ الدبلوماسي الأميركي، حيث إنه تسبب في أبعد العواقب التي يمكن تخيلها تأثيرًا. فلكي يحاج روزفلت، وغيره من الدولانيين، هوفر وأمثاله، كان عليهم توسيع معنى الدفاع عن النفس ذاته. ففي نظام دولي معولم، لم يعد باستطاعة الأميركيين افتراض أن موقعهم الجغرافي سوف يضمن لهم الأمن، خاصة عندما يدعم الخصوم البعيدون طرائق للحياة سياسية واقتصادية معادية بالكامل للمجتمع الليبرالي الأميركي. فقد حولت التكنولوجيا والأيديولوجيات الشمولية، الأوضاع المريرة التي كانت بعيدة في السابق، إلى تهديدات حقيقية ومباشرة. وحتى لو لم تكن تلك التهديدات وشيكة، فمن الخطر افتراض بقائها كذلك. ولا يمكن لأميركا أن تحيا في العالم الحديث بمفردها. فمن دون عمل أكبر، توقع روزفلت أن تصبح الولايات المتحدة «جزيرة وحيدة في عالم تسيطر عليه فلسفة القوة. وإن جزيرة مثل هذه ربما تكون حلم هؤلاء الذين ما زالوا يتحدثون ويصوتون بوصفهم انعزاليين»، إلا أن ذلك بالنسبة إليه كان «كابوسًا بائسًا لقوم لا حرية لهم - كابوس قوم معتقلين ومكبلين وجوعى يطعمهم أحيانًا من وراء القضبان، أسيادهم في القارات الأخرى متكبرون غير آبهين».

الصورة (4-1)



بتحذيره الشعب الأميركي أنه لم يعد بإمكانه البقاء معزولًا، بعد أن قصرت التكنولوجيا المسافات الجغرافية، أشرف فرانكلين روزفلت على تغيير جذري في الطريقة التي يرى بها الأميركيون مكانهم في العالم الذي ما فتئ يزداد عولمة. في هذه الصورة، من احتفال عيد الميلاد لعام 1942، نراه يتفحص كرة أرضية ضخمة كان يشير إليها في خطبه.

لقد مهدت هذه الزخرفة البلاغية الطريق أمام ما يمكن اعتباره التحول الأهم في تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية بكامله، ألا وهو ثورة الأمن القومي. فبداية من عام 1937، قلل روزفلت من حديثه عن «الدفاع عن النفس» و«المصلحة الوطنية» وزاد من حديثه عن «الأمن القومي». إذا تحدثنا بشكل دقيق، فلابد لـ «الأمن القومي» أن يشير ببساطة إلى أمن الأمة، وبذلك يكون مرادفًا للدفاع عن النفس. وقبل الأزمة العالمية في أواخر الثلاثينيات، كان ذلك يعني حماية السيادة الإقليمية للولايات المتحدة القارية من الهجوم الخارجي. إلا أن روزفلت شعر بأن هذا المفهوم الأضيق للدفاع عن النفس بات قديمًا في عالم يسوده الدكتاتوريون

الشموليون والأسلحة المتطورة. وبردة فعل، ولكي يتغلب على عزوف الأميركيين عن التورط على نطاق عالمي في ظل غياب أي خطر داهم واضح، وسع روزفلت بشدة مفهوم الدفاع عن النفس ليشمل الحماية العالمية للقيم والأفكار الأميركية. فكما أوضح في خطبته عن حالة الاتحاد لعام 1939، حيث قال «سوف يأتي على الناس زمان ليس عليهم فيه حماية أوطانهم فحسب، بل حماية مبادئ الإيمان والإنسانية التي بنيت عليها كنائسهم وحكوماتهم وحضارتهم ذاتها». وكان هذا ما يعنيه روزفلت بـ «الأمن القومي».

من الصعب المبالغة في تقدير أهمية التحول من الدفاع عن النفس إلى الأمن القومي. فتحت الشروط الأضيق للأول، كانت الحاجة إلى التدخل الأميركي في الشؤون العالمية محدودة للغاية. ولكن، تحت غواية الآخر، أصبحت السياسة الخارجية الأميركية أكثر فاعلية بكثير. فتحت مطالب «الأمن القومي» الملحة، سوف يصبح القادة الأميركيون مكبلين ومنطلقين في آن. وسوف يكونون مكبلين من ناحية أن تقديرهم لما إذا كانوا سوف يتدخلون، قد تم تقليله بشكل هائل، ومنطلقين من ناحية زيادة وتيرة مغامراتهم العسكرية. ذلك أن عقيدة الأمن القومي، بتوسيعها معايير الدفاع عن النفس، رفعت رهانات البقاء الأميركي. فإذا كان أمن أميركا يمكن تهديده من أي مكان في العالم فعليًا - أي بتحرك ياباني داخل الهند الصينية أو هجوم ألماني على النرويج، على سبيل المثال - وإذا كان من الممكن تهديده بواسطة الأيديولوجيات المعادية كما الأسلحة، فسوف يصبح تحقيق مستوى مقبول من الأمن أمرًا بالغ الصعوبة، إن لم يكن مستحيلًا. وتحت هذه الظروف، سوف يكون على أي رئيس حصيف الأخذ بالحيطة ومجابهة التهديد مسبقًا، مهما كان بعيدًا وغير مباشر.

بيد أن إعادة تعريف روزفلت الراديكالية لمفهوم الأمن الأميركي لم تترسخ. فقد كان لخطبة حالة الاتحاد، التي ألقاها في عام 1939، تأثير محدود، مثلها في ذلك مثل الخطب التي ألقاها عن «العزل» و«الجزيرة الوحيدة» وعشرات الخطب الأخرى. غير أن رؤية روزفلت الدولانية استطاعت الصمود بفضل شريك لم يكن في الحسبان. فمن دون خطب أدولف هتلر المتطرفة والنجاح الباهر الذي

حققته آلته الحربية النازية في طول أوروبا وعرضها، لم يكن من المرجح أن يتمكن روزفلت من إقناع مواطنيه الأميركيين بالتقاط شعلة القيادة العالمية.

وبينما اجتاحت جيوش هتلر أوروبا، نظر إلى تحذيرات روزفلت في ضوء جديد. ففي عام 1939، غزت ألمانيا بولندا وضمت نصفها (حيث ضم الاتحاد السوفياتي النصف الآخر). وبدأ نوع من «الحرب الزائفة»، قضي أغلبها في التهيؤ والتخطيط، إلا أن التقدم الألماني استؤنف في عام 1940، بعد نهاية الشتاء، حيث سقطت الدنمارك والنرويج في شهر نيسان/ أبريل، وبلجيكا وهولندا في شهر أيار/ مايو، ودخلت القوات النازية باريس في الرابع عشر من شهر حزيران/ يونيو. احتلت القوات النازية نصف فرنسا، بينما حكم نظام عميل النصف الآخر، من مدينة فيشي. ومن ثم وجه سلاح الجو الألماني، اللوفتواف (Luftwaffe)، ناظره إلى بريطانيا، ونقل المراسلون الأميركيون العاملون في لندن الأصوات المرعبة للغارة الجوية، إلى المستمعين المرتاعين في الوطن. ثم سقطت يوغسلافيا واليونان في نيسان/ أبريل 1941. وفي شهر حزيران/ يونيو، استخدم الألمان عنصر المفاجأة لغزو الاتحاد السوفياتي، وبحلول الأسبوع الأول من شهر كانون الأول/ ديسمبر، كانوا على أبواب موسكو. وأصبحت أوروبا الآن بكاملها في متناول قبضة هتلر.

في الوقت نفسه، كانت اليابان تقوم باكتساح آخر في شرق آسيا. فبعد الغزو المبدئي للصين في عام 1937، كان اليابانيون قد غزوا جزءًا كبيرًا من الصين، بما في ذلك جميع موانئها الرئيسة ومدينتي بكين توحيد في كل النص وشنغهاي الكبيرتين، في الوقت التي كانت فيه الدبابات الألمانية تجتاز الحدود السوفياتية في صيف عام 1941. وبعد أن استولت اليابان على أجزاء من الهند الصينية، فرضت إدارة روزفلت حظرًا على صادرات النفط وغيره من أشكال الوقود إلى اليابان (وكانت هذه هي المرة الأولى التي تجر فيها الولايات المتحدة إلى صراع على فيتنام). وكان هذا الحظر يعني أنه سوف يكون على اليابان البحث عن مصدر بديل لجميع احتياجاتها من الطاقة تقريبًا. وقد وجدت هذا المصدر في مستعمرات أوروبا الغنية بالموارد في جنوب شرق آسيا، والتي لم يعد باستطاعة قوى أوروبا المحاصرة الدفاع عنها.

ربما كان روزفلت على حق طوال الوقت بأن أميركا ليس باستطاعتها البقاء

بعيدًا من هذه الحرب. وحتى خريف عام 1941، كان الأميركيون لا يزالون يناقشون الأمر، إلا أن الزخم الآن أصبح في مصلحة مناصري التدخل. وفي السابع من شهر كانون الأول/ ديسمبر 1941، اليوم الذي قال عنه روزفلت «سوف يبقى في ذاكرة الخزي»، وضعت الغارة اليابانية، على القاعدة البحرية الأميركية في بيرل هاربر بجزيرة هاواي، نهاية لهذا النقاش. ولم تكن هاواي في حد ذاتها هدفًا للطموح الإقليمي الياباني، إلا أنهم احتاجوا إلى ضرب الأسطول الأميركي في المحيط الهادئ لكي يتمكنوا من حماية تقدمهم في جنوب شرق آسيا. وبمقتل 2400 أميركي في أثناء الهجوم، انتهى الجدل الدائر حول ما إذا كانت أميركا ستدخل الحرب أم لا.

ومنذ الثامن من كانون الأول/ ديسمبر، وحتى كانون الثاني/ يناير 1942، قامت اليابان بغزو واحتلال كل من الهند الصينية الفرنسية والهند الشرقية الهولندية وهونغ كونغ وسنغافورة والمالايو البريطانية. حتى تايلاند، التي لم يسبق استعمارها، استسلمت. وفي أيار/ مايو، استسلمت الفلبين والقوات الأميركية فيها، بعد قتال ضار استمر ستة أشهر. وأصبحت اليابان الآن تحتل فعليًا الحافة الغربية للمحيط الهادئ بكاملها.

آلة الحرب الشاملة

دخلت الولايات المتحدة الحرب العالمية الثانية حليفة لبريطانيا العظمى والاتحاد السوفياتي والصين. وعلى الرغم من اشتراك بريطانيا، إلى حد ما في مسرح المحيط الهادئ، فقد كانت أميركا هي القوة المقاتلة الوحيدة التي تخوض الحرب على جبهتين منفصلتين. فقد قادت عمليات تحرير الأراضي التي احتلتها قوات المحور في شمال أفريقيا وإيطاليا وفرنسا، وكانت رأس الحربة في حملة المحيط الهادئ. وعمل أكثر من 16 مليون أميركي في خدمة عسكرية من نوع ما. والأهم أن المصانع الأميركية كانت تنتج السلع، من الأسلحة إلى الملابس والأغذية، التي أمدت المجهود الحربي للحلفاء. فليس من الغريب أن يطلق روزفلت على الولايات المتحدة لقب «ترسانة الديمقراطية». وقد كان ذلك حقيقة حتى قبل كانون الأول/ ديسمبر 1941، عندما تبرع برنامج الإعارة والتأجير بما

قيمته ملايين الدولارات من العتاد الحربي لكل من بريطانيا والاتحاد السوفياتي. وما إن دخلت الولايات المتحدة الحرب، حتى زادت المساعدات تصاعديًا، وعُزي نصر الحلفاء في النهاية، إلى حد بعيد، إلى الإنتاج الصناعي الأميركي غير المسبوق وإلى حقيقة أن الصناعة الأميركية كانت بعيدة جدًا عن مدى القاذفات الألمانية واليابانية.

كذلك كان انخراط الجيش الأميركي في القتال حاسمًا. ففي المسرح الأوروبي، قاتل الأميركيون إلى جانب القوات البريطانية والكندية وكذلك الجنود المنفيين من فرنسا وهولندا والنرويج وبولندا. كان القادة البريطانيون يرغبون في تجنب تكرار تجربة مذابح الحرب العالمية الأولى المتمثلة في حرب الخنادق، لذلك أقنعوا نظراءهم الأميركيين بأن الهجوم الأمامي على أوروبا سيكون انتحاريًا. وقد تأكدت مخاوفهم بالمحاولة الكندية الكارثية لإنزال قواتهم في دياب (Dieppe)، على الساحل الفرنسي، في آب/ أغسطس 1942. وبدلًا من ذلك، تبعت القوات الأميركية والبريطانية طريقًا جنوبيًا نحو أوروبا، حيث بدأوا بغزو شمال أفريقيا في تشرين الثاني/ نوفمبر 1942، ومن ثم صقلية في تموز/ يوليو 1943، وإيطاليا في أيلول/ سبتمبر 1943. وفي حزيران/ يونيو 1944، في الإنزالات الشهيرة ليوم النصر، على شواطئ نورماندي، قامت القوات الأميركية والبريطانية والكندية بالتوغل الناجح داخل أوروبا المحتلة بواسطة النازيين، وبحلول آب/ أغسطس كانوا قد حرروا باريس. إلا أن التقدم شمالًا نحو البلدان المنخفضة[12] بدا أكثر صعوبة، ولكن في كانون الثاني/ يناير، وبعد أن أنجد الجنرال جورج باتون (George Patton) القوات الأميركية المحاصرة في غابات الأردين (Ardennes) خلال معركة الثغرة التي استمرت ستة أسابيع، أفتتح الطريق إلى داخل ألمانيا ذاتها. أما على الجبهة الشرقية، حيث كان القتال أكثر ضراوة ودموية، استمر الجيش السوفياتي الأحمر في دفع الألمان إلى الوراء.

وفي الوقت نفسه الذي كانت القوات الأميركية والبريطانية تندفع فيه إلى

---

(12) البلدان المنخفضة (Low Countries): اسم يطلق على كل من هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ، التي تقع الكثير من أراضيها تحت مستوى سطح البحر. (المترجم)

داخل ألمانيا من الغرب، كان السوفيات يندفعون من الشرق. في هذه الأثناء، كانت قاذفات الحلفاء تدك الأهداف النازية في طول أوروبا وعرضها، خاصة في ألمانيا، ولكن أيضًا في المدن الاستراتيجية للبلدان المحتلة من النازيين. وفي الثامن من أيار/ مايو 1945، انتهت الحرب في أوروبا.

أما في آسيا والمحيط الهادئ، كان الدور الأميركي أكثر غلبة بكثير - فمن دون الانخراط الأميركي المباشر، ما كانت هزيمة اليابان مؤكدة على الإطلاق. فبعد الهجوم الياباني على هاواي وجنوب شرق آسيا في كانون الأول/ ديسمبر 1941 وكانون الثاني/ يناير 1942، اتخذت أميركا وحلفاؤها - بالأساس الصين وبريطانيا وأستراليا ونيوزيلاندا وقوات المقاومة المنتشرة عبر القارة، مثل الفيت مين في فيتنام - موقع الدفاع. إلا أنه في حزيران/ يونيو 1942، شهدت معركة ميدواي البحرية نصرًا أميركيًا ساحقًا وتراجعًا كبيرًا للقوة البحرية اليابانية، الأمر الذي مكن القوات الأميركية من استغلال تفوقها الجوي والبحري لدفع اليابانيين إلى الوراء عبر المحيط الهادئ. والتمست القوات الأميركية طريقها إلى الفلبين قفزًا عبر الجزر مستولية على قطع الأرض الصغيرة المعزولة التي من الممكن أن تصبح قواعد للطيران الياباني.

وبحلول عام 1943، كانت الولايات المتحدة قد فرضت سيطرتها في الجو وكانت تُلحق ضررًا لم يستطع اليابانيون تحمله. وبينما تكبد الأميركيون كذلك خسائر ثقيلة، إلا أن دولة الحرب الصناعية في الوطن استطاعت استبدالها سريعًا. وعادت القوات الأميركية إلى الفلبين في نهاية عام 1944، وبدأت الزحف على الجزر اليابانية بالإنزالات التي قامت بها في جزيرتي إيوجيما وأوكيناوا في أوائل عام 1945، وبات من الممكن غزو اليابان ذاتها في نهاية العام. وخلال عامي 1944 و1945، دكت الطائرات الحربية الأميركية اليابان من الجو. أما في القارة، فقد بدأت القوات الصينية تكتسب اليد العليا في حرب الاستنزاف الضارية التي خاضتها ضد الاحتلال الياباني. وانتهت الحرب في آب/ أغسطس 1945، عندما انضم الاتحاد السوفياتي إلى حملة الحلفاء وعندما استخدمت الولايات المتحدة الأسلحة النووية للمرة الأولى في التاريخ. وقد أجبر القصف الذري للمدينتين

اليابانيتين، هيروشيما وناغازاكي، والغزو المرتقب بواسطة الولايات المتحدة، اليابان على الاستسلام. وانتهت الحرب في آسيا والمحيط الهادئ في الخامس عشر من آب/ أغسطس 1945.

لقد كان مجهود الولايات المتحدة هائلًا وضروريًا، إلا أنه يجب أن لا يغطي على الأعمال الكبيرة لحلفائها. فالإسهام الأميركي في هزيمة ألمانيا، على سبيل المثال، كان مهمًا ولكن ليس حاسمًا. فقد كان السوفيات الذين تكبدوا خسائر عسكرية أكبر من الولايات المتحدة بثلاثين مرة في أوروبا، هم من تحمل العبء الأكبر لحملة الحلفاء. وبالنسبة إلى عدد السكان، كانت الخسائر البريطانية والكندية أيضًا أكبر إلى حد كبير. أما في شرق آسيا، فقد أدت جيوش الصين الدور الذي أداه الجيش الأحمر في أوروبا، حيث ثبتوا القوة الأكبر لقوات العدو البرية، بينما دخلت الولايات المتحدة من الجناح المقابل بتكنولوجيتها العسكرية المتقدمة في الجو والبحر. وكانت الخسائر الأميركية، إلا أنها لم تكن شيئًا إذا قورنت بخسائر الصينيين.

ومهما كان الأمر، فقد كان المجهود الحربي الأميركي مثيرًا للإعجاب من نواح عديدة. فهي الوحيدة من بين جميع المتحاربين التي شنت حربًا عالمية بحق على جبهتين منفصلتين. فعلى الرغم من اشتراك بريطانيا في الحرب في آسيا، إلا أن دورها هناك كان أصغر بكثير من دورها في أوروبا. وكان دخول أميركا الحرب، في أواخر عام 1941، هو الذي ربط الصراعات الإقليمية المتعددة بعضها مع بعض في حرب عالمية واحدة، وكانت الولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي أدى دورًا رئيسًا في كل ركن من أركانها المتباعدة. إضافةً إلى أنه لولا دخول أميركا الحرب، لم تكن اليابان وألمانيا لتُهزما على الأرجح.

كانت الولايات المتحدة أيضًا فريدة من حيث تجنبها للدمار الذي أحدثته الحرب. فعلى الرغم من أن 400,000 أميركي فقدوا أرواحهم في أثناء القتال، الأمر الذي جعل هذه الحرب ثاني الحروب دموية في التاريخ الأميركي بعد الحرب الأهلية - إلا أن هذه الخسائر كانت صغيرة بالمقارنة مع أعداد من قُتلوا من جنود اليابان (مليونين في الأقل)، والصين (ثلاثة ملايين في الأقل) وألمانيا

داخل ألمانيا من الغرب، كان السوفيات يندفعون من الشرق. في هذه الأثناء، كانت قاذفات الحلفاء تدك الأهداف النازية في طول أوروبا وعرضها، خاصة في ألمانيا، ولكن أيضًا في المدن الاستراتيجية للبلدان المحتلة من النازيين. وفي الثامن من أيار/ مايو 1945، انتهت الحرب في أوروبا.

أما في آسيا والمحيط الهادئ، كان الدور الأميركي أكثر غلبة بكثير - فمن دون الانخراط الأميركي المباشر، ما كانت هزيمة اليابان مؤكدة على الإطلاق. فبعد الهجوم الياباني على هاواي وجنوب شرق آسيا في كانون الأول/ ديسمبر 1941 وكانون الثاني/ يناير 1942، اتخذت أميركا وحلفاؤها - بالأساس الصين وبريطانيا وأستراليا ونيوزيلاندا وقوات المقاومة المنتشرة عبر القارة، مثل الفيت مين في فيتنام - موقع الدفاع. إلا أنه في حزيران/ يونيو 1942، شهدت معركة ميدواي البحرية نصرًا أميركيًا ساحقًا وتراجعًا كبيرًا للقوة البحرية اليابانية، الأمر الذي مكن القوات الأميركية من استغلال تفوقها الجوي والبحري لدفع اليابانيين إلى الوراء عبر المحيط الهادئ. والتمست القوات الأميركية طريقها إلى الفلبين قفزًا عبر الجزر مستولية على قطع الأرض الصغيرة المعزولة التي من الممكن أن تصبح قواعد للطيران الياباني.

وبحلول عام 1943، كانت الولايات المتحدة قد فرضت سيطرتها في الجو وكانت تُلحق ضررًا لم يستطع اليابانيون تحمله. وبينما تكبد الأميركيون كذلك خسائر ثقيلة، إلا أن دولة الحرب الصناعية في الوطن استطاعت استبدالها سريعًا. وعادت القوات الأميركية إلى الفلبين في نهاية عام 1944، وبدأت الزحف على الجزر اليابانية بالإنزالات التي قامت بها في جزيرتي إيوجيما وأوكيناوا في أوائل عام 1945، وبات من الممكن غزو اليابان ذاتها في نهاية العام. وخلال عامي 1944 و1945، دكت الطائرات الحربية الأميركية اليابان من الجو. أما في القارة، فقد بدأت القوات الصينية تكتسب اليد العليا في حرب الاستنزاف الضارية التي خاضتها ضد الاحتلال الياباني. وانتهت الحرب في آب/ أغسطس 1945، عندما انضم الاتحاد السوفياتي إلى حملة الحلفاء وعندما استخدمت الولايات المتحدة الأسلحة النووية للمرة الأولى في التاريخ. وقد أجبر القصف الذري للمدينتين

اليابانيتين، هيروشيما وناغازاكي، والغزو المرتقب بواسطة الولايات المتحدة، اليابان على الاستسلام. وانتهت الحرب في آسيا والمحيط الهادئ في الخامس عشر من آب/ أغسطس 1945.

لقد كان مجهود الولايات المتحدة هائلًا وضروريًا، إلا أنه يجب أن لا يغطي على الأعمال الكبيرة لحلفائها. فالإسهام الأميركي في هزيمة ألمانيا، على سبيل المثال، كان مهمًا ولكن ليس حاسمًا. فقد كان السوفيات الذين تكبدوا خسائر عسكرية أكبر من الولايات المتحدة بثلاثين مرة في أوروبا، هم من تحمل العبء الأكبر لحملة الحلفاء. وبالنسبة إلى عدد السكان، كانت الخسائر البريطانية والكندية أيضًا أكبر إلى حد كبير. أما في شرق آسيا، فقد أدت جيوش الصين الدور الذي أداه الجيش الأحمر في أوروبا، حيث ثبتوا القوة الأكبر لقوات العدو البرية، بينما دخلت الولايات المتحدة من الجناح المقابل بتكنولوجيتها العسكرية المتقدمة في الجو والبحر. وكانت الخسائر الأميركية، إلا أنها لم تكن شيئًا إذا قورنت بخسائر الصينيين.

ومهما كان الأمر، فقد كان المجهود الحربي الأميركي مثيرًا للإعجاب من نواح عديدة. فهي الوحيدة من بين جميع المتحاربين التي شنت حربًا عالمية بحق على جبهتين منفصلتين. فعلى الرغم من اشتراك بريطانيا في الحرب في آسيا، إلا أن دورها هناك كان أصغر بكثير من دورها في أوروبا. وكان دخول أميركا الحرب، في أواخر عام 1941، هو الذي ربط الصراعات الإقليمية المتعددة بعضها مع بعض في حرب عالمية واحدة، وكانت الولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي أدى دورًا رئيسًا في كل ركن من أركانها المتباعدة. إضافةً إلى أنه لولا دخول أميركا الحرب، لم تكن اليابان وألمانيا لتُهزما على الأرجح.

كانت الولايات المتحدة أيضًا فريدة من حيث تجنبها للدمار الذي أحدثته الحرب. فعلى الرغم من أن 400,000 أميركي فقدوا أرواحهم في أثناء القتال، الأمر الذي جعل هذه الحرب ثاني الحروب دموية في التاريخ الأميركي بعد الحرب الأهلية – إلا أن هذه الخسائر كانت صغيرة بالمقارنة مع أعداد من قُتلوا من جنود اليابان (مليونين في الأقل)، والصين (ثلاثة ملايين في الأقل) وألمانيا

(أربعة ملايين ونصف مليون في الأقل)، والاتحاد السوفياتي (عشرة ملايين في الأقل). هناك أيضًا إحصائية أكثر دلالة، ألا وهي عدد المدنيين الأميركيين الذي قضوا في الحرب، وهو نحو 12,000، مقارنة بعشرات الملايين من المدنيين الذين قضوا في أوروبا وآسيا. لم تكن الأرقام دقيقة، ولكن في الأقل عشرة ملايين صيني وخمسة عشر مليون سوفياتي غير مقاتل لقوا حتفهم. وكان ذلك بسبب أن الولايات المتحدة كانت الوحيدة من بين الأطراف المتحاربة التي لم تشهد أي قتال على أرضها. فباستثناء الغارة على بيرل هاربر، واحتلال اليابان لجزيرتين من جزر ألوتيان الصغيرة البعيدة، وبعض الهجمات اليابانية المتقطعة غير الفعالة على الساحل الغربي للولايات المتحدة. لم يعانِ الأميركيين من الغارات الجوية وحروب المدن والمجازر العرقية، التي كانت جزءًا من التجربة الجماعية لشعوب أوروبا وآسيا، ولم يروا شوارعهم وسكك حديدهم وجسورهم ومستشفياتهم وكنائسهم ومصانعهم تسوى بالأرض. في المقابل، عانت بريطانيا التي تجنبت مثلها مثل الولايات المتحدة الغزوَ والاحتلال دمارًا هائلًا وخسائر في المدنيين نتيجة القصف الألماني. والحق أن الصناعة الأميركية لم تتجنب الدمار فحسب، بل انتعشت أيضًا نتيجة الحرب. فالطلب على إعادة التسلح وليس الإصلاحات الاقتصادية لبرنامج الصفقة الجديدة الذي أطلقه روزفلت هو الذي انتشل الولايات المتحدة من الكساد إلى الرخاء. لقد انتقِدت فكرة أن الحرب العالمية الثانية كانت فترة من الانسجام والوحدة الوطنية الكاملة، وهو نقد في محله، إلا أنه بالمقارنة مع تجربة جميع البلدان الأخرى، فقد حظيت الولايات المتحدة حقًا بـ «حرب جيدة».

عودة وودرو ويلسون

إن اجتماع هذين العاملين - حقيقة أن مآل الحرب كانت إلى حد كبير نتيجة التدخل الأميركي، وكذلك أن الحرب كانت خيرًا وبركة على الولايات المتحدة في الوقت الذي كان فيه جميع أقرانها قد حطموا، ماديًا وماليًا ونفسيًا - كان حاسمًا في تطور النظام الدولي ما بعد الحرب. فبحلول صيف عام 1945، كانت ألمانيا واليابان قد دُمرتا، وحتى المنتصرون ظاهريًا - بريطانيا والصين وفرنسا والاتحاد السوفياتي - كان أمامهم سنوات من مجهودات كبرى لإعادة التعمير.

وقد أعطى هذا الولايات المتحدة اليد العليا في تحديد الشكل الذي سوف يتخذه النظام الدولي. إلا أن الأميركيين بالطبع لم يمتلكوا جميع مفاتيح القوة - فمآل الحرب مكن أيضًا الاتحاد السوفياتي، على الرغم من تحطمه - ولم تكن واشنطن تستطيع ببساطة فرض شروطها على باقي العالم. إلا أن الحرب منحت الأميركيين اليد العليا في تخطيط الحلفاء للنظام العالمي ما بعد الحرب. وسوف يكون على الجميع التسليم لوجهة النظر الأميركية في معظم المسائل، في حين لم يتنازل الأميركيون لغيرهم إلا نادرًا. فقد تعاون التحالف الكبير بين الاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة، على نطاق لا يمكن تخيله، لهزيمة عدو مشترك ذي وحشية لا مثيل لها. إلا أنه خلال تلك الشراكة، كان للأميركيين المكانة الأولى بين متساوين.

مما يفسر الكثير أن الولايات المتحدة كانت وحدها من انخرط في تخطيط مستمر لما بعد الحرب في أثناء الحرب ذاتها، فالدول الأخرى كانت منشغلة للغاية في كفاحها من أجل البقاء، بحيث لم تستطع صرف الكثير من الانتباه لما سوف يحدث بعد نهاية الحرب. وعلى ذلك، ففي جميع الإعلانات الكبرى لأهداف ما بعد الحرب التي تم إصدارها زمن الحرب، كان الحلفاء يتبعون أميركا. وكانت هذه هي الحال في ميثاق الأطلسي 1941، وإعلان الأمم المتحدة 1942، ومؤتمرات القمة في كازابلانكا والقاهرة ومالطا وطهران ويالطا. وفي مؤتمر عقد في عام 1944 في نيوهامشر، أسست أميركا وحلفاؤها نظام بريتون وودز، النظام النقدي الدولي المبني على الدولار الأميركي[13]. وتم تأسيس الأمم المتحدة،

(13) نظام بريتون وودز الاقتصادي العالمي (Bretton Woods System): اعتبر هذا النظام خليفة لنظام قاعدة الذهب في الاقتصاد العالمي، ويقضي بأن ترتبط جميع عملات العالم بالدولار الأميركي، بحيث يصبح لكل عملة محلية قيمة محددة بالدولار الأميركي. أما الدولار فسوف يكون العملة المركزية في العالم والوحيدة المرتبطة بقدر محدد من الذهب. وعلى ذلك تم إنشاء بعض المؤسسات الاقتصادية العالمية التي كان من شانها دعم هذا النظام المالي العالمي ومساعدة الدول الفقيرة على الوفاء بمتطلباته. فتم إنشاء البنك الدولي ليقوم بدعم الاقتصادات النامية، وصندوق النقد الدولي لكي يساعد الدول في الحفاظ على عملتها مثبتة في مقابل الدولار وكمقرض الملاذ الأخير. ولم ينجح المؤتمر في إنشاء منظمة دولية للتجارة العالمية، فقاموا بتوقيع اتفاقية الجات (الاتفاقية العامة للتعريفات الجمركية والتجارة)، واعتبروها الخطوة الأولى في التحرير الكامل للتجارة العالمية. وبهذا تأسس نظام بريتون وودز المالي العالمي، وقد شهدت الفترة التي =

المنظمة التي سوف تخلف عصبة الأمم، في مؤتمر بمدينة سان فرانسسكو في ربيع عام 1945، حيث وافق المبعوثون على أن يكون مقرها الدائم بمدينة نيويورك. كانت فكرة الأمم المتحدة تتمتع بشعبية كبيرة بين الأميركيين، خاصة الجماعات المهمشة مثل الأميركيين الأفارقة. بيد أن روزفلت الحذر قارب الأمم المتحدة بوصفه «ويلسونيًا واقعيًا»، فوفقًا لمقولة وارن كيمبال[14] الشديدة الذكاء: سوف تشكل القوى الخمس المنتصرة في الحرب العالمية الثانية - بريطانيا والصين وفرنسا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة - مجلس الأمن وسوف يكون لكل منها حق الاعتراض على جميع قرارات الأمم المتحدة، ومنعت الأمم المتحدة من التدخل في السيادة الداخلية للدول الأعضاء. وبالمقارنة مع كل هذا التخطيط الأميركي لما بعد الحرب، لم تكن هناك مبادرات بريطانية أو سوفياتية ذات بال، بخلاف أمل بريطاني في إحياء اتحاد الكومنولث وتصميم سوفياتي للسيطرة على شرق أوروبا.

لقد كان هنري لوس ذا بصيرة - فقد تبين أن عام 1941 هو بداية قرن أميركي. إلا أن الولايات المتحدة لم تكن مطلقة القوة. ففي خلال الحرب الباردة، كان الاتحاد السوفياتي خصمًا قريبًا، ولاحقًا سوف تتعرض القوة العسكرية الأميركية للإذلال عدة مرات. ولكن، حتى وإن لم يكونوا مطلقي القوة، كان الأميركيون هم الشعب الأقوى في العالم. فقد وضعوا وتيرة النظام الدولي وحددوا نبرته ومحتواه. أما تلك الأجزاء من العالم التي لم ترد العيش في قرن أميركي، فلم تستطع الهروب من قبضته. والحق أن صفة هذه الصدامات في رؤية العالم هي التي أدت، بالتحديد، إلى الحقبة التي بزغت فيها القوة الأميركية، ألا وهي الحرب الباردة.

= طبق فيها أكثر فترات الاقتصاد الدولي استقرارًا حتى وقعت صدمة نيكسون عام 1971، والتي انهار بعدها هذا النظام المالي العالمي. (المترجم)

(14) وارن كيمبال (Warren Kimball): أستاذ متقاعد بقسم للتاريخ بجامعة روتجرز. تخصص في تاريخ العلاقات الخارجية الأميركية، وهو مؤلف كتاب **المسبوك بالحرب: روزفلت وتشرشل والحرب العالمية الثانية** (*Forged in War: Roosevelt, Churchill, and the Second World War*)، المنشور في عام 1997. (المترجم)

الفصل الخامس

قوة عظمى

بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية في عام 1945، بقيت قوتان كبيرتان فقط على الساحة العالمية. كانت الولايات المتحدة، بكل وضوح، المنتصر الوحيد الحقيقي في الحرب، حيث خرجت منها سالمة مزدهرة إلى حد كبير، تتمتع باحتكار الأسلحة الذرية وتمتلك التكنولوجيا الأكثر تطورًا (تجاريًا وعسكريًا) وسيطرة شبه تامة على الجو والبحر عالميًا. وبخلاف أوروبا الشرقية، لم يكن هناك بالكاد أي مكان في العالم لا تستطيع فيه الولايات المتحدة إبراز قوتها في الحال.

قوة واحدة فقط هي التي كانت تستطيع الحد من الجبروت الأميركي، ألا وهي الاتحاد السوفياتي. ففي أوروبا الشرقية والوسطى، كان الجيش الأحمر مسيطرًا بالكامل، وكانت الأيديولوجيا الشيوعية تتمتع بالاحترام حول العالم نظرًا إلى كونها القوة الرائدة المناهضة للفاشية والنازية والاستعمار. فمن أوروبا إلى جنوب شرق آسيا، كان الشيوعيون في مقدمة حركات المقاومة، وكان الاتحاد السوفياتي قد عانى الخسائر الأعظم من أي قوة أخرى شاركت في الحرب العالمية الثانية، نظرًا إلى هزيمته آلة الحرب النازية على الجبهة الشرقية. لذلك، راكمت الشيوعية السوفياتية احتياطيات كبيرة من التقدير والإعجاب حول العالم.

إن الفارق الهائل في القوة بين هذين العملاقين الجيوسياسيين الجديدين وباقي دول العالم كان من العظم بمكان، إلى الدرجة التي أكسبت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تصنيفًا جديدًا، حيث أصبح كل منهما قوة عظمى. فقد قزمت قوتهما ببساطة جميع القوى الأخرى. لقد أصبح العصر الحديث قرنًا أميركيًا، ولكن ليس بالكامل، فقد أصبح أيضًا قرنًا شيوعيًا إلى حد كبير. وربما لم يكن من قبيل المصادفة أن تولد كلتاهما في عام 1917، بردة فعل على الحرب العظمى، حيث خرجت الدولانية الليبرالية من رحم الويلسونية وخرجت

الدولانية الشيوعية من رحم اللينينية. وبينهما، حمل الأميركيون والسوفيات مصير العالم بين أيديهم. وإن كان سيكون هناك سلام دائم وعادل بعد عام 1945، فلابد أن يصبح أساسه تفاهمًا بين واشنطن وموسكو.

لم تكن هذه فكرة خيالية أو غير واقعية، كما قد يبدو عليها بالنظر إلى الماضي بأثر رجعي. فعلى الرغم من كل شيء، كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا قد شكلت التحالف الكبير، وتعاونت على هزيمة قوى المحور. ربما تخلل ذلك بعض الشجار بالطبع، إلا أنها أيضًا اشتركت في شن حرب معقدة على نطاق عالمي. وذهب روزفلت نفسه إلى مثواه الأخير معتقدًا أن التعاون يمكن أن يستمر إلى حقبة ما بعد الحرب، وهناك القليل من الأدلة التي يمكن أن توحي بأن جوزف ستالين[1] شعر بشيء مختلف.

بيد أن التعاون لم يستمر، بل عانى العالم جراء أربعة عقود من التوتر الوجودي بين السوفيات والأميركيين. ما الذي يفسر إذًا انهيار هذا التحالف الكبير؟ ولماذا انتقل السوفيات والأميركيون من التعاون في حرب عالمية، إلى مقاومة بعضهما بعضًا في الحرب الباردة؟

تولي السيطرة

لم تكن المبادئ المنظمة لكل من «إمبراطورية الحرية» الأميركية و«إمبراطورية العدالة» السوفياتية، كما أشار المؤرخ أود أرني ويستاد[2]، مختلفة

---

(1) جوزف ستالين (Josef Stalin) (1878-1953): ثوري جورجي وسياسي سوفياتي كان ثاني من حكم الاتحاد السوفياتي من منتصف عشرينيات القرن العشرين حتى وفاته في عام 1953. شغل منصب الأمين العام للحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي بين عامي 1922 و1952، ومنصب رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي بين عامي 1941 و1953. بدأ فترة حكمه بوصفه جزءًا من قيادة جماعية من قيادات الحزب الشيوعي، إلا أنه استطاع الإطاحة بهم جميعًا ليصبح الحاكم المستبد الأوحد للاتحاد السوفياتي منذ أوائل الثلاثينيات. اشتهر بسياساته القمعية الشديدة القسوة والمجاعات التي راح ضحيتها ملايين البشر في أثناء فترة حكمه. قاد الاتحاد السوفياتي خلال الحرب العالمية الثانية، وبدايات الحرب الباردة. خلفه نيكيتا خروشوف، الذي دان سياسات ستالين سرًا وبدأ في إجراءات لإلغاء كثير منها. (المترجم)

(2) أود أرني ويستاد (Odd Arne Westad): مؤرخ وأستاذ التاريخ بجامعة ييل. متخصص بتاريخ الحرب الباردة وتاريخ شرق آسيا الحديث. درّس في جامعات عديدة مرموقة منها جامعة هارفارد وكلية لندن للاقتصاد. (المترجم)

فحسب، بل كانت متعارضة بالكلية. وكان للأيديولوجيا، بالطبع، الدور الأكبر في ذلك التعارض. فبالنسبة إلى الأميركيين، كانت الشيوعية السوفياتية تمثل نقيضًا لكل معتقداتهم الأثيرة، فبدلًا من الديمقراطية الليبرالية، كان هناك الديمقراطية الشعبية، والعدالة الجمعية بدلًا من الحقوق الفردية، والاقتصاد الموجه بدلًا من الأسواق الحرة، والشيوعية بدلًا من الملكية الخاصة، والإلحاد بدلًا من الدين. وعلى الرغم من تخفيف ستالين للدولانية الثورية في خلال الثلاثينيات، كانت الأيديولوجيا الشيوعية تؤكد حاجتها إلى الانتشار، وبدأ الأميركيون يرون أن ما يجمع النازية والشيوعية أكثر مما يفرقهما، وبدأ مصطلح جديد يظهر لوصف مثل هذه الأنظمة غير الليبرالية مثل الشمولية. إلا أن الأيديولوجيا كانت ظرفًا ضروريًا لا سببًا كافيًا لهذا الشقاق، فعلى الرغم من كل شيء، اعترفت واشنطن بموسكو في عام 1933، وتعايش البلدان في سلام منذ ذلك الحين. كذلك، فالأميركيون طالما عقدوا تحالفات مع بلاد تمثل أيديولوجيات مختلفة، وما زالوا يفعلون، سواءً كانت هذه الأنظمة ثيوقراطية أو استبدادية، وطالما كان هناك توترات بينهم وبين الدول ذات الفكر المتقارب مثل بريطانيا وفرنسا.

كان للظروف دور كذلك، وقد أسفرت الأحداث عن كثير من أسباب انعدام الثقة بين الأميركيين والسوفيات. فقد تدخلت القوات الأميركية ضد البلاشفة في الحرب الأهلية الروسية، وظلت واشنطن، لستة عشر عامًا، ترفض الاعتراف بحق الاتحاد السوفياتي الشرعي في الوجود. أما السوفيات، فقد تخلوا عن نصيبهم القليل من حسن النية عندما وقع ستالين معاهدة عدم اعتداء مع هتلر في شهر آب/أغسطس 1939، ومن ثم قام بغزو بولندا من الشرق بينما كانت ألمانيا تغزوها من الغرب، وبعد أن غزا الجيش الأحمر نصف بولندا، قام بغزو فنلندا المسالمة. وفي خلال تلك الفترة، بما فيها فترة الحرب العالمية الثانية، ظل العملاء السوفيات يتجسسون، من دون كلل، على حلفائهم الأميركيين (والبريطانيين). وقد شكّل الفريقان تحالفًا عسكريًا، إلا أنهما لم يشتركا في القتال قط، بخلاف القوات البريطانية والكندية التي تعاونت من كثب مع القوات الأميركية في أوروبا، وقامت معًا بعدة عمليات مشتركة. الأمر الأكثر أهمية كان التكامل الأنكلو-أميركي الوثيق في أمور الاستخبارات والأسلحة النووية، فقد كان المسؤولون الأميركيون

يعلمون بسر بريطانيا الاستخباري الذي تحرسه أكثر من غيره، مشروع ألترا لفك الشيفرة[3]، بل كانوا يستخدمون المعلومات التي ينتجها بشراكة سلسة مع أقرانهم البريطانيين. أما البريطانيون، فقد دُعوا في المقابل للعمل في مشروع مانهاتن لتطوير القنبلة الذرية[4]. أما السوفيات، فلم يخطر في بال الأميركيين قط دعوتهم لمثل هذه الثقة البالغة. فقد كانت الثقة الحقيقية بين واشنطن وموسكو نادرة دائمًا، وبنهاية الحرب، كانت هذه الثقة قد اختفت بالكلية. وعندما لم يعد هناك عدو مشترك يوحدهم خوفًا، لم يعد بين الأميركيين والسوفيات أي احتياطي من ثقة أو عاطفة توحدهم في طلب السلم. بيد أن الدول تتحمل وجود الكثير من الدول الأخرى التي لا تثق بها، ولم يكن على الأميركيين والسوفيات الثقة في بعضهم بعضًا لكي يوافقوا على مشاركة الكوكب بسلام. إذًا، فقد كان انعدام الثقة أيضًا ظرفًا ضروريًا، لكنه كذلك، لم يكن سببًا كافيًا للشقاق.

على الرغم من المصطلحات الاستراتيجية الدفاعية التي باتت تعرِّف الصراع - الاحتواء أو الردع، على سبيل المثال - لم تتعلق الحرب الباردة بأي شيء ساكن أو غير فعال، فقد كانت تلك منافسة بادر طرفاها إليها، بل كانت عملية ماضية لها الهدف نفسه كغيرها من الحروب، النصر. لذلك، فلكي ينخرط الطرفان تمامًا في هذا الصراع، كان لابد لشيء ما أن يحفز كلًّا من الأيديولوجيا وانعدام الثقة حتى ينقلبا إلى حالة نشطة من العداء.

كان الحافز لكل من واشنطن وموسكو هو السيطرة - أو بالأحرى غياب

---

(3) مشروع ألترا (Ultra) الاستخباري: مشروع تبنته الاستخبارات العسكرية البريطانية لفك الشيفرة المعقدة لآلة (إنجما) الألمانية. وبعد عمل مضنٍ، نجح عالم الرياضيات آلان تورنغ وفريقه أخيرًا في فك شيفرات تقارير الغواصات الألمانية التي تكشف مواقعها والهجمات التي تعتزم القيام بها. وقد نجحت الاستخبارات البريطانية في الإبقاء على هذا السر طوال فترة الحرب، ويعتقد أنه كان من أعظم عوامل انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. (المترجم)

(4) مشروع مانهاتن (Manhattan Project) لتطوير القنبلة الذرية: مشروع للبحث والتطوير بدأته الولايات المتحدة أواخر عام 1939، في أثناء الحرب العالمية الثانية، لاستكشاف الاستعمالات العسكرية المحتملة للطاقة الذرية. قاد فريق العلماء العاملين بالمشروع الفزيائي الأميركي روبرت أوبنهايمر. وقد نجح المشروع في إنتاج أول قنبلة ذرية في التاريخ، والتي تم إسقاطها على مدينة هيروشيما اليابانية في السادس من آب/ أغسطس 1945. (المترجم)

السيطرة. لقد أراد كلا البلدين تجنب التدخل في الحرب العالمية الثانية، واستطاعا فعل ذلك حتى عام 1941. إلا أنه تم جرهما إليها رغم أنفهما بعد أن تعرضا لهجمات مفاجئة. ومن ثم قام كل منهما بحشد مجتمعه بكامله في سبيل شن حرب شاملة في عام 1945، ثم أصبح كل منهما عازمًا على عدم وضع نفسه في مثل هذا الموقف مرة أخرى أبدًا، على أن لا يسمحا للبيئة الخارجية أن تتغير بشكل يجعلهما معرضين لخطر الظروف المتجاوزة لسيطرتهما، وسوف يستخدمان قوتهما المؤسسة حديثًا حتى يصبحا أسياد مصائرهما.

كان ذلك يعني أنه لا مكان للتنازل. فعندما اجتمع الحلفاء بشكل دوري بين عامي 1945 و1946، ليختطوا عالم ما بعد الحرب، اكتشفوا أن كلًا منهم لديه شروط غير قابلة للتفاوض يعتبرها ضرورية لتحقيق السلم، مع كونها تعتبر خطرة بالنسبة إلى الجانب الآخر. كانت هذه «معضلة الأمن» في صورتها الأنموذجية، حيث بدت دفاعية أحد الأطراف، هجومية، الأمر الذي يدفع الطرف الآخر إلى اتخاذ تدابير يراها دفاعية، لكنها تبدو بدورها، هجومية من وجهة نظر الطرف الآخر. لقد كانت الأيديولوجيات المتعارضة وغياب الثقة، محفزات مثالية لإشعال معضلة أمن سوفياتية أميركية. وما إن بدأت هذه الدورة من التوتر، أصبح من المستحيل، حرفيًا، السيطرة عليها، فضلًا عن إيقافها.

أصول الحرب الباردة

كانت الشهور الثمانية عشر التي أعقبت الحرب، فترة من عدم اليقين بالنسبة إلى المسؤولين في واشنطن. فقد تولى رئيس جديد، هو هاري ترومان[5]، منصب الرئاسة خلفًا لروزفلت إثر وفاته في شهر نيسان/ أبريل من عام 1945. وكان

---

(5) هاري ترومان (Harry Truman) (1884-1972): سياسي وسيناتور والرئيس الثالث والثلاثون للولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1945 و1953. كان نائبًا للرئيس روزفلت وتولى منصب الرئاسة بعد وفاته في إحدى أخطر اللحظات في التاريخ الأميركي وقبل نهاية الحرب العالمية الثانية. اشتهر في التاريخ بأنه أول وآخر رئيس يقرر استخدام الأسلحة النووية في الحرب. شهدت مدة رئاسته أحداثًا أخرى مهمة مثل قيام مشروع مارشال في أوروبا الغربية وإنشاء حلف شمال الأطلسي (الناتو) وإصدار عقيدة ترومان في السياسة الخارجية والحرب الكورية، والأهم من هذا كله، بداية الحرب الباردة. (المترجم)

ترومان، السيناتور القديم عن ولاية ميزوري، قليل الخبرة في الشؤون الخارجية وغير معروف خارج مبنى البرلمان، قبل أن يختاره روزفلت نائبًا له قبلَ ذلك بعام واحد فقط.

كان عدم اليقين يلف النوايا السوفياتية بشكل أكبر. فقد وعد ستالين روزفلت، في اجتماع قمة مالطا في شهر شباط/ فبراير 1945، بأنه سوف يوافق على عقد انتخابات حرة ونزيهة في بولندا بعد الحرب. وبحلول نهاية العام، بدا من الواضح أن ذلك لن يحدث، في الأقل ليس بالطريقة التي توقعها الأميركيون. وفي أوائل عام 1946، ألقى ستالين خطبة كبيرة، بدا أنه يتنبأ فيها بقدوم حرب عالمية ثالثة، ولكن ضد القوى الرأسمالية الغربية هذه المرة. وحتى نهاية عام 1946، كانت موسكو تزيد من سيطرتها على حكومات الدول التي يحتلها الجيش الأحمر، وتطلب من تركيا السماح بالسيطرة السوفياتية على الممرات المائية الاستراتيجية التي تربط البحر الأسود بالمتوسط، وترفض سحب قواتها من شمال إيران، كما وعدت في أثناء الحرب.

بعد هذه الفترة من عدم اليقين، تصرف ترومان ومساعدوه بحسم. لا يوجد تاريخ رسمي لبداية الحرب الباردة، لكن الثاني عشر من شهر آذار/ مارس 1947 هو لحظة مجدية، إضافةً إلى عقيدة ترومان. ففي خطبة له أمام جلسة مشتركة خاصة للكونغرس، حذر ترومان من أن اليونان وتركيا تواجهان خطر السقوط في قبضة الشيوعيين. ففي الأحوال الطبيعية، كان الشرق الأدنى سيقع في دائرة النفوذ البريطانية، إلا أن البريطانيين كانوا غارقين في أزمة اقتصادية، بل كانت أوروبا الغربية بكاملها، في الحقيقة، محطمة نتيجة الحرب. وربما منح فراغ القوة الذي خلفه ضعف البريطانيين والفرنسيين، جراء انتشار الفقر والتشرد والمجاعة في القارة إثر تحطم المباني والمصانع والمزارع، الشيوعيين الفرصة التي يحتاجونها للاستيلاء على النفوذ في المنطقة. وقد حاول الأميركيون تجنب الحربين الأوروبيتين الأخيرتين ولم يستطيعوا، أما ترومان فشعر أنه ليس باستطاعته ارتكاب الخطأ نفسه مرة أخرى. وبدلًا من ذلك، لجأ إلى استراتيجيا

سماها المؤرخ ميلفين ليفلر[6] بحذق، «رجحان القوة»، مفادها أنه لكي تصبح أميركا سيدة مصيرها، فسوف يكون عليها أن تأخذ زمام المبادرة وتشعل صراعًا مع السوفيات لا يصل إلى درجة الصراع المسلح، أو بكلمات أخرى، الحرب الباردة.

كانت عقيدة ترومان الخطوة الأولى في هذه الاستراتيجيا. وكان عليه أن يقنع الكونغرس لكي يحصل على التمويل، وبالتالي، كان عليه إقناع الشعب الأميركي بدعم حرب مقدسة مناهضة للشيوعية لا حدود لها. وقد فعل ذلك بالطريقة ذاتها التي سرت عليها جميع العقائد الرئاسية، أي تبرير سياسة محددة لأزمة مخصوصة باسم مبدأ عام مجرد. وتمامًا كما حركت الأزمة التي شملت اليونان وتركيا جيمس مونرو لإصدار عقيدته المتعلقة بانفصال نصفي الكرة الغربي والشرقي في عام 1823، استخدم ترومان الموقف في الشرق الأدنى لإطلاق نداء السلاح، الذي كانت له أهمية عالمية. وعلى الرغم من عدم ذكر ترومان ستالين أو الاتحاد السوفياتي بالاسم، كان الغرض واضحًا مَن المعني. فقد أعلن أنه «في اللحظة الراهنة من تاريخ العالم، بات على كل أمة الاختيار بين طريقين مختلفين للحياة. أحدهما مبني على إرادة الأغلبية، ويتميز بالمؤسسات الحرة والحكومة التمثيلية والانتخابات الحرة وضمانات الحرية الفردية وحرية الرأي والدين وغياب القمع السياسي. والثاني، مبنية على إرادة أقلية مفروضة بالقوة على الأغلبية وتعتمد على الإرهاب والقهر والصحافة والراديو الموجهين والانتخابات الثابتة وقمع الحريات الشخصية». ثم جاء جوهر عقيدة ترومان الذي سوف يصبح النجم الهادي للسياسة الخارجية للولايات المتحدة للأعوام الخمسة والأربعين التالية، حيث قال: «أعتقد أن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تكون دعم الشعوب الحرة التي تقاوم محاولة إخضاعها بواسطة الأقليات المسلحة أو الضغوط الخارجية».

---

(6) ميلفين ليفلر (Melvyn Leffler) (ولد عام 1945): مؤرخ أميركي وأستاذ التاريخ بجامعة فيرجينيا. حصل على عدة جوائز أهمها جائزة بانكروفت في عام 1993، عن كتابه **رجحان القوة: الأمن القومي وإدارة ترومان والحرب الباردة** (*A Preponderance of Power: National Security, the Truman Administration and the Cold War*). (المترجم)

كانت جملة «دعم الشعوب الحرة التي تقاوم محاولة إخضاعها»، طريقة مزعجة بلاغيًا لإعلان المفهوم المركزي للحرب الباردة الأميركية، ألا وهو سياسة الاحتواء. كانت هذه الكلمة من بنات أفكار دبلوماسي مجهول الاسم وقتها، جورج ف. كينان[7]، الذي كان مبعوثًا إلى السفارة في موسكو. فربما كانت إدارة ترومان متخبطة ومترددة هناك في واشنطن، إلا أنه من منظور كينان في موسكو، بدا ما يحدث في الاتحاد السوفياتي واضحًا. فقد كان ستالين يؤمن بمزيج من القومية القيصرية التقليدية والثورية الشيوعية الطموحة. لكن فوق كل شيء، كان يتعامل بعملة القوة. فتأسيس القواعد الليبرالية أو عالم أكثر انفتاحًا لم يكن يعني شيئًا بالنسبة إلى ستالين، كل ما كان يريده هو الأرض والنفوذ التام عليها. فقد كان ستالين توسعيًا، مثل القياصرة الذي حكموا روسيا قبله. ولكن لأنه يفهم القوة، ويريد حماية نصيبه منها، كان من الممكن ردعه - إذا أظهر القادة الأميركيون عزمهم على ردعه. كان هذا هو جوهر استراتيجية الاحتواء التي صاغها كينان، أولًا في «تلغراف طويل» سري للغاية إلى وزارة الخارجية في شهر شباط/ فبراير 1946، حتى قرر ترومان جعلها أساس سياسته الخارجية، فتم نشرها في عدد شهر تموز/ يوليو 1947 من مجلة **الشؤون الخارجية** (*Foreign Affairs*) تحت الاسم المستعار «إكس». وكما جاء في المقالة المنشورة، بدلًا من أن تخضع الولايات المتحدة لكل مطالب ستالين أو تخاطر بحرب شاملة، عليها أن تتبنى «سياسة طويلة الأمد صبورة ولكن صارمة ويقظة لاحتواء الميول التوسعية الروسية... حيث تكون مصممة لمواجهة الروس بقوة مضادة راسخة في كل نقطة يبدون فيها علامات الزحف على مصالح العالم المسالم المستقر».

وقع إجراءان آخران، بين إعلان عقيدة ترومان ونشر المقالة إكس، صُمما ليعطيا سياسة الاحتواء جوهرًا وقوة. كان الأول حزمة مساعدات ضخمة لأوروبا، أعلنها وزير الخارجية جورج كاتلت مارشال[8] في حزيران/ يونيو 1947.

(7) جورج ف. كينان (George F. Kennan) (1904-2005): مؤرخ ودبلوماسي أميركي، اشتهر بأنه هو الذي ابتكر سياسة الاحتواء التي اتبعتها الولايات المتحدة في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي. حاضر كثيرًا وكتب عن تاريخ العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي. (المترجم)

(8) جورج كاتلت مارشال (George C. Marshall) (1880-1959): ضابط ورجل دولة أميركي. ترقى في الجيش الأميركي حتى أصبح رئيس أركانه خلال إدارة كل من الرئيسين روزفلت وترومان. قال عنه =

وبنهايتها في عام 1952، كانت خطة مارشال، المعروفة رسميًا ببرنامج التعافي الأوروبي، قد منحت الدول الأوروبية مليارات الدولارات لمسارعة التعافي الصناعي والقضاء على المجاعة والبطالة والفوضى - والشيوعية. كان المال الممنوح غير مشروط، حيث كان بإمكان مستقبليه إنفاقه في أي غرض يريدونه، بما في ذلك إقامة دول رفاه اجتماعي شاملة، الأمر الذي لم يكن دافعو الضرائب الأميركيون ليؤيدوا تطبيقه في بلادهم قط. كان لهذا الكرم دافع باطني، ألا وهو جعل أوروبا الغربية نشطة اقتصاديًا، مناهضة بقوة للشيوعية، ومتحالفة بولاء مع الولايات المتحدة. وقد ساعدت أيضًا على إسكان المخاوف في واشنطن ونيويورك من أن نهاية الحرب سوف تشهد عودة الكساد.

بعدها بشهر، جاءت اللبنة الثانية لسياسة الاحتواء عندما أقر الكونغرس قانون الأمن القومي. وقد أسس هذا القانون وحده (أو قدم الأساس لكل من) وكالة الاستخبارات المركزية وهيئة الأركان المشتركة ومجلس الأمن القومي ووزارة الدفاع. بكلمات أخرى، خلق هذا القانون دولة الأمن القومي، وفي خلال الأعوام التالية، سوف يكون لهذا الجهاز المؤسسي السري المتزايد التعقيد، الذي أُسس لخوض الحرب الباردة، أن يشكل معالم الحياة الأميركية ذاتها. وفي عام 1952، وضع تأسيس وكالة الأمن القومي، اللبنة الأخيرة في دولة الأمن القومي[9].

أوحت كلمة «قوة مضادة» التي جاءت في المقالة إكس، وعلى الرغم من

= تشرتشل إنه كان منظم النصر الذي تحقق للحلفاء في الحرب العالمية الثانية. شغل منصب وزير الخارجية في إدارة الرئيس ترومان. دافع عن تقديم الولايات المتحدة حزمة مساعدات للتعافي الأوروبي، وتكللت جهوده بخطة مارشال التي حملت اسمه. حصل على جائزة نوبل للسلام في عام 1953. (المترجم)

(9) قانون الأمن القومي الأميركي 1947 (National Security Act of 1947): تم تصميم هذا القانون لكي يعيد تنظيم أدوات السياسة الخارجية الأميركية العسكرية والاستخبارية. وكان له شقان، أولهما إعادة تنظيم القوات المسلحة الأميركية وقيادتها المدنية، والآخر يتعلق بإنشاء مجلس الأمن القومي ووكالة الاستخبارات المركزية، أول مؤسسة استخباراتية أميركية وقت السلم. أما إعادة تنظيم القوات المسلحة فقد تم دمج وزارة الحرب أو الجيش مع وزارة الأسطول تحت وزارة واحدة مركزية، هي وزارة الدفاع، كذلك تم فصل سلاح الجو، الذي كان قبل ذلك تابعًا للجيش، ليصبح سلاحًا مستقلًا له وزارته التي يتولاها مدني وتكون تحت وزارة الدفاع، وأخيرًا تم تشكيل هيئة الأركان المشتركة لتنظم تعاون الأسلحة الثلاثة، الجيش والأسطول والجو. (المترجم)

ادعاءات كينان اللاحقة، بأن سياسة الاحتواء سوف يكون لها صفة شديدة العسكرة. فمن طريق خلق أجهزة متأهبة باستمرار لاستخدام القوة المسلحة والاستخبارات والتجسس، ضمن قانون الأمن القومي هذه العسكرة. كذلك كان تمرير قانون الخدمة الانتقائية في عام 1948، الذي أسس لأول خدمة عسكرية إجبارية دائمة زمن السلم في تاريخ الولايات المتحدة. وفي العام التالي، كان إنشاء منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو)، أول تحالف دائم في تاريخ الولايات المتحدة. وقد مثل هذا خروجًا أساسيًا عن التقليد الدبلوماسي الأميركي، ولم تكن الأحادية قد ماتت، وإنما بات عليها إفساح المجال لدولانية نشطة بشكل متزايد. ثم جاءت لبنة أخرى غاية في الأهمية في نيسان/ أبريل 1950، عندما أرسل فريق مجلس الأمن القومي تقريره الثامن والستين، الذي عُرف اختصارًا بـ NSC-68، حيث قسمت هذه الوثيقة العالم إلى نصف مستعبد ونصف حر، وتنبأ بأن الاثنين لا يمكنهما التعايش سويًا. ولم يكن ذلك مجرد تعبير بلاغي صمم ليقنع الرأي العام - فقد كان تقرير NSC-68 سريًا ولم يُنشر حتى عام 1975 - بل كان تعبيرًا عن الخوف الصادق داخل إدارة ترومان. كانت النتيجة الأهم لهذا التقرير، هي توصيته بزيادة النفقات العسكرية الأميركية ثلاثة أضعاف، الأمر الذي رفع تلك النفقات إلى ما يقترب من ثلثي ميزانية الحكومة الفدرالية برمتها.

الحرب الكورية، الحرب الباردة العالمية

كان واضعو تقرير NSC-68 قد قدموه أصلًا في شهر نيسان/ أبريل 1950، إلا أن ترومان اعتقد أنه كان يطالب بما يزيد عن الحد وفي وقت مبكر جدًا. فقد خشي ابتداء هذا الإنفاق العسكري الضخم من دون أساس وثيق، لذلك نحى التقرير جانبًا. فما الذي غيَّر رأيه إذًا في الأشهر الخمسة بين نيسان/ أبريل وأيلول/ سبتمبر؟

يمكن العثور على الإجابة ليس في واشنطن أو حتى موسكو، وإنما في شبه الجزيرة الكورية، التي كانت، حتى ذلك الوقت منطقة هامشية بالنسبة إلى المصالح الأميركية. فقد كانت كوريا مستعمرة يابانية بين عامي 1905 و1945. وللحفاظ على النظام عقب الحرب العالمية الثانية، تقدمت القوات السوفياتية إلى شمال

كوريا، بينما احتلت القوات الأميركية النصف الجنوبي من شبه الجزيرة. توازى وجودهما بشكل تقريبي مع توازن قوات الوطنيين الكوريين الذين كانوا يقاومون الحكم الياباني الاستعماري، حيث كان الشيوعيون يسيطرون على الشمال، بينما ساد مناهضوهم في الجنوب. لكن جميعهم كانوا قوميين كوريين، ومع ذهاب اليابانيين تحول الصراع إلى صراع حول من سيحكم كوريا المستقلة. وقد بدأ هذا التقسيم غير الرسمي للبلاد ينبئ بدوام هذه الحال مع تأسيس حكومتين منفصلتين في عام 1948. ووفقًا لاتفاق مسبق، انسحبت قوات الاحتلال السوفياتية والأميركية من كوريا، تاركة القادة المحليين لتسوية خلافاتهم. غير أن الشيوعيين في الشمال قاموا بغزو الجنوب، تحت قيادة كيم إيل سونغ[10] في شهر حزيران/ يونيو 1950، وهرعت القوات الأميركية فورًا لنجدة ما بات يُعرف الآن بكوريا الجنوبية.

كان لاندلاع الحرب في كوريا، خاصة قرار ترومان بالدفاع عن كوريا الجنوبية، نتيجتان عظيمتان أولاهما علمنة الحرب الباردة. فقد استطاع الحزب الشيوعي الصيني، تحت قيادة ماو تسي تونغ[11]، الاستيلاء على السلطة في بكين في تشرين الأول/ أكتوبر 1949، إلا أن ترومان ومستشاريه لم يرتاعوا، فقد تنبأوا في حقيقة الأمر، بأن جمهورية الصين الشعبية سوف تصبح في النهاية خصمًا للاتحاد السوفياتي. وتمامًا كما أدمج الهجوم الياباني على بيرل هاربر الصراعات الإقليمية المنفصلة في حرب عالمية واحدة متصلة، بدأ الغزو الكوري الشمالي سلسلةً من الأحداث أدمجت النزاعات المتباعدة في صراع عالمي متشابك. وكانت النتيجة الثانية للحرب الكورية هي عسكرة السياسة الخارجية الأميركية.

(10) كيم إيل سونغ (Kim Il-sung) (1912-1994): مؤسس كوريا الشمالية وحاكمها منذ تأسيسها في عام 1948 حتى وفاته في عام 1994. شغل منصب رئيس الوزراء بين عامي 1948 و1972، ثم رئيس الجمهورية بين عامي 1972 و1994. وشغل كذلك منصب رئيس الحزب الشيوعي الكوري وأمينه العام. هو الذي أسس النظام الشيوعي الصارم الحاكم لكوريا الشمالية حتى يوم الناس هذا. (المترجم)

(11) ماو تسي تونغ (Mao Zedong) (1893-1976): زعيم ثوري شيوعي صيني ومؤسس جمهورية الصين الشعبية وحاكمها بوصفه رئيس الحزب الشيوعي الصيني، منذ تأسيسها في عام 1949 حتى وفاته في عام 1976. له العديد من الكتابات السياسية والعسكرية والاقتصادية، ويطلق على مجموع أفكاره الشيوعية الماوية. (المترجم)

فقد أقنعت الحرب ترومان ومسؤوليه بأن مؤامرة شيوعية عالمية قد بدأت، وأن الطريقة الوحيدة لإيقافها هي جعل الاحتواء صارمًا بقدر المستطاع. كذلك أرعبت الحرب الشعب الأميركي للأسباب نفسها، وفاقمت من عملية ملاحقة للشيوعية في البلاد، الحركة التي عُرفت بالمكارثية[12] - التي شددت بدورها التزام الولايات المتحدة بشكل أكثر صرامة سياسةَ الاحتواء. إضافةً إلى زيادة ميزانية الدفاع إلى ثلاثة أضعاف، كما أوصى تقرير NSC-68، فجرت الولايات المتحدة في عام 1952، أول سلاح نووي حراري، وكان يفوق القنبلة الذرية التي تم إلقاؤها على اليابان في القوة مئات المرات.

أتت نهاية الحرب الكورية في عام 1953، قبل رحيل ترومان عن الرئاسة ببضعة أشهر فقط، وبعد أن مات ستالين جراء جلطة دماغية. وبحلول ذلك الوقت، كان العالم قد انقسم بشكل تقريبي إلى ثلاثة معسكرات: العالم الشيوعي بقيادة الاتحاد السوفياتي؛ العالم الرأسمالي الليبرالي بقيادة أميركا أو ما أطلق عليه «العالم الحر»؛ والعالم الثالث، الذي سمي بهذا الاسم لأن أعضاءه، مثل الهند وإندونيسيا، رفضت الانضمام إلى أي من العالمين الأولين. وقد أدت المناطق البينية التي التقت عندها هذه العوالم الثلاثة - في شبه الجزيرة الكورية وجنوب شرق آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا وأميركا اللاتينية - إلى تصادمات أنتجت ما أطلق عليه المؤرخ بول شامبرلين[13] «ساحات قتل الحرب الباردة». أبرزت الحرب الباردة كذلك ظاهرة جديدة في السيادة الحديثة، ألا وهي الدول المنقسمة. فقد قسمت كوريا وفيتنام إلى أنصاف شمالية وجنوبية، كل منها يدعي كونه التجسيد الحقيقي لروح الأمة كلها، أما ألمانيا فقسمت إلى شرقية وغربية وفقًا للخطوط نفسها، وكذلك

---

(12) المكارثية (McCarthyism): نسبة إلى السيناتور الأميركي جوزف مكارثي الذي قاد حملة شرسة لمطاردة السياسيين والكتاب والفنانين والمفكرين الأميركيين بتهمة انتحال الفكر الشيوعي. وقد بدأ مكارثي هذه الحملة في عام 1950، وأثرت بشدة في الحياة الأميركية، ولم تنته إلا بعد أربعة أعوام عندما أصدر مجلس الشيوخ توبيخًا له على تلك الحملة الشائنة. (المترجم)

(13) بول شامبرلين (Paul Chamberlin): أستاذ مساعد بقسم التاريخ جامعة كولومبيا، متخصص في تاريخ العلاقات الدولية للولايات المتحدة. حصل على عدة جوائز آخرها جائزة مطبعة جامعة أوكسفورد للتاريخ الدولي في عام 2010. (المترجم)

حدث في الصين، التي شهدت اقتطاع جزيرة تايوان من جسدها الرئيس عندما هربت إليها القوات القومية المناهضة للشيوعية في عام 1949، بعد أن خسرت الحرب الأهلية الصينية، وما فتئت الجزيرة تتحدى الجمهورية الشعبية.

الصورة (5-1)



بحلول عام 1945، أصبحت الولايات المتحدة القوة النووية الأولى في العالم. وعلى الرغم من أن هذه التكنولوجيا الجديدة جلبت معها الكثير من الميزات، فقد زرعت كذلك الخوف والقلق، حتى لدى أولئك الذين سوف يحاربون بها، كما نرى من خلال هؤلاء الجنود الراكعين من الفرقة الحادية عشرة المحمولة جوًا، وهم يشاهدون أحد الاختبارات الذرية في عام 1951 في صحراء نيفادا.

نهاية الإمبراطورية

كانت الحرب في كوريا نتيجة مباشرة لتوترات القوى العظمى، إلا أن الصراع بين مختلف طوائف القومية الكورية كان أيضًا نتيجة ظاهرة أخرى متشابكة مع، ولكن مستقلة عن، الحرب الباردة، ألا وهي تصفية الاستعمار. فقد كان عصر السيطرة الأوروبية على باقي العالم، الذي بدأ في عام 1492 واستمر حتى القرن العشرين، يسير نحو الأفول.

أضعفت الحرب العالمية الثانية الإمبراطوريات الاستعمارية في كل من آسيا وأفريقيا. فقد طرد اليابانيون بريطانيا من الملايو (ماليزيا اليوم) وسنغافورة وهونغ كونغ وبورما (ميانمار)، وطردوا هولندا من جزر الهند الشرقية الهولندية (إندونيسيا)، وفرنسا من فيتنام وكامبوديا ولاوس، والولايات المتحدة من الفلبين. حتى في المناطق التي استطاعت فيها الإمبراطوريات الأوروبية صد التقدم الياباني، كما حدث في الهند المحكومة بواسطة بريطانيا، كانت هالة السلطة الإمبريالية قد تم تدميرها - ومعها الموارد المالية والعسكرية الضرورية لحفظ الإمبراطورية. ثم انتصر الحلفاء في الحرب، وقضوا على أنظمة اليابان الاستعمارية في كل من منشوريا وكوريا وتايوان. إلا أنه عندما هُزم اليابانيون في النهاية، تركوا خلفهم فراغًا في السلطة في كل تلك البلاد، الفراغ الذي كانت حركات التحرر القومية تتحرق شوقًا لملئه. وكانت الصين واليابان وتايلاند وحدها البلدان التي لم تعانِ الاستعمار في شرق آسيا قبل الحرب، أما بعدها فقد ظلت الإمبراطوريات الأوروبية تناضل لإحياء سلطانها، وبعد أكثر من عقد من الزمان بقليل، كانت القارة في معظمها تتمتع بالحكم الذاتي.

تحول الأوروبيون عن إمبراطورياتهم الاستعمارية، على كره غالبًا - فالبرتغال، آخر الدول الإمبريالية الكبرى التي تتجرد من ممتلكاتها الكبيرة، لم تقم بهذا حتى سبعينيات القرن العشرين، ولم تصنع ذلك إلا تحت تهديد السلاح - ووجهوا أنظارهم بدلًا من ذلك إلى الداخل لبناء أوروبا جديدة. ففي غرب أوروبا، شكَّل حلفاء الولايات المتحدة نواة ما سوف يصبح المجتمع الأوروبي، وهو ما سوف يصبح أخيرًا، الاتحاد الأوروبي. وتحولت هذه المنطقة الضخمة للتجارة الحرة

في التسعينيات إلى مشروع جاد للتكامل السياسي والنقدي. وحظي المشروع الأوروبي بدعم الولايات المتحدة القوي بوصفه محفزًا للنمو الاقتصادي - حيث اعتبر التعافي بعد ثلاثين عامًا من الحرب «معجزة» - والتعاون السياسي، نظرًا إلى أنه شغل الأوروبيين عن قتل بعضهم بعضًا في الوقت نفسه الذي خلق فيه دولًا ديمقراطية مزدهرة ومناهضة للشيوعية كذلك. فمن وجهة نظر واشنطن، لم يكن هناك بديل من الإمبراطوريات المتخلفة أفضل من التكامل القاري.

أنتجت عملية تصفية الاستعمار الفوضوية هذه نقطة اشتعال كبيرة أخرى، كانت في الشرق الأوسط هذه المرة. ففي عام 1948، أنهى البريطانيون انتدابهم على فلسطين، التي كانت قبل ذلك ولاية عثمانية، ولكنها بقيت تحت سيطرة البريطانيين منذ نهاية الحرب العالمية الأولى. بعدها، أعلن الصهاينة في فلسطين ميلاد دولة إسرائيل اليهودية، وأعلن ترومان اعتراف الولايات المتحدة بها بعد إحدى عشرة دقيقة فقط. وقد فعل ذلك خلافًا لمشورة كل من وزارة الخارجية والبنتاغون [وزارة الدفاع]، اللتين حاجّتا بأن المصالح الأميركية تستدعي التروي في مواجهة إجماع العرب على المعارضة، في الوقت الذي بدأت الدول العربية تصبح فيه مصدرًا رئيسًا لنفط العالم. إلا أن ترومان مضى في طريقه على أي حال، حتى مع إقامته، ومن بعده أيزنهاور، لشراكات قوية بين الولايات المتحدة والعرب المنتجين للنفط. إن هذا يقول الكثير عن الدور المهيمن الذي اتخذته الولايات المتحدة بحلول أواسط القرن، حتى أنها استطاعت إقامة اثنتين من أقوى شراكاتها مع كل من إسرائيل والمملكة العربية السعودية، في الوقت نفسه تقريبًا، على الرغم من الخصومة الإقليمية والطائفية الشديدة بين الدولتين.

حفزت الحرب الباردة تصفية الاستعمار في أماكن أخرى كذلك - حتى في الولايات المتحدة. فبعد أن انتهت العبودية مع الحرب الأهلية، ابتدع البيض في الجنوب تراتبية عنصرية جديدة عُرفت بقوانين جيم كرو (Jim Crow). وقد أبقى مجتمع الفصل العنصري الصلد هذا على تباعد البيض والسود، مع تجذر تفوق البيض قانونيًا. هذا وقد حرم الأميركيون الأفارقة من عدد من حقوقهم الدستورية، من بينها الحق في التصويت، وأبقوا عليهم في حالة من التبعية الاقتصادية. كان

الناشطون السود يشنون حملات لإنهاء قوانين جيم كرو منذ بداية القرن، لكنهم لاقوا قليلًا من النجاح. إلا أن الحرب الباردة منحت قضيتهم دفعة قوية غير متوقعة. فقد باتت الولايات المتحدة الآن تصور نفسها بوصفها قائدة «العالم الحر» وتشير إلى الشيوعية السوفياتية بوصفها «عبودية»، بيد أن هذه الادعاءات تفقد معناها وتصبح فارغة إذا حُرم مواطنون أميركيون من حقوقهم الأساسية، بسبب لون بشرتهم فحسب. هذا وقد أكثر السوفيات من الإشارة إلى الفصل العنصري الأميركي في دعاياتهم السياسية، إلا أن العشرات من الدول حول العالم، التي كان كثير منها دولًا أفريقية حديثة الاستقلال، وليست جميعًا حليفة للاتحاد السوفياتي، انتبهت أيضًا إلى ذلك. وفي الحرب الباردة، التي تم خوض جزء كبير منها حول الصورة، كانت قوانين جيم كرو للفصل العنصري تمثل نقطة ضعف خطرة. وعلى الرغم من أن واشنطن عادة ما تكون عازفة عن الدفع نحو الإصلاح العنصري في الجنوب، فقد اضطرت إلى دعم الإصلاح الذي دعت إليه حركة الحقوق المدنية[14] لدفع هذه الهجمات السياسية الشيوعية. وجاءت اللحظة الفارقة في عام 1957، في مدينة ليتل روك بولاية أركانساس، عندما حاول الطلاب السود حضور درس في مدرسة ثانوية كانت قبل ذلك مقصورة على البيض. ومع عرض المشاهد القبيحة للصراع أمام العالم بأسره، أرسل الرئيس دوايت أيزنهاور[15] الحرس الوطني لضمان إلغاء الفصل العنصري في

---

(14) حركة الحقوق المدنية (Civil Rights Movement): نضال الأميركيين الأفارقة الذي دام لعقود في الولايات المتحدة لنيل حقوقهم المدنية وإنهاء التمييز المؤسسي ضد السود وقوانين الفصل العنصري. وبعد سنوات عديدة من العمل والتظاهر حققت الحركة أكبر إنجاز تشريعي لها في أواسط ستينيات القرن العشرين، وكان ذلك نتاجًا لحملاتهم السلمية والعصيان المدني التي قاموا بها وأمنت لهم تعديلات قانونية فدرالية تضمن حقوقهم الإنسانية والمدنية. يعد مارتن لوثر كينغ ومالكوم إكس أشهر قادتها. (المترجم)

(15) دوايت أيزنهاور (Dwight Eisenhower) (1890-1969): ضابط ذو خمس نجوم وسياسي أميركي والرئيس الرابع والثلاثون للولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1953 و1961. تولى منصب القائد العام لقوات الحلفاء في أوروبا في أثناء الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب تولى منصب رئيس أركان الجيش، ثم رئيس جامعة كولومبيا، ثم أول قائد لقوات حلف شمال الأطلسي (الناتو)، قبل أن يصبح رئيسًا للولايات المتحدة في عام 1953. أحد أبرز إسهاماته هو صكه لمصطلح «المجمع الصناعي العسكري» الذي تحدث عنه في خطبة رحيله عن الرئاسة. (المترجم)

مدينة ليتل روك. ومنذ هذه اللحظة، منح الضغط السياسي وضرورات الحرب الباردة، حركة الحقوق المدنية كثيرًا من الدعم الذي تحتاجه بشدة في كفاحها من أجل الحرية في بلادها.

سنوات الأزمة

وصلت الحرب الباردة بعد بدايتها بعقد من الزمان إلى توازن من التوتر والرعب. فقد توازن العالم الثنائي القطب أخيرًا بشكل رفيع بين القوتين الأميركية والسوفياتية، إلا أن ذلك التوازن كان يضطرب غالبًا بأحداث غير متوقعة في المناطق التي سبق استعمارها أو كانت غير منحازة إلى أحد الفريقين، وأصبح هذا نظامًا له منطقه القسري الخاص به. فاندلعت الثورات ضد الحكم الشيوعي في ألمانيا الشرقية (1953) وهنغاريا (1956) واندلعت حرب قصيرة على قناة السويس في عام 1956، تصافت فيها كل من إسرائيل وبريطانيا وفرنسا ضد مصر، إلا أن قليلًا هي الأشياء التي كانت تستطيع حرف الحرب الباردة نفسها عن مسارها.

بيد أن كل ذلك تغير في سنوات الأزمة بين عامي 1958 و1962، عندما اجتمعت التوترات التي لم يتم حلها في أوروبا مع توهج الشعور الثوري لتصفية الاستعمار، لينتجا فترة خطرة من عدم الاستقرار. ومع أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي بقيا الدولتين الأكثر قوة بعد انقضاء سنوات الأزمة، إلا أن العالم الذي سكناه لم يعد مستجيبًا لمطالبهما كما كان من قبل.

بدأت سنوات الأزمة في مسرح مألوف، في مدينة برلين المقسمة. فقد قسمت المدينة، التي كانت عاصمة ألمانيا، إلى نصفين شرقي وغربي، تمامًا كما وقع لألمانيا ذاتها. وعُقد اجتماع قمة في مدينة باريس بين نيكيتا خروشوف (Nikita Khrushchev)، رئيس الوزراء السوفياتي، وأيزنهاور في عام 1960 لحل هذه المواجهة، إلا أن خروشوف خرج غاضبًا عندما أسقطت الدفاعات الجوية السوفياتية طائرة تجسس أميركية من طراز يو 2 (U 2)، وهي تجتاز الأجواء الروسية.

كان ذلك هو الموقف عندما حل جون ف. كينيدي[16] محل أيزنهاور في كانون الثاني/ يناير 1961. وقد فكر كينيدي بجدية في أن يقوم بعمل عسكري في برلين، حتى مع خطر إشعال حرب نووية، وتواجهت الدبابات الأميركية والسوفياتية عبر حاجز شارلي وقد وجهت مدافعها كل باتجاه الأخرى. إلا أن الضغط الحقيقي كان واقعًا على خروشوف، حيث كانت أهمية برلين كلها ترجع إلى رمزيتها، خاصة كونها تمثل مثالًا مصغرًا لنجاح الرأسمالية الليبرالية وإخفاق الشيوعية، الأمر الذي دل عليه بقوة سيل اللاجئين الفارين إلى برلين الغربية. وفي شهر آب/ أغسطس، قرر خروشوف الموافقة على إنشاء حاجز بين نصفي المدينة. وقد أوقفت الأسوار الخشبية الموقتة والأسلاك الشائكة التي أقيمت في ليلة الثالث عشر من آب/ أغسطس 1961، تدفق الناس وأنهت القلق من اندلاع الحرب. ولم يمر وقت طويل حتى وصلت الأحجار والملاط، وسرعان ما رمز جدار برلين، كما بات يعرف بعد ذلك، إلى الحرب الباردة نفسها. وهدأ كينيدي بصمت جراء تصرف خروشوف القاسي ولكن الحاسم والسريع، حيث قال لأحد مساعديه «إن جدارًا هو أفضل بكثير من الحرب».

لم تكن برلين حتى أخطر تهديد بالحرب واجهه كينيدي - فقد جاء هذا الخطر بعد عام، في كوبا. كانت الجزيرة مستعمرة أميركية في كل شيء إلا الاسم منذ الحرب مع إسبانيا وسياسة حسن الجوار، وبقيت حتى بعد ذلك مدينة بالفضل اقتصاديًا للولايات المتحدة. إلا أنه في عام 1953، مثل الثوار المتأثرون بالماركسية تحت قيادة فيديل كاسترو[17]، تحديًا لدكتاتور البلاد، فولغينسيو باتيستا[18]. بعد

---

(16) جون ف. كينيدي (John F. Kennedy) (1917-1963): سياسي أميركي تولى منصب الرئيس الخامس والثلاثين للولايات المتحدة من عام 1961 حتى اغتيل في تشرين الثاني/ نوفمبر 1963. شهد عهده القصير أحداثًا جسامًا مثل إخفاق عملية خليج الخنازير وأزمة الصواريخ الكوبية التي كادت تودي بالعالم إلى حرب نووية مدمرة. (المترجم)

(17) فيديل كاسترو (Fidel Castro) (1926-2016): سياسي وثوري كوبي حكم كوبا بين عامي 1959 و2008، عقب قيادته للثورة ضد الدكتاتور الكوبي باتيستا. اعتنق الأيديولوجيا الشيوعية الماركسية اللينينية وأصبح أكبر أعداء الولايات المتحدة منذ توليه السلطة حتى تنحيه في عام 2008. (المترجم)

(18) فولغينسيو باتيستا (Fulgencio Batista) (1901-1973): الحاكم الدكتاتور لكوبا بين عامي 1940 و1944 بوصفه رئيسًا منتخبًا، ثم بين عامي 1952 و1959 بوصفه دكتاتورًا عسكريًا مدعومًا من =

ذلك بست سنين، استولى الثوار على السلطة في هافانا وبدأوا الاستيلاء على الشركات الأجنبية، خاصة تلك الأميركية. ومع تقوية كاسترو قبضته على زمام السلطة وتحوله أكثر إلى اليسار، أذن كينيدي في غزو الجزيرة بواسطة المنفيين المعارضين لكاسترو [المناهضين للشيوعية]، الذين كانوا مدعومين ومنظمين سرًا بواسطة الولايات المتحدة. إلا أن قوة الغزو المكونة من 1400 رجل، نزلت على شواطئ الخليج المشؤوم المسمى بخليج الخنازير في نيسان/ أبريل 1961، لم تكن ندًا لقوات كاسترو الأكبر عددًا والأكثر تمرسًا في القتال، وقاوم كينيدي الضغط الذي تعرض له لإنقاذ الغزو بتدخل أميركي علني.

مثلت عملية خليج الخنازير إحراجًا كبيرًا لإدارة كينيدي، التي لم تبد إمبريالية ومنافقة فحسب، بل ربما أكثر ضررًا من كل ذلك، ضعيفة وقاصرة. وراكم هذا الإخفاق الضغط على كينيدي، إلا أن النتيجة الأكثر خطرًا له كانت دفع كاسترو بشدة نحو الكتلة السوفياتية. فقد كان كاسترو قوميًا ثوريًا يساريًا، إلا أنه حتى عام 1961، لم يكن قد أعلن نفسه شيوعيًا ملتزمًا. وقد اختفت هذه الحيرة بعد حادثة خليج الخنازير، خاصة عندما أطلق كينيدي برنامجًا للحرب الاقتصادية ضد كوبا حمل الاسم السري «عملية مونغوس» (Operation Mongoose).

أما خروشوف، فلكي يتجنب غزوًا آخر وكذلك لكي يعوض التأخر الاستراتيجي للاتحاد السوفياتي، وافق على طلب كاسترو بوضع صواريخ نووية سوفياتية في كوبا. وفي أواخر صيف عام 1962، بدأ الأسطول السوفياتي يشحن الأسلحة إلى كوبا سرًا. إلا أن طائرة تجسس من طراز يو2 التقطت صورًا للصواريخ التي يتم نصبها في كوبا إثر طيرانها فوق الجزيرة، وتم إنذار كينيدي بالأخبار صباح يوم السادس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر.

اشتهرت أزمة الصواريخ الكوبية في التاريخ، ولأسباب وجيهة، بوصفها اللحظة التي اقترب فيها العالم من الفناء. إلا أن هناك العديد من اللحظات التي

= الولايات المتحدة. بعد انتهاء فترة رئاسته عام 1944 عاش في فلوريدا الأميركية، حتى عاد ليخسر في انتخابات عام 1952 قبل أن ينفذ انقلابًا ضد الرئيس المنتخب، كارلو بريو سوكاراس، قبل توليه الرئاسة، ليتولى باتيستا الرئاسة حتى أطيح به جراء الثورة الكوبية بقيادة كاسترو في عام 1959. (المترجم)

اقتربت فيها هذه الأطراف الثلاثة - الأميركيون والسوفيات والكوبيون - من تبادل الضربات، الأمر الذي كان سيؤدي حتمًا إلى حرب أوسع مدى. وقد شعر كينيدي أنه لن يستطيع تحمل ضغط وجود صواريخ سوفياتية في كوبا، على الرغم من مشاركته مجلس الأمن القومي الرأي بأنها لا تشكل خطرًا استراتيجيًا إضافيًا. بيد أن كينيدي لم يرد الظهور بمظهر الضعف أمام أعداء أميركا في الحرب الباردة، ولم يرد بالتأكيد خسارة ماء وجهه في الوطن، خاصة وانتخابات الكونغرس النصفية على بعد أقل من بضعة أسابيع. لذلك، ولأسباب سياسية رمزية إلى حد بعيد، قرر الوقوف في وجه السوفيات وتحمل خطر الحرب. وبينما اقتربت السفن السوفياتية من الجزيرة، فرض الأسطول الأميركي عليها حصارًا بحريًا (وسماه تلطيفًا «حجرًا صحيًا»)، حيث إن الحصار يعتبر قانونيًا عملًا من أعمال الحرب) ومن ثم طلب من جميع السفن التوقف والتعرض للتفتيش. وبعد عدة أيام من التوتر المرتفع والمفاوضات السرية الحثيثة، عادت السفن السوفياتية أدراجها. في المقابل، تعهدت الولايات المتحدة علنًا بعدم غزو كوبا، ووافقت سرًا على سحب صواريخ جوبيتر ذات الرؤوس النووية الخاصة بها من تركيا. وانعكست أدوار كل من كينيدي وخروشوف عما حدث قبلها بعام في حادثة خليج الخنازير، وجاء دور كينيدي ليظهر بمظهر رجل الدولة القدير وليظهر خروشوف بمظهر العاجز.

الأمر المثير للسخرية، أن حل أزمة الصواريخ الكوبية قاد الطرفين إلى خمسة عشر عامًا من السلام والهدوء النسبي، على الأقل في علاقتهما ببعضهما، وهي الفترة التي عرفت بالوفاق (détente) أو الانفراج. وعلى الرغم من أن ريتشارد نيكسون[19] هو الذي سوف يشرف على مرحلتها الأكثر طموحًا، فقد كان كينيدي هو من افتتح هذه العلاقة الجيدة. وقد تأرجحت كل من واشنطن وموسكو على

(19) ريتشارد نيكسون (Richard Nixon) (1913-1994): سياسي أميركي تولى منصب الرئيس السابع والثلاثين للولايات المتحدة من عام 1969 حتى استقالته عام 1974. انتخب قبل ذلك عضوًا بمجلس النواب فالشيوخ قبل أن يصبح نائبًا للرئيس بين عامي 1953 و1961. شهد عهده انتهاء حرب فيتنام والوفاق مع الاتحاد السوفياتي والانفتاح على الصين وصدمة نيكسون التي أنهت نظام بريتون وودز المالي العالمي. أصبح الرئيس الأميركي الوحيد الذي يستقيل إبان فضيحة ووترغيت في عام 1974. (المترجم)

هاوية الدمار العالمي، ومن ثم أقسمتا على ألا تفعلا ذلك مرة أخرى أبدًا. وفي عام 1963، والذكرى المرعبة لكوبا لا تزال حاضرة في أذهانهما، قامتا بافتتاح خط تليفون ساخن بينهما لتسوية الأزمات بشكل أسرع وأكثر مباشرة، كذلك قامتا بتوقيع معاهدة الحظر الجزئي للتجارب النووية، والتي كانت، على الرغم من إيحاءاتها المحدودة، حظرًا شاملًا حقًا على تجريب الأسلحة النووية في الهواء. وقد أعلن كينيدي، في خطبته لشهر حزيران/ يونيو 1963، والتي اعتبرت بداية الوفاق، أنه «في التحليل الأخير، يظهر أن رابطتنا المشتركة الأساسية هي أننا نعيش على هذا الكوكب الصغير، نتنفس جميعًا الهواء نفسه، ونهتم بمستقبل أبنائنا، وأننا جميعًا فانون».

أعلن وزير الدفاع روبرت س. ماكنامارا[20]، هذه السنة، وجود عقيدة تسمى «التدمير المتبادل المؤكد» (التي تحمل الاختصار الملائم MAD)، وهي تعني أن كل طرف يمكنه ردع الطرف الآخر عن العدوان، لأن كلا الطرفين يعلمان أن الحرب سوف تكون انتحارية. وعلى الرغم مما قد يبدو على هذا المنطق من الجنون، فإن اختراع الأسلحة النووية في الحقيقة وضع حدًا لعصر الحرب الشاملة وجعل الحرب الباردة عصرًا من سلام القوى العظمى. إلا أن السخرية الأكثر قسوة كانت تكمن في حقيقة أنه ما إن بدأت مرحلة الوفاق، حتى دخلت الولايات المتحدة حربًا طويلة وكارثية في جنوب شرق آسيا.

فيتنام

استمرت فترة التوافق حتى بُعث التوتر بين القوى العظمى من سباته مرة أخرى، في أواخر سبعينيات القرن العشرين. إلا أنه، حتى ذلك الوقت، ظلت العلاقات بين موسكو وواشنطن محكومة برؤية مشتركة لإدارة خلافاتهما بشكل

(20) روبرت س. ماكنامارا (Robert S. McNamara) (1916-2009): رجل أعمال تنفيذي أميركي، عمل في منصب وزير الدفاع الثامن للولايات المتحدة في ظل إدارة كل من كينيدي وجونسون بين عامي 1961-1968. كان له دور كبير في تصعيد التورط الأميركي في فيتنام وكان أول من أدخل التحليل الكمي للأنظمة أداة للسياسة العامة. استقال من منصب الوزارة عام 1968 ليتولى رئاسة البنك الدولي، ليصبح أطول من تولى منصب وزير الدفاع في التاريخ الأميركي ثم تولى منصب رئيس البنك الدولي. (المترجم)

بناء من طريق الدبلوماسية والاتصالات المباشرة. ومع ذلك، أدى هذا إلى الحرب في فيتنام، التي امتدت من أوائل الستينيات حتى انتصار الشيوعيين في عام 1975. فلماذا إذًا وقع أكثر صراعات الحرب الباردة دموية في اللحظة نفسها التي أعلن فيها طرفاها الهدنة؟

كان السبب الرئيس هو أن الوفاق لم ينه الحرب الباردة حقيقةً، فقد كان مجرد عملية لإدارة التوترات، لا إخمادها. لذلك، فحقيقة أن القوتين العظميين كانتا على شفا حرب نووية في كل من برلين وكوبا، زادت من احتمالية وقوع الحرب على فيتنام. فقد كان واضحًا أنه لابد من احتواء التوترات في كل من أوروبا والكاريبي لتجنب اندلاع حرب عالمية ثالثة تدمر الكوكب. إلا أن الأسلحة النووية لم تكن جزءًا من الاستراتيجيا العسكرية لأي من الطرفين في فيتنام، لذلك كانت فرص اتساع الصراع عالميًا، أقل بكثير. وبينما شهد الوفاق انخفاضًا في التوترات، كان يعني أيضًا أن الطرفين عليهما دعم مصداقيتهما أنى استطاعا. وخشي كينيدي، وخليفته ليندون ب. جونسون[21]، أن السوفيات سوف يرون التراجع العام لأميركا عن التزاماتها، ضعفًا، الأمر الذي سوف يقلل بدوره من فاعلية الوفاق ويقود السوفيات بازدياد، إلى القيام بمقامرات متهورة، وهو ما سوف يعيد العالم لما كان عليه خلال أزمتي برلين في عام 1961 وكوبا في عام 1962. إذًا، فقد كان الوفاق في عقول المسؤولين الأميركيين يعتمد، بشكل منحرف، على اتخاذ مواقف صارمة في أماكن مثل فيتنام.

السبب الآخر لتقاطع حرب فيتنام مع الوفاق أنه على الرغم من خفض واشنطن للتوترات مع موسكو، كانت بكين أمرًا آخر. فقد كان وضع حد للتمدد الشيوعي في فيتنام متعلقًا دومًا باحتواء الصينيين، أكثر من تعلقه بالسوفيات. كانت أحداث عامي 1962 و1963 في فيتنام، بداية اندلاع المرحلة الأميركية

(21) ليندون ب. جونسون (Lyndon B. Johnson) (1908-1973): سياسي شغل منصب الرئيس السادس والثلاثين للولايات المتحدة بين عامي 1963 و1969 عقب اغتيال كينيدي. انتخب قبل ذلك بوصفه أحد أعضاء مجلس النواب ثم الشيوخ ثم أصبح زعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ. شغلت مسألة حرب فيتنام أغلب فترة رئاسته من ناحية السياسة الخارجية. وقد كان عاملًا رئيسًا في دعم الولايات المتحدة لإسرائيل في أثناء وعقب حرب عام 1967، المعروفة بحرب الأيام الستة. (المترجم)

في الحرب (التي عرفت كذلك بحرب الهند الصينية الثانية) وهي تلك الفترة التي كانت معلمًا على بداية الوفاق والتراجع النهائي للتحالف بين القوتين الشيوعيتين الرئيستين في العالم. فقد اتسع الخرق في العلاقات السوفياتية الصينية، الذي كان قد بدأ يظهر في الخمسينيات، حتى بلغ أقصاه في عام 1962. وكان ذلك أيضًا من نتائج أزمة الصواريخ الكوبية، التي نظر إليها الزعيم الصيني ماو تسي تونغ بوصفها إذلالًا حقيرًا للقضية الاشتراكية عالميًا، وأقسم ألا يبدي مثل ذلك الضعف. ومع ازدياد إصرار الصين على مقاومة تهدئة الحرب الباردة، أصبحت الولايات المتحدة أكثر إصرارًا على مقاومة الصين. وكانت فيتنام هي أحد تلك الأماكن التي تواجهتا فيها بالفعل.

يمكن كذلك تفسير حرب أميركا في فيتنام بوزن الالتزامات السابقة. فقد مر الصراع على فيتنام بمراحل عدة، فكانت حرب الهند الصينية الأولى صراعًا بين فرنسا والفِيت منه[22] الشيوعي، بين عامي 1946 و1954. ودخلت واشنطن الصراع في عام 1950، دعمًا لمناهضي الشيوعية في جنوب فيتنام. وفي مؤتمر جينيف في عام 1954، الذي عقد لتسوية شروط هزيمة فرنسا، فرضت الولايات المتحدة تقسيم فيتنام عند خط عرض 17، وإنشاء حكومة غير شيوعية في الجنوب عاصمتها سايغون، وحكومة شيوعية في الشمال عاصمتها هانوي. ومن ثم أطلقت الولايات المتحدة عملية «بناء للدولة» لجعل فيتنام الجنوبية دولة مستقلة، على عكس روح الاتفاق الذي وقع في جينيف، والذي دعا إلى إعادة توحيد البلاد بانتخابات قومية في خلال عامين. كان ذلك في الوقت الذي شرح فيه أيزنهاور سياسة الولايات المتحدة من طريق «نظرية الدومينو» - كانت الفكرة تقضي بأنه إذا سقطت فيتنام في أيدي الشيوعيين، فسوف يؤدي ذلك إلى سلسلة من التفاعلات تشبه تساقط صف من قطع الدومينو، ومن ثم يصبح جل آسيا شيوعيًا.

---

(22) الفيت منه (Viet Minh): تحالف عرف برابطة تحرير فيتنام تم تشكيله بواسطة هو تشي منه، الزعيم الفيتنامي في التاسع عشر من أيار/ مايو 1941. كان هدفه الأصلي هو تحرير فيتنام من الاحتلال الفرنسي، ثم من الاحتلال الياباني في أثناء الحرب العالمية، ثم ضد عودة الاحتلال الفرنسي بعد الحرب، وأخيرًا ضد الولايات المتحدة الأميركية، وكان الحزب الحاكم لفيتنام الشمالية طوال فترة حرب فيتنام. (المترجم)

لذلك، فعندما تولى كينيدي منصب الرئاسة في عام 1961، كانت الولايات المتحدة قد التزمت، لعقد من الزمان، الحفاظ على جنوب غير شيوعي في فيتنام المقسمة. لم يكن ذلك يعني أن اندلاع حرب أميركية كان حتميًا - فقد أشار كثير من المسؤولين في واشنطن، على مدار إدارتي كينيدي وجونسون وكذلك في غرفتي الكونغرس، علاوة على الإعلام، بعدم التدخل، وذلك في أوائل عام 1961. إلا أن ذلك يعني أن مناهضي الحرب هؤلاء كانوا يجادلون في عكس اتجاه حركة التاريخ الحديث.

وفي العام نفسه الذي أصبح كينيدي فيه رئيسًا، قامت الجبهة الوطنية لتحرير فيتنام (المعروفة بالفيت كونغ) بشن تمرد عالي الفعالية ضد حكومة سايغون. وكان رد كينيدي أن زاد من الدعم العسكري الأميركي لفيتنام الجنوبية، حتى بلغ عدد «المستشارين» العسكريين الأميركيين أكثر من 16,000 مستشار بحلول أيلول/ سبتمبر 1963، الشهر الذي اغتيل فيه. وفي ذلك الشهر، في انقلاب دعمته الولايات المتحدة سرًا، قامت مجموعة من جنرالات فيتنام الجنوبية بقتل رئيس البلاد نغو دينه ديم (Ngo Dinh Diem). وكان ديم قد أغضب أغلبية البلاد البوذية، الأمر الذي أدى إلى مشاهد من التظاهرات المروعة مثل حرق الرهبان أنفسهم أحياء. أما الأسوأ من وجهة نظر واشنطن، فكان بدء ديم في إرسال مبعوثين سريين يتلمسون السلام، إلى هانوي والجبهة الوطنية لتحرير فيتنام.

أدى إسقاط ديم إلى اضطراب سياسي حاد في سايغون سرعان ما استغله التمرد في الجنوب لمصلحته. في الوقت نفسه، دفع اغتيال كينيدي بليندون جونسون إلى البيت الأبيض، وعلى الرغم من شكوكه بشأن ما إذا كان باستطاعة الولايات المتحدة الانتصار، في الأقل بتكلفة يمكن تقبلها، فقد كان أيضًا يخشى عواقب التخلي عن تعهد التزمه قبله كلٌّ من ترومان وأيزنهاور وكينيدي.

استمر التمرد في إحراز التقدم في خلال عام 1964، وبحلول شهر شباط/ فبراير 1965، أصبح واضحًا أنه ما لم تصنع الولايات المتحدة شيئًا حاسمًا، فسوف تسقط فيتنام الجنوبية على الأرجح. واجه جونسون الخيار المؤلم بين

التصعيد أو الانسحاب - اللذين كان لكل منهما تكاليف باهظة ومنافع واضحة قليلة - إلا أنه اختار ما رآه أهون الشرين، التصعيد. وفي الثاني من آذار/ مارس بدأت حملة قصف واسعة النطاق لشمال فيتنام حملت الاسم الرمزي المناسب تمامًا، عملية هزيم الرعد (Operation Rolling Thunder)، وبعد أقل من أسبوع، نزلت أول فرقة من القوات البرية الأميركية، كتيبة من مشاة البحرية (المارينز)، إلى شاطئ مدينة دا نانج (Da Nang). فإذا كان الفيتناميون الجنوبيون عاجزين عن كسب الحرب، فسوف يأمركها جونسون - أي، يستولي عليها من الفيتناميين الجنوبيين.

اعتمد أهم مستشاري جونسون، الجنرال وليام ويستمورلاند (William Westmoreland) (الذي قاد الحرب من سايغون) ووزير الدفاع ماكنامارا، على تفوق أميركا الساحق في التكنولوجيا العسكرية وقوة النيران. وعلى الرغم من تقدير ويستمورلاند لتعقيدات مكافحة التمرد، لم يساعده ذلك كثيرًا في هذا الصراع الذي كانت الولايات المتحدة تعاني فيه العديد من السلبيات الكبيرة. وكان القصف الجوي الهائل لكل من فيتنام الشمالية والجنوبية، أحد أوجه هذه الاستراتيجيا، التي كانت عملية هزيم الرعد الحملة الأشهر فيها. فبنهاية الحرب، كانت الولايات المتحدة قد أسقطت حمولة من القنابل على فيتنام، تفوق ما أسقطته جميع الأطراف المتحاربة في أثناء الحرب العالمية الثانية حول العالم - حتى من دون أن يتضمن ذلك ملايين الأطنان من القنابل التي أسقطت على كل من لاوس وكمبوديا. في الحقيقة، لقد قصفت الولايات المتحدة أراضي حليفتها في الجنوب أكثر من قصفها لعدوها في الشمال، الأمر الذي يشي بالكثير عن المنطق المنحرف لاستراتيجية الولايات المتحدة. وكانت استراتيجية ويستمورلاند على الأرض في الجنوب، المعروفة بـ «ابحث ودمر»، أحد الأوجه الأخرى لهذه الاستراتيجيا. أما الركن الثالث والأخير للاستراتيجيا الأميركية فكان ما سماه جونسون «الحرب الأخرى»، وهو محاولة تحييد ريف فيتنام الجنوبية ومجابهة الدعايات الشيوعية بإحداث تغيير اجتماعي إيجابي، مثل الإصلاح الزراعي.

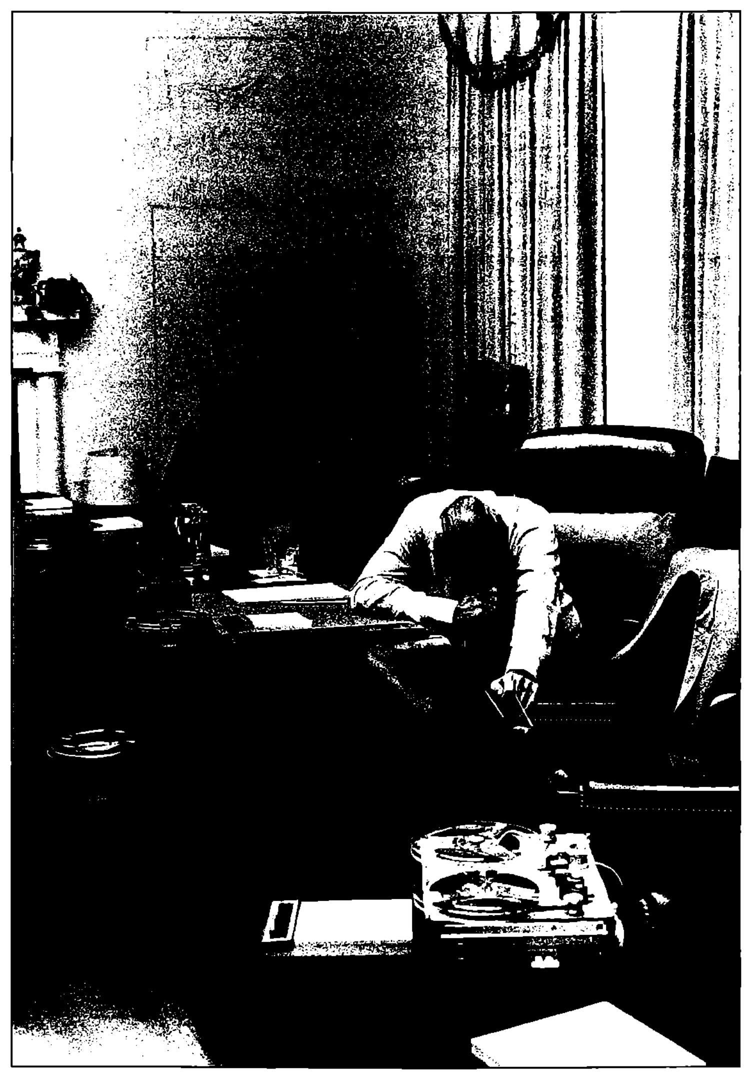
أدرك جونسون، عقب هجوم تيت[23] في أوائل عام 1968، أن الحرب قد وصلت حد الشلل وخشي من عدم الفوز بالانتخابات التي كان من المزمع عقدها في تشرين الثاني/ نوفمبر. لذا أعلن عدم اعتزامه خوض تلك الانتخابات وأوقف عملية هزيم الرعد ودخل في مفاوضات مع هانوي في باريس. أما وقد أضعف التزام الولايات المتحدة تجاه فيتنام الجنوبية الآن بشكل قاتل، فقد فاز ريتشارد نيكسون بالانتخابات الرئاسية في تشرين الثاني/ نوفمبر على أساس تطمينات مبهمة بإنهاء الحرب.

إن التعقيدات التكتيكية للقتال والعدد الكبير للضحايا من المدنيين والأميركيين الذي نتج منه والشلل القتالي المذل الذي وقع، كلها ألقت بظلالها على الحرب. أما الأمر الأكثر إضرارًا فكان ظهور الحرب بمظهر لاأخلاقي. وقد شدد جونسون على أنه وجب عليه احتواء انتشار الشيوعية وحماية الديمقراطية وحق تقرير المصير، إلا أن الشعب الفيتنامي ذاته بدا أكثر دعمًا للشمال الشيوعي أكثر من حكومته الفاسدة في سايغون. لذلك، اعترض ملايين الأميركيين على ما كانت تفعله حكومتهم وجيشهم في الهند الصينية. فقد حشدت حركة مناهضة الحرب في فيتنام، أكبر حركة مناهضة للحرب في التاريخ، الملايين في سلسلة من التظاهرات الحاشدة في طول البلاد وعرضها، حيث زحف الآلاف عبر شوارع واشنطن، وتوقفت الدراسة في العديد من كبرى الجامعات في البلاد - بما فيها بيركلي وويسكنسن ومشيغين وكولومبيا وكورنيل - نتيجة الفاعليات المناهضة للحرب.

على الرغم من ذلك، استمرت الحرب - إلى حد بعيد، وعلى عكس الحدس السليم، نتيجة استراتيجية نيكسون لإنهائها. فقد كانت حرب فيتنام مليئة بالمفارقات الساخرة، إلا أن إحداها لم تكن ربما بمثل مفارقة خطة نيكسون

(23) هجوم تيت (Tet Offensive): سلسلة من الهجمات المنظمة المفاجئة والمتزامنة التي شنتها قوات فيتنام الشمالية تحت قيادة الجنرال جياب، حيث هاجمت قوات المتمردين أكثر من 100 هدف أميركي في جنوب فيتنام. وقع الهجوم في الحادي والثلاثين من كانون الثاني/ يناير 1968، وعلى الرغم من صده بواسطة القوات الأميركية وقوات جنوب فيتنام، إلا أنه كان نصرًا استراتيجيًا للتمرد، حيث مثل نقطة تحول في الموقف الأميركي وبداية طريق مؤلم وطويل نحو الانسحاب النهائي من فيتنام. (المترجم)

الصورة (5-2)



شن الرئيس ليندون جونسون الحرب في فيتنام متلكئًا. وبحلول عام 1968، عندما التقطت هذه الصورة، كانت الحرب قد دمرت رئاسته وفرقت الأمة. فنجده هنا يستمع إلى تسجيل صوتي لزوج ابنته، السيناتور المستقبلي تشارلز روب، والذي كان في ذلك الوقت أحد جنود مشاة البحرية الأميركية في فيتنام الجنوبية.

للانسحاب من طريق التصعيد الهائل. لقد كان سحب القوات الأميركية من فيتنام أمرًا بالغ الأهمية لأسباب داخلية ولأن الجيش كان قد وصل إلى نقطة

الانهيار. إلا أن عدم اندثار فيتنام الجنوبية نتيجة أعراض هذا الانسحاب، التي كانت ستتبع رحيل الأميركيين لا ريب، كان بالغ الأهمية كذلك، على الأقل في ذهن نيكسون.

شرح نيكسون هذه الاستراتيجيا بوصفها استراتيجية «سلام يحفظ الشرف». بيد أنه لم يكن يعني بـ «السلام» غياب الحرب، بل ببساطة غياب القوات الأميركية على الأرض. أما «الشرف» فقد كان يعني أن الولايات المتحدة سوف تلتزم تعهدها في ضمان بقاء فيتنام الجنوبية مستقلة وغير شيوعية. بكلمات أخرى، سعى نيكسون إلى تحقيق الهدف نفسه الذي سعى إليه أسلافه منذ هاري ترومان. وكانت الحيلة تكمن في النجاح هذه المرة، إذ كيف ينجح نيكسون في ما أخفق فيه جونسون، وقد كان تحت تصرفه أكثر من نصف مليون مقاتل أميركي؟ وكانت وسيلة نيكسون لحل هذه المعضلة تسمى «الفتنمة»، التي كانت تعكس مسار أمركة الحرب الذي بدأه جونسون في عام 1965. فمع انسحاب القوات الأميركية، سوف تأخذ القوات الفيتنامية الجنوبية مكانها. إلا أن ذلك كان يتطلب المزيد من المساعدات الاقتصادية والعسكرية الأميركية لسايغون، الأمر الذي أدى إلى امتلاك فيتنام الجنوبية، الضئيلة الحجم، لأحد أكبر الجيوش في العالم بحلول عام 1975.

استخدم نيكسون كذلك مناورتين جريئتين لكسب الحرب من دون الجنود الأميركيين. كانت إحداهما توسيع نطاق حملة القصف الجوي لشمال فيتنام ومدها إلى أهداف كانت خارج نطاق العمليات سابقًا في كل من لاوس وكمبوديا. أما الأخرى فكانت القيام بإحدى أكثر الاستراتيجيات الدبلوماسية إبداعًا في القرن العشرين، ألا وهي مأسسة الوفاق مع الاتحاد السوفياتي، من طريق معاهدات الحد من التسلح ولقاءات القمة المنتظمة، والانفتاح على الصين في الوقت نفسه، بعد عقدين من عدم الاعتراف العدائي المتبادل. كان المنطق وراء ذلك يكمن في أنه مع اتساع الهوة في العلاقات الصينية السوفياتية، فقد كانت موسكو وبكين تخشيان بعضهما بعضًا حتى أكثر من خشيتهما واشنطن، الأمر الذي منح نيكسون،

ومخطط استراتيجيته الأكبر، هنري كيسنجر[24]، المقدرة التي كانا في حاجة إليها. فقد افترض نيكسون وكيسنجر، أن كلتا القوتين الشيوعيتين سوف تحاول إذًا أن تتودد إلى واشنطن بالضغط على هانوي لإنهاء، أو في الأقل لإيقاف، حملتها في الجنوب.

الصورة (5-3)



في عام 1972، بدأت كل من الولايات المتحدة وجمهورية الصين الشعبية شراكة جديدة، كان لها أن تغير العالم إلى الأبد. وسافر الرئيس ريتشارد نيكسون إلى بكين، حيث صافح ماو تسي تونغ، الزعيم الذي كان حتى تلك اللحظة، ألد أعداء أميركا.

إلا أن المشكلة الرئيسة كانت في الواقع، أن أيًا من هذه الاستراتيجيات لم

---

(24) هنري كيسينجر (Henry Kissinger) (ولد في عام 1923): سياسي ودبلوماسي وأكاديمي أميركي، شغل منصب مستشار الأمن القومي ثم وزير الخارجية في إدارة كل من ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد، ولعب الدور الأبرز في تخطيط وتنفيذ السياسة الخارجية الأميركية بين عامي 1969 و1977. أشرف على مأسسة الوفاق مع الاتحاد السوفياتي وكان رائد سياسة الانفتاح على الصين، واشتهر بوساطته في عملية السلام بين مصر وإسرائيل عقب حرب عام 1973 في ما سمي «دبلوماسية المكوك» حيث إنه كان ينتقل بين مصر وإسرائيل في رحلات متتابعة لتقريب وجهتي النظر. (المترجم)

تنجح. فقد خلقت الفتنمة جيشًا فيتناميًا جنوبيًا كبيرًا ولكن غير فعال، كان يُهزم بسهولة بواسطة الفيتناميين الشماليين المتحمسين المتمرسين في القتال. أما حملة القصف الموسعة فقد أدت ببساطة إلى عدم الاستقرار في الهند الصينية بكاملها، من دون أن تلحق ضررًا كافيًا بالمجهود الحربي الشيوعي. وبينما نجحت الدبلوماسية في إنشاء علاقات منتجة جديدة، إلا أنها لم تنجح في خفض الدعم الصيني والسوفياتي للفيتناميين الشماليين - وهم مع النصر على مرمى البصر، كانوا يقاومون مثل هذه الضغوط على أي حال.

وفي كانون الثاني/ يناير 1973، وقع كيسنجر اتفاقية سلام مع نظيره الفيتنامي الشمالي، لي دوك ثو (Le Duc Tho)، في باريس، وبحلول نيسان/ أبريل كانت آخر القوات الأميركية قد غادرت فيتنام الجنوبية. وبعد عامين، في الثلاثين من نيسان/ أبريل 1975، دخلت الدبابات الفيتنامية الشمالية إلى سايغون. وحل السلام أخيرًا بفيتنام، إلا أنه لم يمنح الولايات المتحدة أي شرف.

الجولة الثانية للعولمة

كانت نهاية حرب فيتنام لحظة فارقة، خاصة في استئصالها لمسألة سرطانية أصابت السياسة الخارجية الأميركية بالشلل ودمرت سمعة أميركا الدولية، إلا أن التطور الأهم البعيد المدى، الذي نتج من ذلك، كان انفتاح نيكسون على الصين. وعلى الرغم من أن الأمر تطلب ستة أعوام أخرى لكي تطبع واشنطن وبكين العلاقات الرسمية بينهما، فقد أعاد التقارب الأميركي الصيني فورًا ترتيب النظام الدولي وفقًا لخطوط سوف تحدد، لخير أو لشر، مسار السياسة العالمية للعقود الأربعة التالية في الأقل.

كانت تغيرات هيكلية أكبر تجري تحت السطح، أهمها مسارعة الجولة الثانية من العولمة، وهي العملية التي كانت قد بدأت تنضج في أوائل القرن العشرين، حتى أوقف نموها اندلاع الحربين العالميتين والكساد العظيم وبداية الحرب الباردة. عادت العولمة تزأر من جديد في أواخر الستينيات وفي خلال السبعينيات عندما استمرت دول الغرب في تحرير التجارة بينها ومن ثم وسعت نطاق اتفاقات

التجارة الحرة هذه مع الاقتصادات الصاعدة في الجنوب العالمي، خاصة في شرق وجنوب شرق آسيا. ومع بداية هجرة التصنيع إلى تلك المناطق، وكذلك إلى أميركا اللاتينية، بدأ الاقتصاد الأميركي يخفض من التصنيع ويتحول بشكل أكبر باتجاه الخدمات والاستهلاك. واستجابة لذلك، بدأت واشنطن خفض التنظيم الحكومي للاقتصاد الأميركي تدريجًا، خاصة الخدمات المالية، وهو ما سمح بمزيد من التدفق الحر للسلع ورؤوس الأموال. كذلك فعل تطور التكنولوجيات الحديثة - الحاسوب الشخصي وأنظمة الحوسبة الأكثر تقدمًا للشركات والروبوتات التي استبدلت الأيدي العاملة البشرية - ووسائل النقل، مثل انتشار الطيران العابر للقارات والشحن الموحد في الحاويات. وقد لعبت التغيرات الجيوسياسية هي الأخرى دورًا في تسهيل عودة العولمة، حيث زادت نهاية الحرب في فيتنام، والانفتاح على الصين، وتعميق وتوسيع التكامل الأوروبي، من نمو الارتباطات العالمية.

كذلك ساعدت العولمة في بزوغ عقيدة دولية جديدة، ألا وهي حقوق الإنسان، وهي تلك العقيدة التي غيرت الطريقة التي تدير بها أميركا علاقاتها الخارجية. لم تكن حقوق الإنسان مفهومًا جديدًا تمامًا، فما فتئ المبشرون الأميركيون والرموز الدينية الأخرى يدعون إلى سياسة خارجة مبنية على كرامة الفرد، لأكثر من قرن من الزمان، وشن رؤساء من أمثال ويلسون وفرانكلين روزفلت حملات مقدسة ضد الاستبداد والقهر، وزرعت الأمم المتحدة المفهوم في قلب السياسة العالمية إبان إصدارها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في عام 1948، وكانت أيديولوجية الاحتواء مبنية على ردة فعل تجاه الانتهاكات الشيوعية للحريات الفردية. إلا أنه قبل السبعينيات، كانت حقوق الإنسان مجرد شعار أكثر من كونها رسالة، ولم تكن بأي حال أساسًا لحملة مقدسة شعبية تؤثر بدورها في السياسة الخارجية للولايات المتحدة. وقد بدأ ذلك يتغير في السبعينيات، ففي عام 1975، وقعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وثلاث وثلاثون دولة أخرى على اتفاقية هلسنكي التي تضمنت حماية حقوق الإنسان الفردية بوصفها مبدأ جوهريًا. وفي كانون الثاني/ يناير 1977، قام الرئيس المنتخب لتوه جيمي

كارتر[25]، بالتأكيد لحقوق الإنسان في خطبة تتويجه، وأعقب ذلك بوضع المسألة في قلب سياسته الخارجية.

إلى الصحراء

شهدت نهاية الحرب في فيتنام وكذلك الانفتاح على الصين، التحول الاستراتيجي للتوجه الأميركي نحو الغرب. فقد كانت هذه هي منطقة الأزمة الثالثة التي تشغل الولايات المتحدة منذ عام 1914، حيث كان التركيز في البداية على أوروبا، ثم تحول إلى شرق وجنوب شرق آسيا، ثم تحول مرة أخرى إلى الشرق الأوسط. وقد بقيت أوروبا وآسيا مناطق مصالح حيوية، إلا أنه بحلول السبعينيات، كانت قد توقفت عن كونها مناطق أزمات عاجلة.

كان الشرق الأوسط دائمًا مهمًا بالنسبة إلى المصالح الأميركية، في الأقل، منذ الحرب العالمية الثانية وصعود قوة النفط السعودية، إلا أنه قبل ذلك الحين، لم يكن ذا أهمية مركزية. وقد بدأ ذلك يتغير في حزيران/ يونيو 1967، مع حرب الأيام الستة بين إسرائيل والدول العربية المحيطة بها (مصر وسورية والأردن). وأحدث انتصار إسرائيل المذهل والسريع تغيرًا في علاقتها الاستراتيجية مع الولايات المتحدة، والتي كانت حتى هذه اللحظة تتعامل بلطف من دون أن تكون حميمية أو قريبة. وما إن أظهرت إسرائيل قدرتها على البقاء في وجه تحديات هائلة، حتى أصبحت ذخرًا رئيسًا في الحرب الباردة. وبشكل بالغ الأهمية، ارتفع الدعم الشعبي الأميركي لإسرائيل عند اندلاع حرب عام 1967، عندما بدا لوهلة

---

(25) جيمي كارتر (Jimmy Carter) (ولد في عام 1924): سياسي وحقوقي أميركي شغل منصب الرئيس التاسع والثلاثين للولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1977-1981. انتخب قبل ذلك عضوًا بمجلس الشيوخ عن ولاية جورجيا ثم حاكمًا للولاية بين عامي 1963 و1975. لم يترك الحياة السياسية والحقوقية بعد تركه لمنصبه، وتم منحه جائزة نوبل للسلام في عام 2002 نظرًا إلى جهده العالمي في الدعوة لحقوق الإنسان والسلام عبر المركز الذي أسسه ويحمل اسمه. شهدت فترة رئاسته عدة أحداث مهمة مثل رعايته لاتفاقية كامب ديفيد للسلام بين مصر وإسرائيل وغزو الاتحاد السوفياتي لأفغانستان الذي أنهى فترة الوفاق بين البلدين وأشعل جذوة الحرب الباردة مرة أخرى، وأخيرًا، الثورة الإيرانية التي أطاحت بالشاه المدعوم أميركيًا وأزمة الرهائن الأميركيين في السفارة الأميركية بطهران، والتي تسببت أغلب الظن في عدم انتخابه لفترة رئاسية ثانية إثر إخفاقه في حلها. (المترجم)

أن إسرائيل نفسها سوف تتعرض للغزو وأن تجربة الدولة اليهودية قد انتهت. إلا أنه بدلًا من ذلك، احتلت القوات الإسرائيلية باقي فلسطين التي كانت تحت الانتداب سابقًا، وهي الأراضي المعروفة بالضفة الغربية وقطاع غزة. الأهم كان سيطرة إسرائيل على كامل القدس، بما في ذلك نصفها الشرقي، الذي يحتوي على المدينة القديمة والأماكن ذات الأهمية الكبرى لدى الديانات الثلاث (اليهودية والإسلام والمسيحية). وما لبثت إسرائيل، مدعومة بانتصارها المظفر وبالموافقة المبتهجة للولايات المتحدة، أن اتخذت القرار المصيري بإنشاء مستعمرات يهودية في الأراضي المحتلة، خارج السيادة القانونية لإسرائيل نفسها. وقد أودعت الولايات المتحدة بعض الاعتراضات على سياسة الاستيطان تلك من وقت إلى آخر، إلا أنها لم تصنع شيئًا لمنعها.

أتت الأعوام الاثنا عشر التالية بسلسلة من الأحداث التي جذبت الولايات المتحدة أكثر فأكثر إلى المنطقة، دعمًا لإسرائيل أحيانًا، ومعارضة لظاهرة الأصولية الإسلامية الجديدة أحيانًا. فقد اندلعت حرب أخرى بين العرب وإسرائيل في عام 1973، انتهت مرة أخرى بانتصار إسرائيلي كبير[26]. ردت الدول العربية بفرض حظر على تصدير النفط إلى الغرب وحلفائه، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعار الطاقة وأزمة اقتصادية كان لها عواقب عالمية، تضمنت نقصًا في النفط وتصاعدًا ملتهبًا للأحداث في فيتنام الجنوبية أدى إلى اندثارها، وتنشيطًا هائلًا للاقتصاد الموجه لأحد أكبر منتجي النفط، الاتحاد السوفياتي. وفي عام 1979، ضربت العالم أزمة نفط جديدة في أعقاب حدث آخر أعظم حتى من سابقه، الثورة الإيرانية. فقد فر شاه إيران المستبد، الذي حظي بدعم الولايات المتحدة منذ أن ساعده عملاء وكالة الاستخبارات المركزية في التخطيط لانقلاب عام 1953 الذي أتي به إلى السلطة، في وجه الثوار الشيعة الأصوليين. وقد

(26) ربما يدرك القارئ أن هذه النتيجة، التي يسوقها المؤلف بثقة بالغة، لحرب عام 1973، ليست بمثل هذا الوضوح أو الحسم. فهو يظهر وكأن النصر كان نصرًا إسرائيليًا باهرًا كذلك الذي حققته في حرب عام 1967، والأكيد أنه لم يكن كذلك، إن اعتبرناه نصرًا من الأصل. ويؤيد ذلك ما قامت به إسرائيل نفسها من تكوين لجنة التحقيق في أسباب الإخفاقات الكثيرة التي وقعت في أثناء الحرب، وهي اللجنة التي عرفت لاحقًا بلجنة أغرانات. (المترجم)

شجعت الدولة الثيوقراطية، التي حلت محل الشاه، المتظاهرين على الاستيلاء على السفارة الأميركية في طهران، وفي خلال العام ونصف العام التالي، احتفظ الإيرانيون باثنين وخمسين من الرهائن الأميركيين. وفي نهاية عام 1979، غزا الاتحاد السوفياتي أفغانستان. كان هدف موسكو هو دعم نظام موال يتداعى، إلا أنه، وبالترادف مع الثورة الإيرانية، بدا للرئيس جيمي كارتر أن مصالح الولايات المتحدة يتم طردها بالقوة من منطقة حيوية. لذلك تعهدت عقيدة كارتر، التي أعلن عنها في كانون الثاني/ يناير 1980، بحماية تمكن الولايات المتحدة الوصول إلى الخليج العربي، وبالقوة إذا لزم الأمر. بذلك، فقد كانت تحديثًا لمذكرات سياسة الباب المفتوح التي وضعت ختمًا لا يمحى على العولمة الأميركية قبل ذلك بثمانين عامًا.

الحرب الباردة الثانية (والأخيرة)

لم يسحب الغزو السوفياتي لأفغانستان الولايات المتحدة إلى الشرق الأوسط الكبير بشكل أعمق فحسب، وإنما وضع أيضًا نهاية للوفاق. فقد كانت اتفاقية هلسنكي قمته، إلا أنه بالنظر إلى الوراء بأثر رجعي، كانت كذلك بداية انحداره. لقد كان المدافعون عن حقوق الإنسان قلقين من التضحية بالقيم الأميركية في سبيل تحقيق الاستقرار بين القوى العظمى ومتشككين بحجة كيسنجر بأنه لا يوجد حق للإنسان أعلى من تجنب الفناء النووي. وعلى الرغم من ردة فعل كارتر القوية على الأحداث في أفغانستان، إلا أن رونالد ريغان[27] استطاع هزيمته بسهولة في الانتخابات الرئاسية لعام 1980، بناءً على وعد بإعادة إحياء سياسة الاحتواء وكما هو شعار حملته، «جعل أميركا عظيمة مرة أخرى». زاد ريغان من الإنفاق العسكري، حتى مع خفضه للضرائب في البلاد، الأمر الذي أرعب العالم من احتمال اندلاع الحرب وأدى إلى مستويات قياسية من العجز في الميزانية الفدرالية. وفي عام 1983، تحدث ريغان عن الاتحاد السوفياتي بطريقة

(27) رونالد ريغان (Ronald Reagan) (1911-2004): ممثل وسياسي جمهوري أميركي تولى منصب الرئيس الأربعين للولايات المتحدة الأميركية بين عامي 1981 و1989. كان صوتًا محافظًا قويًا وانتخب حاكمًا لولاية كاليفورنيا بين عامي 1967 و1975. (المترجم)

لم يتحدث بها أي رئيس منذ ترومان، بوصفها «إمبراطورية الشر» التي تحيا خارج نطاق الحضارة. وخلف الستار، كادت مناورة عسكرية لحلف شمال الأطلسي (الناتو)، تحت اسم آبل آرشر (Able Archer)، أن تقود إلى اندلاع الحرب مع الاتحاد السوفياتي، الذي خشي من أن المناورة كانت غطاءً لهجوم أميركي حقيقي.

وبعد فترة الخمسة عشر عامًا من الأمل والرضا عن التوافق، شهدت الحرب الباردة الثانية استئناف التوترات بين القوى العظمى بضراوة لم تُعهد منذ سنوات الأزمة في أوائل الستينيات. وقد كان ذلك يعيد نمطًا مألوفًا. شهدت الفترة بين عامي 1979 و1984، مرحلة ثالثة من أزمة التوترات، عندما ارتعد باقي العالم من احتمالية اندلاع حرب عالمية ثالثة بين واشنطن وموسكو (كانت المرحلتان الأخريان بين عامي 1947و1953 وكذلك بين 1958 و1962). وكمعظم الأنظمة المعقدة، كانت الحرب الباردة تشهد مدًا وجزرًا بطرائق يمكن التنبؤ بها بشكل عام، حتى وإن اختلفت الظروف المحددة. إلا أن الوفاق الذي أعقب الحرب الباردة الثانية هذه المرة لم يكن سكونًا موقتًا بين الأزمات، وانتهت الحرب بسرعة في عام 1989.

كان الفضل في هذا التحول المفاجئ في الأحداث يرجع إلى رجلين اثنين. أولهما كان ميخائيل غورباتشوف[28]، الذي أصبح زعيمًا للاتحاد السوفياتي في عام 1985 وبدأ على الفور تحرير الثقافة السياسية للأمة (الغلاسنوست) وإصلاح اقتصادها الموجه المتداعي (البيريسترويكا). وقد كان ذلك تحولًا لا يقل ثورية عن ذلك الذي بدأه لينين في عام 1917، بيد أن الإصلاح، لا الثورة، كانت هي هدف غورباتشوف، فلم يرد قط إسقاط النظام الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، فضلًا عن الاتحاد السوفياتي نفسه. وعلى الرغم من تدرجهما، ظلت عمليتا الغلاسنوست والبيريسترويكا صدمة كبيرة للنظام. فقد بدأ سلسلة من التفاعلات المتتالية انتقلت

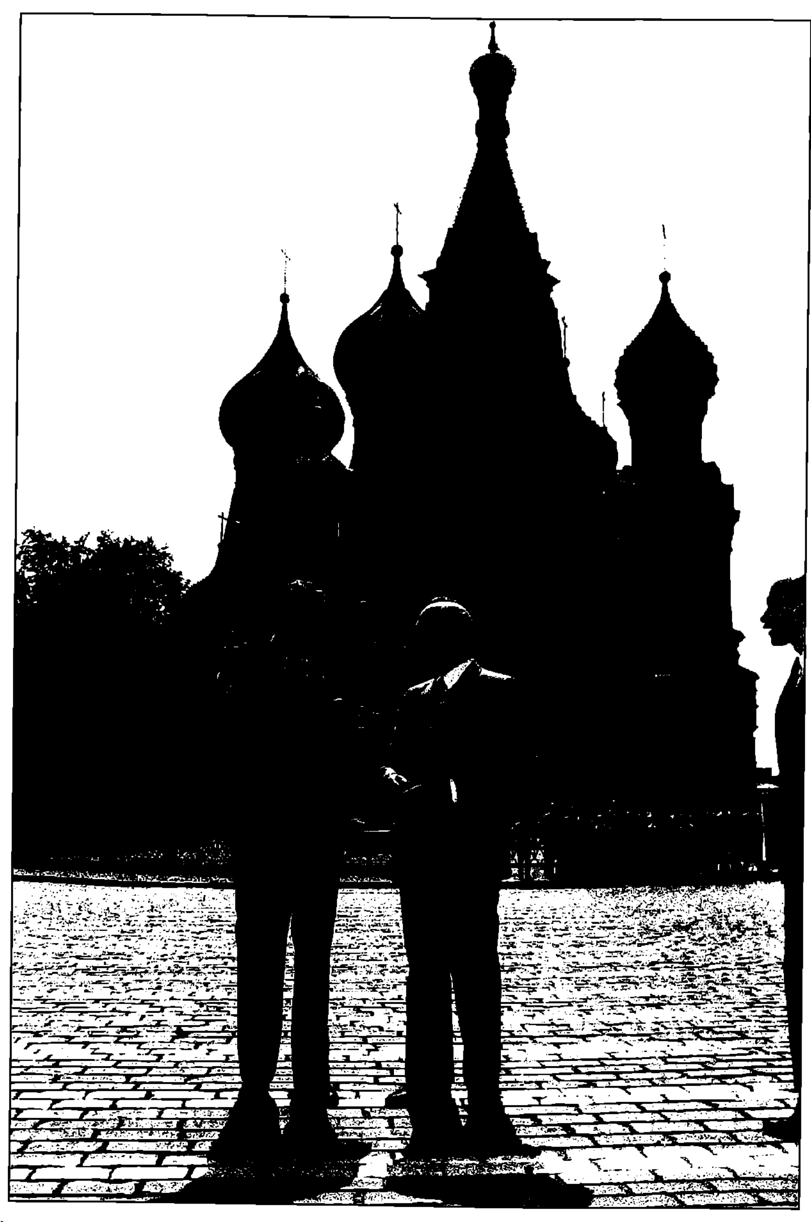
---

(28) ميخائيل غورباتشوف (Mikhail Gorbachev) (ولد في عام 1931): سياسي سوفياتي تولى منصب الزعيم الثامن والأخير للاتحاد السوفياتي والأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي بين عامي 1985 و1991. عرف بسياساته الإصلاحية وإنهائه للحرب الباردة مع الولايات المتحدة وشهد عهده انهيار وتفكك الاتحاد السوفياتي. (المترجم)

إلى الدول التابعة للاتحاد السوفياتي في شرق أوروبا، وبحلول عام 1989، كانت العملية قد اكتسبت زخمًا يصعب إيقافه. فكانت الطريقة الوحيدة لفعل ذلك هي استخدام القوة العسكرية، الأمر الذي لم يتردد فيه أسلاف غورباتشوف (مثل خروشوف في هنغاريا عام 1956، وبريجنيف في تشيكوسلوفاكيا عام 1968). إلا أن غورباتشوف تردد عندما فر الأوروبيون الشرقيون إلى النمسا وألمانيا الغربية وتقطعوا إربًا على جدار برلين. وعلى الرغم من قدرة الجيش الأحمر على إيقاف ذلك، رفض غورباتشوف إطلاق العنان له.

أما الشخص الآخر المستحق للثناء إثر إنهائه الحرب الباردة سلميًا، فقد كان، وللمفاجأة، رونالد ريغان. وقد أثبت هذا المحارب العنيد في الحرب الباردة، الذي أعاد إطلاق حملة أميركا الصليبية الأخلاقية ضد الشيوعية باستخدام لغة عدائية وإنفاق عسكري أعلى من سابقه، أنه أحد أعظم صناع السلام في القرن العشرين. فحقيقة أنه استطاع التوصل إلى السلام وفقًا للشروط الأميركية تفسر لماذا تم تبجيله بهذه السرعة في الذاكرة الجمعية للأمة. على عكس الخرافة السائدة عن الحرب الباردة، لم يقم ريغان «بإفلاس السوفيات» حتى يجبرهم على التسليم، كما يمكن أن يصور بعض المثقفين الأمر، ولم «يحمل الشيوعيين على الإذعان بالتحديق فيهم» متلبسًا صرامة محارب الحرب الباردة. نعم، ربما عانى الاتحاد السوفياتي من محنة اقتصادية، إلا أنه كان أبعد ما يكون عن الإفلاس. حتى وإن كانت الحال كذلك، فقد ظل الجيش السوفياتي قويًا بما فيه الكفاية لقمع الحركات الليبرالية المتنامية في شرق أوروبا. فلو لم يأت مصلح مثل غورباتشوف إلى الزعامة السوفياتية في عام 1985، ولو تم اختيار أحد المتشددين الآخرين بدلًا منه، لما انتهت الحرب الباردة سلمًا أو حربًا بين عامي 1989 و1990، على الأرجح، كان الاتحاد السوفياتي لا يزال باقيًا حتى يومنا هذا. لقد كان غورباتشوف يملك الخيار عندما قرر إطلاق سياسات الغلاسنوست والبيريسترويكا، وكان يمتلك الخيار عندما قرر عدم سحق الحركات المناهضة للشيوعية في عام 1989. فلم يكن شيء مما حدث في تلك السنوات الأربع الاستثنائية بين عامي 1985 و1989، محتمًا.

الصورة (5-4)



عندما صعد جيل جديد من القيادات السوفياتية إلى سدة السلطة في عام 1985، تحت قيادة الرئيس ميخائيل غورباتشوف، حول الرئيس رونالد ريغان مساره وسعى إلى نهاية سلمية للحرب الباردة. وتُبين هذه الصورة، التي التقطت لاجتماعهما على مستوى القمة في موسكو عام 1988، الدفء الذي اكتنف العلاقة الجديدة.

بيد أن ريغان كان يملك الخيار أيضًا، ويرجع إليه الفضل الخالد في قراره بأخذ غورباتشوف على محمل الجد والتفاوض معه بوصفه شريكًا لصناعة السلام، وليس بوصفه عدوًا. فعلى عكس نصيحة كثير من مستشاريه، اختار ريغان أن يقبل إصلاحات غورباتشوف بوصفها أفضل طريق للأمام، واختار أن يلتقي غورباتشوف في سلسلة من اجتماعات القمة - في جنيف عام 1985 وريكيافيك عام 1986، وواشنطن عام 1987 وموسكو ونيويورك عام 1988 - والتي صممت لكي تنزع فتيل التوترات بين الشرق والغرب. كان الدفء الذي تشاركه هذان الزعيمان ظاهرًا وصادقًا بشكل واضح. لم يكن أي منهما يتوقع أن تنهي دبلوماسيتهما الحرب الباردة، إلا أن ذلك هو ما حدث بالضبط. لذلك يستحق ريغان أن يتبوأ في التاريخ، إلى جانب غورباتشوف، مكانة صانعي السلام.

لم تكن هناك لحظة واحدة في التاريخ تحدد نهاية الحرب الباردة، تمامًا كما لم يكن لها تاريخ بداية رسمي في أواخر الأربعينيات. فقد برزت من خلال تضافر قوى هيكلية، ساعدتها في الطريق، وفي لحظات محورية، اختيارات الأفراد، وهو ما تبلور إلى شيء أكبر. وقد كانت هذه هي أيضًا الطريقة التي انتهت بها. فقد سقط جدار برلين في تشرين الثاني/ نوفمبر من عام 1989 - بعد ذلك، وقد ضعفت القوة السوفياتية بشكل أساسي، بات من الصعب استمرار الحرب الباردة بوصفها صراعًا ثنائي القطبية على السيادة بين الرأسمالية الليبرالية الأميركية والشيوعية السوفياتية. أما ألمانيا المقسمة، السبب الرئيس وراء توترات الحرب الباردة، فقد أعيد توحيدها في تشرين الأول/ أكتوبر من العام التالي. وبدأ الحكام الشيوعيون يتساقطون واحدًا تلو الآخر في شرق أوروبا. وانفض حلف وارسو في تموز/ يوليو من عام 1991، وفي كانون الأول/ ديسمبر تم حل الاتحاد السوفياتي نفسه. وأصبحت الولايات المتحدة الآن هي القوة العظمى الوحيدة في العالم، إلا أن الأميركيين سرعان ما سيكتشفون أن السيادة نادرًا ما تجعل ممارسة القوة سهلة.

الفصل السادس

القوة الفائقة وشكاياتها

في نهاية الحرب الباردة، أصبح الأميركيون في موقف لم يواجهوا مثله منذ عام 1940 - موقف لا يتحدد فيه وجودهم الدولي بالمفارقة مع آخر شمولي. كذلك كان موقف أميركا في العالم في عام 1991، جديدًا من جانب آخر، فقد كانت الولايات المتحدة في موقع من السيادة لم يُر منذ أيام الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت الآن أكثر من مجرد قوة عظمى. يشير المحللون إلى هذه الحالة بـ «أحادية القطب»، المصطلح الذي، على الرغم من عدم منطقية معناه، دل على حجم السيطرة الأميركية بعد أن شهدت الحرب الباردة الثنائية القطب قوتين عظميين تشتركان في قيادة الشؤون العالمية على قدم المساواة. إلا أن الاستراتيجيين العسكريين تحدثوا بشكل أكثر تقنية عن «سيطرة أميركا الشاملة على كل المجالات». أما المسؤولون الأميركيون الذين اعتقدوا بأنهم امتلكوا القوة لتغيير العالم إلى الأفضل، مثل وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت[1]، فقد صوروا الولايات المتحدة بوصفها «الأمة التي لا غنى عنها». وعلى العكس منهم، أولع المتشككون بتسمية وزير الخارجية الفرنسي هوبير فيدرين[2]، «القوة الفائقة» (Hyperpower)، الذي لم يعبر فقط عن حجم القوة الأميركية، إنما أيضًا عن نشاطها الذي لا يهدأ.

---

(1) مادلين أولبرايت (Madeleine Albright) (ولدت عام 1937): سياسية ودبلوماسية أميركية، شغلت منصب وزير خارجية الولايات المتحدة في إدارة الرئيس بيل كلينتون بين عامي 1997 و2001. كانت أول امرأة تشغل هذا المنصب في تاريخ الولايات المتحدة. وقد شغلت قبله منصب مبعوث الولايات المتحدة إلى الأمم المتحدة في عام 1993. (المترجم)

(2) هوبير فيدرين (Hubert Védrine) (ولد في عام 1947): سياسي اشتراكي فرنسي، يّعد أطول من شغل منصب مستشار لرئيس فرنسا حيث عمل مستشارًا للرئيس الفرنسي فرانسوا ميتران لأربعة عشر عامًا بين عامي 1981 و1995، عمل في آخر أربعة منها بوصفه المتحدث باسم الرئاسة الفرنسية. ومن ثم تم تعينه وزيرًا للخارجية الفرنسية بين عامي 1997 و2002 في حكومة الرئيس ليونيل جوزبين. كان هو الذي صك مصطلح القوة الفائقة (Hyperpower) ليصف القوة غير المسبوقة للولايات المتحدة على الساحة العالمية. (المترجم)

ربما التقط هذا العصر على أفضل وجه بدراستين جيدتين (وإن كانتا معيبتين) عن أميركا والعالم في لحظة من عدم اليقين. ففي عام 1992، نشر فرانسيس فوكوياما[3]، أستاذ العلوم الاجتماعية بجامعة ستانفورد، كتابه **نهاية التاريخ والإنسان الأخير** (*The End of History and the Last Man*)، الذي حاجج فيه بأن خاتمة الحرب الباردة قد أسفرت عن المرحلة الأخيرة من التطور السياسي للإنسانية. فقد ودعت الرأسمالية الديمقراطية الليبرالية خصومها الكثر، وأهمهم الفاشية والشيوعية، وأصبحت الآن تمثل نظام الحكم الوحيد المقبول المتبقي. لذلك توقع فوكوياما أنه من الآن فصاعدًا، سوف تنتشر الليبرالية والديمقراطية والرأسمالية، وسوف يصبح النظام العالمي مبنيًا على قدسية الحقوق الفردية.

بيد أن التاريخ لم يسر على تلك الطريقة تمامًا. فقد خلقت نهاية الحرب الباردة بالفعل مساحة للرأسمالية الديمقراطية الليبرالية التي تحدث عنها فوكوياما، لكي تزدهر، إلا أنها أحيت كذلك توترات كانت نائمة، وقودها العرق والدين والإثنية والأممية والقبلية. وما إن أطلقت هذه القوى الرجعية على العالم، حتى قادته إلى مرحلة جديدة في التاريخ، تميزت بالعنف المتجدد وسفك الدماء. وبعد أربعة أعوام من إعلان فوكوياما، السابق لأوانه، بنهاية التاريخ، تنبأ مشرفه الأكاديمي السابق، أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفارد، صامويل هنتنغتون[4]، بشيء أكثر

---

(3) فرانسيس فوكوياما (Francis Fukuyama) (ولد في عام 1952): أكاديمي أميركي وأستاذ للعلوم السياسية تخرج في جامعة هارفرد ثم عمل بعدة جامعات أميركية مرموقة. اشتهر بكتابه **نهاية التاريخ والإنسان الأخير** الذي نشر في عام 1992. أما آخر أعماله الكبرى فهو كتابه المكون من مجلدين عن «أصول النظام السياسي والانحطاط السياسي» الذي تم نشر الجزء الأول منه في عام 2011 والثاني في عام 2014. (المترجم)

(4) صامويل هنتنغتون (Samuel P. Huntington) (1927-2008): أكاديمي أميركي وأستاذ العلوم السياسية تخرج في جامعة هارفارد وعمل فيها لأكثر من خمسين عامًا. عمل في البيت الأبيض بوصفه منسق تخطيط السياسات لمجلس الأمن القومي خلال فترة رئاسة كارتر. كان أول أعماله الكبيرة كتاب **الجندي والدولة، نظرية وسياسة لعلاقات المدنية العسكرية** الذي نشر في عام 1957، ويعتبر حتى اليوم أهم ما كتب عن العلاقات المدنية العسكرية الأميركية. تلا ذلك كتابه الذي بدت به شهرته **النظام السياسي في المجتمعات المتغيرة** في عام 1968، والذي ألهم فوكوياما لكتابة أحدث أعماله. إلا أن كتابه **صدام الحضارات وإعادة صناعة النظام العالمي** الذي نشر في عام 1996، يعد أشهر أعماله قاطبة، ولا يزال الناس، حتى يومنا هذا، يناقشون أفكار هذا الكتاب ويتناولونها بالنقض والحجاج وتلهم أفكاره كثيرًا من صناع القرار حول العالم. (المترجم)

قتامة بكثير. ففي كتابه **صدام الحضارات وإعادة صنع النظام العالمي** (*The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order*) الذي صدر في عام 1996، حذر هنتنغتون من أن الليبرالية لن تنتشر، بل سوف يكون عليها أن تقاتل دفاعًا عن حياتها في مواجهة زحف القوى الصاعدة للقومية والكبرياء الإثني والأصولية الدينية.

بدا المستقبل الذي تنبأ به فوكوياما مشرقًا، في حين بدا ذلك الذي تنبأ به هنتنغتون قاتمًا، وبدا أنهما متناقضان. إلا أن كلتا الرؤيتين أخطأت في أشياء وأصابت في أخرى. فبعد الحرب الباردة، خرجت الليبرالية منتصرة، حتى وإن ظهرت تحديات أخرى في الوقت نفسه. وقد شُكِل العالم الفوضوي بعد الحرب الباردة نتيجة الصراع بين هاتين الرؤيتين، وقارع صراعهما العنيف الدور الأميركي في العالم.

حروب للأبد

كان تحول السياسة الخارجية الأميركية باتجاه الشرق الأوسط قد بدأ بالفعل قبل نهاية الحرب الباردة، إلا أن الأحداث الدراماتيكية التي وقعت بين عامي 1989 و1991، سرعت من هذا التحول. وقد نبعت الأهمية الحيوية للمنطقة من اجتماع عدة عوامل. أحدها كان الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية للنفط. فقد أصبحت الولايات المتحدة مستوردًا صافيًا للنفط في السبعينيات، كذلك ما فتئ حلفاؤها في أوروبا واليابان يعتمدون على النفط المستورد من الخارج، في الوقت نفسه، أصبحت دول رئيسة في الشرق الأوسط، خاصة المملكة العربية السعودية والعراق وإيران، أكبر مصدري العالم. وكانت الأهمية الجيوستراتيجية للمنطقة سببًا آخر للاهتمام بها، خاصة في عالم العولمة الجديد، عندما بات الوصول إلى إمدادات الطاقة وخطوط الملاحة بين آسيا وأوروبا، أمرًا حيويًا. أما السبب الثالث فكان صعود الإرهاب الإسلامي، المسألة التي باتت تمثل أزمة لا تنتهي، وأصبحت، في الثقافة السياسية الأميركية، تضاهي الحرب الباردة في دوام شدتها. وكان السبب الرابع نابعًا من السياسة الداخلية كما الجغرافيا السياسية، ألا وهو إسرائيل. فمنذ عام 1967، ما فتئت العلاقات بين الولايات المتحدة وإسرائيل تزيد قربًا. فقد كانت إسرائيل حليفًا مهمًا، أولًا في مواجهة الشيوعية،

ثم في مواجهة الإرهاب. إلا أنها كانت مهمة أيضًا بالنسبة إلى قطاع واسع من الأميركيين، وليس اليهود فحسب، ذلك بوصفها رمزًا للديمقراطية الليبرالية في منطقة تعد هذه الخصال فيها نادرة.

وبينما لا يكفي واحد من هذه الأسباب بمفرده لتفسير أهمية الشرق الأوسط للولايات المتحدة، إلا أنها مجتمعة، خاصة مع نموها في الحجم والزخم عبر الزمن، خلقت هذه العوامل الأربعة الأوضاع التي جعلت الولايات المتحدة في حالة دائمة تقريبًا من التدخل لحل أزمات المنطقة.

وعندما غزا العراق الكويت في آب/ أغسطس 1990، ردت الولايات المتحدة بإنشاء تحالف دولي لمواجهته. وكانت النتيجة هي حرب الخليج في عام 1991، التي شهدت طرد الولايات المتحدة للقوات العراقية من الكويت. سُمح للزعيم العراقي صدام حسين[5]، بالبقاء في السلطة، وإن كان ذلك تحت قيود صارمة - أذنت فيها الأمم المتحدة رسميًا وفرضتها الولايات المتحدة فعليًا - تمثلت في سيادة جوية محدودة ونزع للسلاح وحصار اقتصادي استهدف تقليص عائدات النفط العراقية، وتدمير أسلحة الدمار الشامل التي يمتلكها العراق، وحكم شبه ذاتي للأكراد في شمال البلاد. أثارت هذه القيود غضب صدام حسين وأشار - بشكل مضلل كما ظهر لاحقًا - أنه لم يقم بالتخلص من أسلحة الدمار الشامل لديه.

كانت هزيمة العراق تعني تحرير الكويت وتأمين المملكة العربية السعودية، إلا أنها كذلك جرَّت الولايات المتحدة إلى علاقات أوثق بمنطقة تشهد ثورة

(5) صدام حسين (1937-2006): سياسي عراقي شغل منصب الرئيس الخامس للعراق بين عامي 1979 و2003. كان أحد قادة حزب البعث العربي الاشتراكي الثوري وكان أحد أهم قادة انقلاب 1968 الذي دفع الحزب إلى السلطة. وبعد إطاحته برفقائه في قيادة الحزب ومعارضيه، أصبح الحاكم المطلق للعراق حتى الغزو الأميركي له في عام 2003. كان له دور بارز في أهم أحداث القرن العشرين التي مرت بمنطقة الشرق الأوسط والتي أمسَت آثارها باقية حتى يومنا هذا، بل إن دوره في هذه الأحداث كان من العِظَم بمكان، بحيث لا يمكننا اختصاره في أسطر قليلة. قبضت عليه القوات الأميركية في كانون الأول/ ديسمبر 2003، ومن ثم تعرض للمحاكمة وحكم عليه بالإعدام وتم تنفيذ الحكم أمام الكاميرات في الثلاثين من كانون الأول/ ديسمبر 2006. (المترجم)

دينية تزعزع استقرارها إلى حد بعيد. فقد كانت الثورة الإيرانية في عام 1979، والمقاومة الإسلامية للغزو السوفياتي لأفغانستان في العام نفسه، تنذران بما تنبأ به هنتنغتون بعد نهاية الحرب الباردة، أي الانبعاث الانفجاري للصراع الديني. وما إن بدأت الولايات المتحدة - المجتمع الحداثي المعقد الذي هو في آن واحد مسيحي مخلص، ويهودي بشكل خاص، وعلماني بلا هوادة - تؤدي دورًا أكثر قربًا في دول إسلامية مثل المملكة العربية السعودية، حتى بدأت طائفة من الأصوليين السُّنة المتشددين المقاومة.

أطلقت أهم الجماعات المناهضة لأميركا على نفسها اسم «القاعدة» - أي الأساس بالعربية، وهو ما يشير إلى نقائها العقائدي[6]. كانت القاعدة تحت قيادة السعودي صاحب الشخصية الكاريزمية أسامة بن لادن، الذي انحدر من عائلة ثرية، إلا أنه كره الغرب ودعمه للأنظمة العربية في الشرق الأوسط التي تعاونت مع الولايات المتحدة، والتي، بحسب رأيه، خانت بهذا المبادئ المقدسة للإسلام. في الثمانينيات، قاتل بن لادن، بوصفه أحد المجاهدين، السوفيات في أفغانستان. وعندما انتهت هذه الحرب في عام 1989، حول قتاله إلى الولايات المتحدة. كانت الحملتان، كما حاج بن لادن، حروبًا مقدسة ضد قوى الحداثة التي تهدف إلى إخضاع الإسلام، فلم يكن يرى فارقًا كبيرًا بين الروس الشيوعيين والأميركيين الرأسماليين.

شنت القاعدة وفروعها عدة هجمات ضد أهداف أميركية في التسعينيات، بما فيها تفجير مبنى مركز التجارة العالمي بنيويورك في عام 1993، وتدمير سفارتي الولايات المتحدة في كل من كينيا وتانزانيا في عام 1998، وهجوم على السفينة الحربية يو إس إس كول (USS *Cole*)، الرابضة في أحد موانئ اليمن، تسبب في مقتل 200 بحار أميركي. بيد أن عمليتهم الكبرى، والتي تسببت بتحول

(6) المعنى الأقرب للصحة لتسمية «القاعدة»، من ناحية اللغة العربية، والذي قصده مؤسسو التنظيم على الأرجح، ليس القاعدة بمعنى الأساس أو النقاء العقائدي كما توهم المؤلف، وإنما قاعدة بالمعنى العسكري للكلمة التي تقابل كلمة (base) في اللغة الإنكليزية، أي القاعدة التي تنطلق منها الهجمات وتستقر بها القوات. (المترجم)

عنيف في مجرى التاريخ، كذلك الذي أحدثه الهجوم الياباني على بيرل هاربر في عام 1941، هي ما عُرف بأحداث «الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر». ففي ذلك التاريخ من عام 2001، قام مقاتلون من القاعدة باختطاف أربع طائرات مدنية وقادوا اثنتين منها للاصطدام ببرجي مركز التجارة العالمي وأخرى للاصطدام بمبنى وزارة الدفاع (البنتاغون). ورد الرئيس جورج بوش الابن[7] بشن «حرب مفتوحة على الإرهاب» لم تستهدف الجماعات الإرهابية مثل القاعدة فحسب، وإنما أيضًا الدول التي اشتبِه في دعمها وتحريضها.

كانت أفغانستان، أول دولة تسقط فريسة هذه العقيدة، فقد كانت موئل القاعدة. طلب بوش من طالبان، المجموعة التي كانت تحكم أفغانستان، تسليم بن لادن. وعندما رفضت طالبان، غزت الولايات المتحدة البلاد في تشرين الأول/ أكتوبر. فرت طالبان من العاصمة، كابل، ولجأ بن لادن إلى الاختباء (حيث قُتل في النهاية على يد القوات الخاصة الأميركية في باكستان عام 2011). بدا أن الولايات المتحدة قد كسبت الحرب، إلا أنها وجدت احتلال أفغانستان أصعب بكثير من غزو عاصمتها، وسرعان ما تحولت حرب التصفية إلى صراع غير محدود وغير حاسم للسيطرة على البلاد. فقد كانت أفغانستان بلادًا تستعصي على الاحتلال، وهو ما أدركه البريطانيون في القرن التاسع عشر واكتشفه السوفيات في الثمانينيات. إلا أن إدارة بوش فاقمت من هذه المصاعب الطبيعية بارتكابها أخطاء خاصة بها.

وفي نهاية عام 2001، عندما بدا أن النصر في أفغانستان على مرمى البصر، حول بوش ناظريه سرًا إلى خصم أكثر ألفة، العراق. وكان أعضاء في إدارة بوش، خاصة في البنتاغون، يشكون ليس في امتلاك العراق برنامجًا سريًا وغير شرعي

---

(7) جورج بوش الابن (George W. Bush) (ولد في عام 1946): رجل أعمال وسياسي أميركي تولى منصب الرئيس الثالث والأربعين للولايات المتحدة بين عامي 2001 و2009. كان قبل ذلك قد شغل منصب حاكم ولاية تكساس بين عامي 1995 و2000. وقد سبقه أبوه جورج بوش الأب في منصب الرئاسة بين عامي 1989 و1993. شهدت فترة رئاسته أحداثًا كبرى على الساحة العالمية بدأت بأحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر والتي تبعها إطلاق الحرب العالمية على الإرهاب والتي شهدت غزو الولايات المتحدة لكل من أفغانستان والعراق في عامي 2001 و2003. (المترجم)

لأسلحة الدمار الشامل فقط، وإنما في دعم العراق للقاعدة كذلك. لم يكن هناك أدلة تدعم نظريتهم تلك، إلا أن ذلك لم يكن يهم كثيرًا في ظل مناخ الخوف الذي خلقته الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. أما البعض الآخر في إدارة بوش، ممن هم أكثر عدوانية، فقد رأوا أيضًا في ذلك فرصة لتطبيق رؤيتهم عن السيادة الأميركية في المنطقة. وكانت نتيجة ذلك، أن غزت الولايات المتحدة العراق في آذار/ مارس 2003، بعد عشرة أعوام ونيف من دخول البلاد أول مرة، في نمط أصبح الآن مألوفًا، من سير سريع ظاهر السهولة إلى العاصمة، بغداد، يعقبه احتلال دموي فوضوي في مواجهة تمرد بالغ الفعالية. ولم تبدأ الحملة المناهضة لأميركا في الخفوت إلا في خريف عام 2007، بعد أكثر من أربعة أعوام من بداية الغزو، إلا أنه عندما غادرت القوات الأميركية عام 2011، لم يكن العراق أكثر سلامًا أو استقرارًا مما كان عليه في عام 2001. في الواقع، استفادت حركة سنِّية متطرفة جديدة، الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش)، من الفوضى وبدأت تمردًا جديدًا ضد كل من قوات الاحتلال والحكومة في بغداد.

مسؤوليات جديدة

اكتسب العقد الذي أعقب انهيار الاتحاد السوفياتي الاسم الغريب، ولكن الملائم تمامًا، «عصر ما بعد الحرب الباردة». فقد كانت تسعينيات القرن العشرين سنوات ما بعد الحرب الباردة من وجهين، فكانت هذه هي السنوات التي أعقبت انتهاء الحرب الباردة بالمعنى الحرفي، أما بالمعنى المجازي، فقد شهدت نهاية إحدى السمات المحددة للحرب الباردة، أي اقتسام الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي القوة العالمية. أما في عصر ما بعد الحرب الباردة، فوحدها الولايات المتحدة هي التي بقيت.

لذلك، تعالت الولايات المتحدة على الجميع، في الحقيقة تعالت على النظام الدولي ذاته. ففي هذه اللحظة غير العادية – حيث انبطحت روسيا ودخل الاقتصاد الياباني عقده الضائع وكانت الصين تبدأ لتوها اكتساب القوة – لم يكن يواجه الأميركيين أي خصوم. وقد استغلت واشنطن ذلك الموقف في إعادة تشكيل العالم على صورتها. وروج المسؤولون والمثقفون الأميركيون لنشر الرأسمالية

الديمقراطية الليبرالية حول العالم، وأضفت انتصارية فوكوياما الشرعية على جهدهم - ليس لخير الشعوب في كل مكان فحسب، ولكن أيضًا لمصلحة أمن الولايات المتحدة. فوفقًا لنظرية «السلام الديمقراطي»، الأكاديمية التي اكتسبت شعبية في واشنطن، لا تشن الديمقراطيات الليبرالية حروبًا عدوانية، ولا تدخل في حروب مع بعضها. لذلك، سوف يضمن نشر الديمقراطيات نشر السلام. وقد حددت إدارة الرئيس بيل كلينتون[8] استراتيجيتها، آخذة ما سبق في الاعتبار، بالتحول من «الاحتواء إلى توسيع المجتمع العالمي الحر لديمقراطيات السوق». وكذلك أصبح نشر «الحرية» كتابًا مقدسًا أميركيًا.

إن هذا التفاؤل الفوكويامي بشأن قوة الليبرالية العالمية تمكن من العقل الأميركي الرسمي، حتى أنه سرعان ما بات يُعرف بـ «توافق واشنطن». فقد كانت القوة الأميركية تظهر بشكل أكبر في خلال لحظات أزمة الاقتصاد الكلي عندما تحتاج الدول الأخرى مساعدة مالية عاجلة، مثل أزمة العملة المكسيكية في عام 1994، والهلع المالي في جنوب شرق آسيا في عام 1997، وأزمات العملة الأرجنتينية والروسية في عام 1998. وفي مقابل الإنقاذ المالي، كان على الدول المصابة القيام بـ «تعديل هيكلي» عبر خفض التنظيم الحكومي وخصخصة اقتصاداتها. في الوقت نفسه، شهدت الولايات المتحدة ارتفاعًا في أعداد المهاجرين من أميركا اللاتينية (خاصة المكسيك) وجنوب آسيا والصين وجنوب شرق آسيا (من الفلبين بشكل رئيس ولكن أيضًا من فيتنام)، الأمر الذي لم يعمق من عولمة الاقتصاد الأميركي فحسب، وإنما المجتمع الأميركي نفسه.

بيد أن التفاؤل الفوكويامي سرعان ما تصلب بفعل تشاؤم الواقعية الباردة لصدام الحضارات الذي تنبأ به هنتنغتون، والذي بدأ يظهر في الوقت نفسه الذي بدأ فيه توافق واشنطن يصبح حكمة تقليدية. فقد انفجر «التطهير العرقي» - ذلك

(8) بيل كليتنون (Bill Clinton) (ولد عام 1946): محامٍ عام وسياسي أميركي ديمقراطي، شغل منصب الرئيس الثاني والأربعين للولايات المتحدة بين عامي 1993 و2001. ثم شغل منصب حاكم ولاية أركانساس بين عامي 1979 و1981 وعامي 1983 و1992. (المترجم)

المصطلح الجديد الذي كان يختلف عن الإبادة الجماعية في أنه يهدف إلى إبادة جماعات إثنية معينة من مساحة محددة من الأرض المتنازع عليها - في جنوب شرق أوروبا، حيث تفككت يوغسلافيا إلى عدد من الطوائف المتحاربة. وشهدت جمهورية البوسنة والهرسك اليوغسلافية السابقة، بمجتمعاتها المتداخلة من الكروات الكاثوليك والصرب الأرثوذكس والبشناق المسلمين، أسوأ حالات التطهير العرقي، إلا أنها لم تكن الوحيدة. فقد اندلع العنف العرقي كذلك في رواندا عام 1994، حيث ذبحت الأغلبية من الهوتو أكثر من مليون فرد من قبيلة خصومهم التوتسي من دون تمييز.

ولحل مشكلات عالم ما بعد الحرب الباردة، كونت رؤيتا كل من فوكوياما وهنتنغتون خليطًا عُرف بأسماء متنوعة مثل «التدخلية الليبرالية» و«التدخلية الإنسانية» و«مسؤولية الحماية» (التي عادة ما يتم اختصارها إلى R2P). فقد كانت الانتصارية الليبرالية، التي روج لها فوكوياما تحدد مسار التاريخ، أما جبرية صدام الحضارات الخاصة بهنتنغتون، فهي تحدد القوى البدائية التي تقف في طريقه. إذًا، فقد كان الحل يكمن في تحريك الأولى لتواجه الثانية، حيث تستخدم الديمقراطيات الليبرالية قدراتها السياسية والاقتصادية والعسكرية في نهاية الأمر، لهزيمة القوى الدينية والإثنية وقوى العنف القومي، المعادية للتاريخ.

كانت النتيجة هي تبرير أيديولوجي جديد للحروب الخارجية، ليس مختلفًا عن الإمبريالية الليبرالية للقرون السابقة، والذي سوف تقوم الولايات المتحدة وحلفاؤها (بريطانيا بموجبه)، بالتدخل في البلاد الأخرى لخيرها ولضمان أمن الآخرين كذلك. واعتقد المسؤولون في واشنطن ونيويورك ولندن وبروكسل، أن مسؤولية أميركا هي أن تستخدم قوتها ونفوذها لحماية الضعفاء، حتى وإن كان ذلك يعني انتهاك مبدأ أقدم بكثير في القانون الدولي، ألا وهو السيادة الوطنية. وزاد عدم تدخل كلينتون في رواندا من قوة هذه العقيدة الجديدة - فقد أرقت الصور المروعة لجثث آلاف القتلى التوتسي، الطافية على سطح نهر كاجيرا، المخيلة الغربية. لذلك، حركت الولايات المتحدة حلف شمال الأطلسي (الناتو) لإيقاف سفك الدماء في البلقان، أولًا في البوسنة عام 1995 ومن ثم في كوسوفو

عام 1999. وقد بررت تدخلات غربية أخرى في غرب أفريقيا وليبيا عام 2011، بمسؤولية الغرب عن حماية الأمم والشعوب الأخرى.

حرب باردة جديدة؟

بدأت لحظة أحادية القطب التي تمتعت فيها الولايات المتحدة بالسيادة، تخفت في خلال خمسة عشر عامًا من نهاية الحرب الباردة. يرجع ذلك جزئيًا إلى ردة فعل إدارة بوش، الكارثية من الناحية الاستراتيجية، على أحداث الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، والذي أثبت إخفاقه في العراق في نهاية الأمر. إلا أن ذلك كان أيضًا النتيجة الحتمية للمسار الطبيعي للعلاقات الدولية. فحتى وإن بقيت الولايات المتحدة الدولة الأقوى في العالم، فقد بات مقدورًا لبعض الأمم الأخرى أن تقلص الفارق. وفي القرن الحادي والعشرين، كانت الدولة الأكثر لحاقًا بالولايات المتحدة هي جمهورية الصين الشعبية.

عندما سافر ريتشارد نيكسون إلى بكين عام 1972، كان يعلم أنه يفتح صفحة جديدة في التاريخ العالمي، إلا أنه كان سوف يتفاجأ هو نفسه على الأرجح، لو تسنت له رؤية كيف كان هذا التغير هائلًا. ففي خلال ثلاثة عقود، انتقلت الصين من كونها بلدًا كبيرًا ولكنه فقير، إلى قوة اقتصادية هائلة لديها من القوة العسكرية ما يكفي لمضاهاة قوة الولايات المتحدة، على الأقل في شرق آسيا وغرب المحيط الهادئ.

المثير للسخرية أن أميركا هي من قامت بالمساعدة الأكبر للصين عبر مسارها. ففي البداية، في الفترة بين الانفتاح الذي قام به نيكسون ونهاية الحرب الباردة، كانت الصين حليفًا استراتيجيًا في مواجهة عدو مشترك، الاتحاد السوفياتي. إلا أن المال سرعان ما وفر الرابط بين البلدين. ففي الثمانينيات، وتحت قيادة دينغ شياو بينغ (Deng Xiaoping)، الذي أعقب الزعيم ماو تسي تونغ في زعامة الصين، تبنت الدولة اقتصاد سوق تديره الدولة، مع الحفاظ على احتكار الحزب الشيوعي للسلطة السياسية. وما إن انتهت الحرب الباردة حتى ازدهر الاقتصاد الصيني في دوره بوصفه مصنع العالم المستغل للعمالة الرخيصة، الذي ينتج

السلع الاستهلاكية بطريقة أكثر كفاءة وأقل تكلفة وبنطاق أكبر بكثير من أي مكان آخر. وشجع الأميركيون هذه المعجزة الاقتصادية الصينية، ليس لأنها كانت توفر منتوجات ذات جودة عالية بأسعار منخفضة للمستهلكين الأميركيين، بل أيضًا لأن ذلك بدا أنه سوف يدفع الصين إلى القبول بتوافق واشنطن في نهاية الأمر. وفي نهاية عام 2001، أصبحت الصين عضوًا في منظمة التجارة العالمية، في الوقت نفسه الذي بدت فيه أميركا مسيطرة، وقد خرجت لتوها منتصرة من أفغانستان وبدأت تحول ناظريها إلى العراق.

كانت هذه اللحظة علامة فارقة، بالنظر إلى الماضي بأثر رجعي. فقد كانت الولايات المتحدة تعاني سلسلة من الهزائم المذلة في كل من أفغانستان والعراق. بعد ذلك وفي عام 2008، دمرت الأزمة الاقتصادية الحادة بما فيه الكفاية لتستحق اسم «الانتكاس العظيم»، ما بقي من الزعم الأميركي بالسيادة. بيد أنه، وعلى مدار الفترة نفسها، استمر الاقتصاد الصيني في النمو، متخطيًا الاقتصاد الياباني ليصبح ثاني أكبر اقتصاد في العالم عام 2010. وقد كانت بكين، بشكل حاسم، تترجم هذه القوة الاقتصادية إلى استقرار سياسي داخلي وقوة عسكرية دولية. فقد أنفقت مليارات الدولارات على المساعدات الاقتصادية الثنائية وبرامج إنشاء البنى التحتية عبر آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية وأنشأت سلسلة من القواعد العسكرية على شواطئ الأراضي التي استعادتها في المياه المتنازع عليها لبحر الصين الجنوبي.

وفي خطبته أمام البرلمان الأسترالي عام 2011، أعلن الرئيس باراك أوباما (Barack Obama) أن الولايات المتحدة سوف تحول دفتها من الشرق الأوسط باتجاه شرق آسيا حتى يتم ترويض صعود الصين وتطويقه. كان ذلك حسًا استراتيجيًا سليمًا، فقد انتقل مركز ثقل السياسة والاقتصاد العالميين نحو الشرق، في اللحظة التي بدا فيها واضحًا أن القوة العسكرية الأميركية لم يكن لها إلا عواقب في غاية السلبية في الشرق الأوسط. إلا أن الواقع الجيوسياسي أثبت أنه عنيد للغاية. فالخروج من الشرق الأوسط بدا صعبًا، وبات من الواضح أن الصين قد بلغت في صعودها غايات بعيدة وبشكل سريع جدًا، بحيث لم يعد من الممكن ترويضها أو

تطويقها. ومهما كانت استحقاقات الطموحات الأميركية أو الصينية، فمن المؤكد أن التنافس بين بكين وواشنطن سوف يحدد العلاقات الدولية لعقود قادمة. وما إذا كان هذا التنافس سيؤدي إلى نزاع عسكري أم لا، فهذه هي المسألة الاستراتيجية الكبرى التي تواجه العالم في أوائل القرن الحادي والعشرين.

كذلك، فإن نتيجة الصراع الصيني الأميركي سوف تحدد، على الأرجح، المصير العالمي للقواعد الليبرالية واقتصاديات السوق الحرة. فقد كان الترويج للديمقراطية الليبرالية الرأسمالية وحمايتها هو النجم الهادي لأميركا في العالم لأكثر من قرن حتى الآن، منذ مذكرات الباب المفتوح بين عامي 1899 و1900، إلى توافق واشنطن والتدخلية الإنسانية وما بعدها. ظلت الولايات المتحدة في خلال عصر ما بعد عام 2001 في حالة مستمرة من الأزمة، بينما كانت الصين في المقابل، تنتقل من قوة إلى قوة. بيد أنه، على الرغم من الجراحات التي سببتها الولايات المتحدة لنفسها، مثل الحروب التي لا طائل منها في العراق وليبيا، وعلى الرغم من حدة الانتكاس العظيم، لا تزال الولايات المتحدة هي الدولة الأقوى في العالم. فقد احتفظت بأغلب قوتها الناعمة الثقافية، ولا تزال محرك العالم الاقتصادي وأكبر مبتكر للتكنولوجيا وهي القوة العسكرية المسيطرة، بفارق كبير عن الباقي. أما ما إذا كانت الأعوام المئة المقبلة سوف تصبح قرنًا أميركيًا جديدًا أم قرنًا صينيًا، فذلك ما لم يتحدد.

قراءات إضافية

قراءات عامة

Costigliola, Frank & Michael J. Hogan. *Explaining the History of American Foreign Relations*. 3rd ed. Cambridge: Cambridge University Press, 2016.

Cumings, Bruce. *Dominion from Sea to Sea: Pacific Ascendancy and American Power*. New Haven, CT: Yale University Press, 2009.

Gabaccia, Donna R. *Foreign Relations: American Immigration in Global Perspective*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2012.

Herring, George. *From Colony to Superpower: U.S. Foreign Relations since 1776*. New York: Oxford University Press, 2008.

________. *The American Century and Beyond: U.S. Foreign Relations, 1893-2014*. New York: Oxford University Press, 2017.

________. *Years of Peril and Ambition: U.S. Foreign Relations, 1776-1921*. New York: Oxford University Press, 2017.

Hopkins, A. G. *American Empire: A Global History*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2018.

Hunt, Michael H. *Ideology and U.S. Foreign Policy*. New Haven, CT: Yale University Press, 1987, 2009.

Kaplan, Amy. *The Anarchy of Empire in the Making of U.S. Culture*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002.

Mayers, David. *Dissenting Voices in America's Rise to Power*. Cambridge: Cambridge University Press, 2007.

McDougall, Walter A. *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World since 1776*. New York: Houghton Mifflin, 1997.

Preston, Andrew. *Sword of the Spirit, Shield of Faith: Religion in American War and Diplomacy*. New York: Alfred A. Knopf, 2012.

Stephanson, Anders. *Manifest Destiny: American Expansion and the Empire of Right*. New York: Hill & Wang, 1995.

Tyrrell, Ian. *Transnational Nation: United States History in Global Perspective since 1789*. New York: Red Globe Press, 2007, 2015.

Williams, William Appleman. *The Tragedy of American Diplomacy*. Cleveland: World Pub. Co., 1959; New York: W. W. Norton, 2009.

التأسيس والجمهورية الوليدة

Calloway, Colin G. *The Indian World of George Washington: The First President, the First Americans, and the Birth of the Nation*. New York: Oxford University Press, 2018.

Fitz, Caitlin. *Our Sister Republics: The United States in an Age of American Revolutions*. New York: Liveright, 2016.

Gould, Eliga H. *Among the Powers of the Earth: The American Revolution and the Making of a New World Empire*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2012.

Hendrickson, David C. *Peace Pact: The Lost World of the American Founding*. Lawrence: University Press of Kansas, 2003.

Taylor, Alan. *American Revolutions: A Continental History, 1750-1804*. New York: W. W. Norton, 2016.

توسعية القرن التاسع عشر

Blackhawk, Ned. *Violence over the Land: Indians and Empires in the Early American West*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006.

Conroy-Krutz, Emily. *Christian Imperialism: Converting the World in the Early American Republic*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2015.

DeLay, Brian. *War of a Thousand Deserts: Indian Raids and the U.S.-Mexican War*. New Haven, CT: Yale University Press, 2008.

Greenberg, Amy S. *A Wicked War: Polk, Clay, Lincoln, and the 1846 U.S. Invasion of Mexico*. New York: Alfred A. Knopf, 2012.

Guyatt, Nicholas. *Bind Us Apart: How Enlightened Americans Invented Racial Segregation*. New York: Basic Books, 2016.

Hahn, Steven. *A Nation without Borders: The United States and Its World in an Age of Civil Wars, 1830-1910*. New York: Penguin Books, 2016.

Jacobs, Margaret D. *White Mother to a Dark Race: Settler Colonialism, Maternalism, and the Removal of Indigenous Children in the American West and Australia, 1880-1940*. Lincoln: University of Nebraska Press, 2009.

Lee, Robert. «Accounting for Conquest: The Price of the Louisiana Purchase of Indian Country.» *Journal of American History* 103 (March 2017).

Nugent, Walter. *Habits of Empire: A History of American Expansionism*. New York: Alfred A. Knopf, 2008.

Rothman, Adam. *Slave Country: American Expansion and the Origins of the Deep South*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005.

Sexton, Jay. *The Monroe Doctrine: Empire and Nation in Nineteenth- Century America*. New York: Hill and Wang, 2011.

القرن العشرون: رؤى عامة وتفسيرات

de Grazia, Victoria. *Irresistible Empire: America's Advance through Twentieth-Century Europe*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005.

Dudziak, Mary L. *War Time: An Idea, Its History, Its Consequences*. New York: Oxford University Press, 2012.

Engel, Jeffrey A., Mark Atwood Lawrence & Andrew Preston (eds.). *America in the World: A History in Documents from the War with Spain to the War on Terror*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2014.

Immerwahr, Daniel. *How to Hide an Empire: A History of the Greater United States*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 2019.

Latham, Michael E. *The Right Kind of Revolution: Modernization, Development, and U.S. Foreign Policy from the Cold War to the Present*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2011.

Leffler, Melvyn P. *Safeguarding Democratic Capitalism: U.S. Foreign Policy and National Security, 1920-2015*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2017.

McAlister, Melani. *Epic Encounters: Culture, Media, and U.S. Interests in the Middle East since 1945*. Berkeley: University of California Press, 2005.

Milne, David. *Worldmaking: The Art and Science of American Diplomacy*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 2015.

Nichols, Christopher McKnight. *Promise and Peril: America at the Dawn of a Global Age*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2011.

Rosenberg, Emily S. *Spreading the American Dream: American Economic and Cultural Expansion, 1890-1945*. New York: Hill & Wang, 1982.

Sherry, Michael S. *In the Shadow of War: The United States since the 1930s*. New Haven, CT: Yale University Press, 1995.

Thompson, John A. *A Sense of Power: The Roots of America's Global Role*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2015.

Zelizer, Julian E. *Arsenal of Democracy: The Politics of National Security-From World War II to the War on Terrorism*. New York: Basic Books, 2010.

الحرب والإمبراطورية بعد عام 1898

Hoganson, Kristin L. *Fighting for American Manhood: How Gender Politics Provoked the Spanish-American and Philippine-American Wars*. New Haven, CT: Yale University Press, 1998.

Kramer, Paul A. *The Blood of Government: Race, Empire, the United States, and the Philippines*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2006.

LaFeber, Walter. *The New Empire: An Interpretation of American Expansion, 1860-1898*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 1963.

Perez Jr., Louis A. *The War of 1898: The United States and Cuba in History and Historiography*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1998.

Renda, Mary A. *Taking Haiti: Military Occupation and the Culture of U.S. Imperialism, 1915-1940*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2001.

عصر الحرب العالمية الأولى

Capozzola, Christopher. *Uncle Sam Wants You: World War I and the Making of the Modern American Citizen*. New York: Oxford University Press, 2008.

Epstein, Katherine C. *Torpedo: Inventing the Military-Industrial Complex in the United States and Great Britain*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2014.

Irwin, Julia F. *Making the World Safe: The American Red Cross and a Nation's Humanitarian Awakening*. New York: Oxford University Press, 2013.

Keene, Jennifer D. *Doughboys, the Great War, and the Remaking of America*. Baltimore: Johns Hopkins University Press, 2003.

Kennedy, Ross A. *The Will To Believe: Woodrow Wilson, World War I, and America's Strategy for Peace and Security*. Kent, OH: Kent State University Press, 2009.

Knock, Thomas J. *To End All Wars: Woodrow Wilson and the Quest for a New World Order*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 1992.

Manela, Erez. *The Wilsonian Moment: Self-Determination and the International Origins of Anticolonial Nationalism*. New York: Oxford University Press, 2007.

Tooze, Adam. *The Deluge: The Great War, America and the Remaking of the Global Order, 1916-1931*. New York: Penguin, 2014.

عصر الحرب العالمية الثانية

Blower, Brooke L. «From Isolationism to Neutrality: A New Framework for Understanding American Political Culture, 1919-1941.» *Diplomatic History* 38 (April 2014).

Borgwardt, Elizabeth. *A New Deal for the World: America's Vision for Human Rights.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2005.

Dallek, Robert. *Franklin D. Roosevelt and American Foreign Policy, 1932-1945.* New York: Oxford University Press, 1995.

Doenecke, Justus D. *Storm on the Horizon: The Challenge to American Intervention, 1939-1941.* Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2000.

Kimball, Warren F. *The Juggler: Franklin Roosevelt as Wartime Statesman.* Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994.

Reynolds, David. *From Munich to Pearl Harbor: Roosevelt's America and the Origins of the Second World War.* Chicago: Ivan R. Dee, 2001.

الحرب الباردة: رؤى عامة

Borstelmann, Thomas. *The Cold War and the Color Line: American Race Relations in the Global Arena.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2001.

Chamberlin, Paul Thomas. *The Cold War's Killing Fields: Rethinking the Long Peace.* New York: Harper Collins, 2018.

Craig, Campbell & Fredrik Logevall. *America's Cold War: The Politics of Insecurity.* Cambridge, MA: Harvard University Press, 2009.

Gaddis, John Lewis. *Strategies of Containment: A Critical Appraisal of American National Security Policy during the Cold War.* New York: Oxford University Press, 2005.

Gaddis, John Lewis. *We Now Know: Rethinking Cold War History.* Oxford: Oxford University Press, 1997.

Isaac, Joel & Duncan Bell (eds.). *Uncertain Empire: American History and the Idea of the Cold War.* New York: Oxford University Press, 2012.

Kwon, Heonik. *The Other Cold War.* New York: Columbia University Press, 2010.

Leebaert, Derek. *The Fifty-Year Wound: How America's Cold War Victory Has Shaped Our World.* Boston: Little, Brown, 2002.

Leffler, Melvyn P. *For the Soul of Mankind: The United States, the Soviet Union, and the Cold War.* New York: Hill and Wang, 2007.

________ & Odd Arne Westad (eds.). *The Cambridge History of the Cold War.* 3 vols. Cambridge: Cambridge University Press, 2010.

Reynolds, David. *One World Divisible: A Global History Since 1945*. New York: W. W. Norton, 2000.

Westad, Odd Arne. *The Global Cold War: Third World Interventions and the Making of Our Times*. Cambridge: Cambridge University Press, 2005.

__________. *The Cold War: A World History*. New York: Basic Books, 2017.

الحرب الباردة: دراسات حالة

Anderson, Carol. *Eyes Off the Prize: The United Nations and the African American Struggle for Human Rights, 1944-1955*. Cambridge: Cambridge University Press, 2003.

Dudziak, Mary L. *Cold War Civil Rights: Race and the Image of American Democracy*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2000.

Freedman, Lawrence. *Kennedy's Wars: Berlin, Cuba, Laos, and Vietnam*. New York: Oxford University Press, 2000.

Fursenko, Aleksandr & Timothy J. Naftali. *One Hell of a Gamble: Khrushchev, Castro, and Kennedy, 1958-1964*. New York: W. W. Norton, 1997.

Hitchcock, William I. *The Age of Eisenhower: America and the World in the 1950s*. New York: Simon & Schuster, 2018.

Leffler, Melvyn P. *A Preponderance of Power: National Security, the Truman Administration, and the Cold War*. Stanford: Stanford University Press, 1992.

Rotter, Andrew J. *Comrades at Odds: The United States and India, 1947-1964*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2000.

Stueck, William. *Rethinking the Korean War: A New Diplomatic and Strategic History*. Princeton: Princeton University Press, 2002.

فيتنام

Asselin, Pierre. *Vietnam's American War: A History*. Cambridge: Cambridge University Press, 2018.

Bradley, Mark Philip. *Vietnam at War*. Oxford: Oxford University Press, 2009.

Daddis, Gregory A. *Westmoreland's War: Reassessing American Strategy in Vietnam*. New York: Oxford University Press, 2014.

__________. *Withdrawal: Reassessing America's Final Years in Vietnam*. New York: Oxford University Press, 2017.

Lawrence, Mark Atwood. *The Vietnam War: A Concise International History*. New York: Oxford University Press, 2008.

Logevall, Fredrik. *Choosing War: The Lost Chance for Peace and the Escalation of War in Vietnam*. Berkeley: University of California Press, 1999.

_________. *Embers of War: The Fall of an Empire and the Making of America's Vietnam*. New York: Random House, 2012.

Nguyen, Lien-Hang T. *Hanoi's War: An International History of the War for Peace in Vietnam*. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2012.

Preston, Andrew. *The War Council: McGeorge Bundy, the NSC, and Vietnam*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006.

الحرب الباردة بعد فيتنام

Borstelmann, Thomas. *The 1970s: A New Global History from Civil Rights to Economic Inequality*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2012.

Brands, Hal. *Making the Unipolar Moment: U.S. Foreign Policy and the Rise of the Post-Cold War Order*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2016.

Del Pero, Mario. *The Eccentric Realist: Henry Kissinger and the Shaping of American Foreign Policy*. Ithaca, NY: Cornell University Press, 2010.

Logevall, Fredrik & Andrew Preston (eds.). *Nixon in the World: American Foreign Relations, 1969-1977*. New York: Oxford University Press, 2008.

Morgan, Michael Cotey. *The Final Act: The Helsinki Accords and the Transformation of the Cold War*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2018.

Moyn, Samuel. *The Last Utopia: Human Rights in History*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2010.

Sargent, Daniel J. *A Superpower Transformed: The Remaking of American Foreign Relations in the 1970s*. New York: Oxford University Press, 2015.

Snyder, Sarah B. *Human Rights Activism and the End of the Cold War: A Transnational History of the Helsinki Network*. Cambridge: Cambridge University Press, 2011.

من نهاية الحرب الباردة حتى «الحرب على الإرهاب»

Bacevich, Andrew J. *America's War for the Greater Middle East: A Military History*. New York: Random House, 2016.

Bailey, Beth & Richard H. Immerman (eds.). *Understanding the U.S. Wars in Iraq and Afghanistan*. New York: NYU Press, 2015.

Chandrasekaran, Rajiv. *Imperial Life in The Emerald City: Inside Iraq's Green Zone*. New York: Alfred A. Knopf, 2006.

Chandrasekaran, Rajiv. *Little America: The War Within the War for Afghanistan*. New York: Alfred A. Knopf, 2012.

Chollet, Derek & James Goldgeier. *America Between the Wars: From 11/9 to 9/11*. New York: Public Affairs, 2008.

Coll, Steve. *Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001*. New York: Penguin Books, 2004.

________. *Directorate S: The C.I.A. and America's Secret Wars in Afghanistan and Pakistan*. New York: Penguin Press, 2018.

Engel, Jeffrey A. *When the World Seemed New: George H. W. Bush and the End of the Cold War*. New York: Houghton Mifflin Harcourt, 2017.

Fuller, Christopher J. *See It/Shoot It: The Secret History of the CIA's Lethal Drone Program*. New Haven, CT: Yale University Press, 2017.

Mann, James. *Rise of the Vulcans: The History of Bush's War Cabinet*. New York: Viking, 2004.

________. *The Obamians: The Struggle Inside the White House to Redefine American Power*. New York: Viking, 2012.

Packer, George. *The Assassins' Gate: America in Iraq*. New York: Farrar, Straus & Giroux, 2005.

Ricks, Thomas E. *Fiasco: The American Military Adventure in Iraq*. New York: Penguin, 2006.

Wright, Lawrence. *The Looming Tower: Al-Qaeda and the Road to 9/11*. New York: Alfred A. Knopf, 2006.

فهرس عام

-ق-

-ك-

مسائل المتعلقة بتاريخ العلاقات الخارجية للولايات
واخر القرن الثامن عشر، وحتى حربها على الإرهاب
ي أوائل القرن الحادي والعشرين، وأبرزها: كيف
مكانة العالمية غير المسبوقة؟ وما التطورات التي
ت إلى هذه المرحلة؟ وما العوامل التاريخية التي
سياساتها الخارجية وعلاقاتها الدولية؟ وكيف يرى
في العالم؟ وكيف أثرت أميركا بتفاعلاتها في

الخارجية الأميركية ينبغي أن يكون محط اهتمام
قد كان للولايات المتحدة تأثير كبير بخلاف أي قوة
ن العشرين. وبلغ حضورها - الثقافي والاقتصادي
عسكري - حدًا من العظم، حتى بات لسلوكها في
مية غير عادية.

ونتاريو الكندية وتخرج في جامعة تورنتو قبل التحاقه
سياسية وجامعة كامبردج. ثم درّس التاريخ والدراسات
جامعة فيكتوريا وييل، حتى استقر به المقام أستاذًا
ج في المملكة المتحدة. ألّف عدة كتب ومقالات في
لية مثل كتاب **مجلس الحرب: ماكجورج باندي ومجلس**
(*The War Council: McGeorge Bundy, the NSC, and Vi*
: الدين في الحرب والدبلوماسية الأميركية (*Sword of*
the Spirit, Shield of Faith: Religion (2012)، وبه حصل
في عام 2013.

ومراجع مصري، يعمل حاليًا في مركز نماء للبحوث
العلاقات الدولية من الجامعة الأمريكية في القاهرة
وراه في العلوم السياسية في جامعة القاهرة (كلية
عدد من المقالات المنشورة في المواقع الإلكترونية.



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

مقدمة مختصرة في العلاقات الخارجية الأميركية
أندرو بريستون
ترجمان

أندرو بريستون

مقدمة مختص
في العلاقات

ترجمان



المركز العربي للأبحا
rch & Policy Studies